الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م

الجمع التصويرى والتجهيز
بالزهراء للإعلام العربى

تصميم الغلاف والإخراج الفنى : عصمت داوستاشى

كتاب الزهراء

دكتور علي شلش

اليهود والماسون في مصر

دراسة تاريخية

الزهراء للإعلام العربي

هذا الكتاب

يطرح هذا الكتاب موضوعين مختلفين ، وإن كانت بينهما علاقة واضحة . ومع ذلك فليس الهدف هو البحث فى هذه العلاقة وحدها ، وإنما الهدف هو البحث فى أقليتين اجتماعيتين فى تاريخ مصر الحديث . وكان اليهود يشكلون أقلية اجتماعية طوال ذلك التاريخ ، وكذلك الحال مع الماسون . ولكن إذا كانت مصر قد عرفت الأقلية اليهودية طوال تاريخها القديم والحديث معا ، فلم تعرف الأقلية الماسونية إلا فى تاريخها الحديث فى أعقاب احتكاكها المباشر بأوربا ، أو ، بمعنى أدق ، فى أعقاب الغزو الأوربى الحديث على يدى نابليون بونابرت . وربما تبدو كلمة « أقلية » أكبر من أن تستوعب جماعة أو تنظيما اجتماعيا أو سياسيا معينا ، مثل جماعة الماسون أو التنظيم الماسونى ، ولكن الماسونية لم تستطع فى تجربتها المصرية أن تتغلغل داخل النسيج الاجتماعى المصرى ، وظلت – طوال تاريخها – تجربة من تجارب الأقليات الاجتماعية كما سنرى .

وهكذا ينقسم الكتاب إلى قسمين ، يتناول أحدهما التجربة اليهودية فى مصر الحديثة ويتناول الآخر التجـ   الماسونية فى مصر الحديثة أيضا ، أى ابتداء من الغزو الأوربى الحديث حتى يدى « بونابرت » .

أما القسم الأول فيتناول التجربة اليهودية فى جميع إطاراتها المتاحة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا ، كما يتناول موقع هذه التجربة وأثرها فى تاريخ مصر الحديث . وأعترف مقدما أن تعبير « التجربة اليهودية » ليس من صنعى ، ولكنى أخذته عن "أبا إيبان" السفير والوزير الإسرائيلى الأسبق ، الذى شغل نفسه بتاريخ قومه ، وتجربتهم - على حد تعبيره - فى كل مكان حلوا به قبل نشوء دولتهم .

وقد نجح اليهود فى إقامة دولة عن طريق السياسة ، ونجحوا أيضا فى تجميع مادة تاريخهم فى أوربا ، ولكنهم لم ينجحوا حتى اليوم فى تخليص أنفسهم من الهوى السياسى ، وكتابة تاريخهم بمعزل عن أهدافهم السياسية ، ولاسيما فيما يتعلق بالتجربة اليهودية فى البلاد العربية قبل ظهور إسرائيل . والسبب فى هذا الإخفاق ليس نقص المادة التاريخية المتاحة كما يشكو معظم مؤرخيهم فحسب ، وإنما يكمن سرُّ الإخفاق أيضا فى تناول المادة التاريخية بهوى وفكر سياسيين مسبقين . وأبرز مظاهر هذا الإخفاق نجده فى محاولتهم كتابة تاريخ اليهود فى مصر الحديثة . إذ تنطلق هذه المحاولة بشكل عام من فكرة سياسية معينة ، وتتلخص هذه الفكرة فى أن اليهود عاشوا فى اضطهاد دائم .

وإذا كانت هذه الفكرة ركيزة من ركائز الفكر الصهيونى فهى فكرة أوربية الموطن والهوى ، دعمها اضطهاد اليهود فى أوربا وأحلامهم فى الفرار إلى فلسطين ، التى تصادف أن عاشوا فيها فترة فى التاريخ القديم . وهى فكرة لاتصلح مقياسا أو منطلقا لكتابة تاريخ اليهود الحديث ، ولاسيما فى البلاد العربية ، وعلى رأسها مصر . والبديل الموضوعى الوحيد هو تناول مادة هذا التاريخ بمعزل عن الهدف أو الهوى السياسى ، وتبرير الأفكار السياسية . وهذا ماحاولت عمله فى القسم الأول من الكتاب .

على ضوء التناول الموضوعى لتاريخ اليهود فى مصر الحديثة يخرج قارىء هذا التاريخ بنتيجة واضحة ، هى أن اليهود ازدهروا ، فى ذلك التاريخ حتى سنة (١٩٤٨)، على نحو لم يحدث إلا فى ألمانيا قبل هتلر ، والولايات المتحدة الأمريكيّة منذ تأسيسها . ولم يكن ازدهار اليهود على هذا النحو راجعا إلى عبقرية خاصة أو براعة موروثة كما يرى مؤرخوهم ، وإنما كان راجعا فى الأساس إلى عاملين لاغنى عنهما فى تحقيق أى ازدهار :

١ - الموقف الرسمى غير المعادى من جانب الدولة التى يعيشون فيها .
٢ - الموقف الشعبى المتسامح من جانب أهل هذه الدولة .

وبهذين العاملين ازدهر اليهود فى مصر الحديثة - حتى سنة (١٩٤٨)- ونشطوا ، وغامروا ونجحوا فى الكثير من المجالات ، إن لم يكن فى جميع المجالات التى دخلوها . بل كان لنشاطهم الصهيونى فى مصر أثر فعال فى تدعيم نشاطهم الصهيونى فى فلسطين .

ومع ذلك كانت الفترة من (١٩٤٨) حتى الآن مرحلة أخرى مختلفة بظروفها وعواملها المعروفة .

ليس الهدف من هذه الدراسة إذن أن نكشف عن هوى المؤرخين اليهود ووقوعهم تحت سنابك السياسة ، فهذه مسألة تتكشف ذاتيا وتلقائيا ، ولكن الهدف أن نناقش التجربة اليهودية فى مصر الحديثة على ضوء التاريخ والسياسة ، لا لخدمة أهداف السياسة ولا لخدمة تسييس التاريخ .

وأما القسم الثانى من هذا الكتاب فيتناول تجربة أقلية اجتماعية أخرى هى التجربة الماسونية ، وهى تجربة بدأت فى تاريخ مصر مع بداية الغزو الأوربى الحديث ، وغرسها ورواها الأوربيون ، واستفادت منها الأقليات الأجنبية

والمحلية فى مصر ، بل استغلتها الأقلية اليهودية لحساب الأهداف الصهيونية البعيدة المرمى .

وإذا كان أصحاب الماسونية ودعاتها يحيطونها بالغموض ، فهذا القسم الأخير من الكتاب سيحاول فك الكثير من هذا الغموض ، ولاسيما فيما يتعلق بالتجربة الماسونية فى مصر . فهو دراسة تاريخية فى الأساس ، ولكن دون أن تحول الدراسة التاريخية عن استيعاب الجوانب الأخرى فى الموضوع .

وإذا كان تاريخ اليهود فى مصر الحديثة لم يكتب بعد على النحو الموضوعى المنشود ، فكذلك الحال فى تاريخ الماسون . وأرجو أن يضع الكتاب – بقسميه – مادة جديدة أمام المهتمين بهذا التاريخ وذاك ، وأن يشجع الباحثين على استكمال نواحى نقصه .

على شـلـش
لندن . يناير (١٩٨٦)

التجربة اليهودية في مصر

الجزء الأول

- عندما يصبح التاريخ شماعة للسياسة .
- كيف يكتب الإسرائيليون تاريخ اليهود فى مصر ؟
- الموقف الرسمى : غير معاد .
- الموقف الشعبى : ود وتسامح .
- النشاط السياسى بين الصهيونية والشيوعية .
- لم تظهر مشكلة يهودية فى مصر .
- (١٩٤٨) ومابعدها .
- تعقيبان لابد منهما .

عندما يصبح التاريخ شماعة للسياسة

كتابة التاريخ تختلف عن كتابة الرواية والقصة .

هذه بَدَهِيَّة يعرفها القارىء العادى قبل الناقد المتخصص .

ولكن قد تأتى كتابة التاريخ فى قالب روائى ، أى أن يسرد المؤرخ حوادث التاريخ ووقائعه بأسلوب أدبى مشوق ، فيه من المجاز قدر ما ، دون أن يتعمق فى الصراع بين أبطال تلك الحوادث ، أو يرسم شخصيات هؤلاء الأبطال رسما متقنا ، أى دون أن يدعى فى النهاية أن مايقدمه للقارىء رواية أدبية . وهذه ليست مشكلة .

أما أن يفكر الروائى فى كتابة رواية تقوم على الحوادث والحقائق التاريخية فهذه هى المشكلة ، لأنه يطمح عندئذ إلى خدمة سيدين فى وقت واحد : الفن والتاريخ . فالرواية التاريخية الجيدة هى التى يتقدم فيها الفن على التاريخ ، بمعنى أن يشكل التاريخ بوقائعه وشخصياته خلفية لأحداث الرواية وشخصياتها ، وأن يتحكم الروائى فى هذا كله بحيث يخدم الشكل الفنى الذى يعبر به عن موضوعه ، دون الاعتداء على وقائع التاريخ ، أى دون أن يؤلف وقائع تاريخية أو يغير الوقائع التاريخية الثابتة . ولكن من حقه أولا وأخيرا أن يفسر هذه الوقائع على النحو الذى يريد . وهكذا يصبح أبسط تعريف للرواية التاريخية أنها « الرواية التى تستمد شخصياتها وبيئتها وحوادثها من الماضى » .

وأما إذا طغت حوادث التاريخ بشكلها المجرد على الرواية ، وأصبحت الأخيرة مجرد مشجب يعلق عليه الكاتب هموم التاريخ ، فإن القارىء لايخرج برواية تاريخية ، وإنما يخرج بتاريخ روائى ، أى تاريخ ملفوف فى قماش روائى . وفى هذه الحالة قد يخرج القارىء أيضا برواية سياسية ، أى رواية اتخذت من التاريخ مسرحا ومنبراً لإعلان رأى سياسى معين .

غير أنه يبقى فى النهاية ذلك التوازن السحرى الدقيق المطلوب تحقيقه بين التاريخ والرواية . ولايستطيع أن يحقق هذا التوازن إلا الروائى الموهوب الذى يعمل

فى خدمة الفن أولا ، لأن الرواية التاريخية فن ، والفن موهوبة ، والموهبة مقدرة على تحقيق ألوان التوازن المطلوبة فى هذا المجال .

هذه الخواطر طافت بذهنى وأنا أقرأ رواية جديدة،وضعت مؤلفتها تحت عنوانها عبارة « رواية تاريخية » كأنما لتضيف سببا آخر للخلاف على موضوعها وطريقة معالجته من الناحية الفنية .

الرواية بعنوان « الخروج الثانى » ومؤلفتها اسمها « أدا أهارونى » .

أما العنوان فمأخوذ من التوراة كما هو واضح (من سفر : الخروج) والخروج هو خروج اليهود من مصر ، بقيادة نبيهم موسى عليه السلام ، فى عهد منفتاح الأول ابن رمسيس الثانى. ويقال إن ذلك الخروج تم سنة (١٢٣٠) فى قول ، أو سنة (١٣٠٠) فى قول آخر ، قبل الميلاد بالطبع . ولكن الخروج الثانى – كما تراه المؤلفة – تم فى أعقاب حرب فلسطين سنة (١٩٤٨) .

وأما صاحبة الرواية فإسرائيلية ، ولدت وتربت فى القاهرة ، ثم ضمها ذلك الخروج الثانى المزعوم عام (١٩٤٩) فذهبت إلى إسرائيل . وهناك أدركتها حرفة الأدب،فنشرت خمس مجموعات من الشعر والقصص ، كان آخرها ديوان بعنوان « من الأهرام إلى جبل الكرمل » ، أصدرته عام (١٩٨٠) وعاد عليها ببضع جوائز محلية . وهى تساهم فى تحرير مجلة للشعر بالإنجليزية ، وتقوم بتدريس الأدب الإنجليزى بجامعة حيفا . وكانت رسالتها للدكتوراه عن الكاتب اليهودى الأمريكى صول (شاءول) بيللو .

يضيف التعريف المنشور على غلاف الرواية إلى ماسبق أن المؤلفة من أنصار السلام فى إسرائيل ، وأنها تعتقد فى إمكان القضاء على فكرة الحرب وإبطالها من على وجه الأرض . ولهذا كونت فى إسرائيل منظمة من أجل السلام فى الشرق الأوسط ، تقتصر عضويتها على النساء الإسرائيليات والعربيات . وبسبب هذا النشاط نالت المؤلفة لقب « شاعرة السلام » فى إسرائيل .

أما هذه الرواية فهى أولى تجاربها بعد الشعر والقصة القصيرة . وقد نشرتها دار نشر أمريكية غير مشهورة تدعى « دورانس » فى ولاية بنسلفانيا .

ولكن ماذا تقول هذه الرواية « التاريخية » ؟ أى تاريخ تعنيه ؟ هل هو تاريخ اليهود القديم فى مصر ؟ أم هو تاريخهم الحديث ابتداء من عصر محمد على ؟ لماذا كان الخروج الثانى كما تسميه ؟ كيف صاغت هذا كله فى قالب فنى روائى يخدم الفن قبل أن يخدم التاريخ ؟

تبدأ الرواية ذات الفصول القصيرة الخمسة عشر بفصل عنوانه « فى ظلال الأهرام » حيث تطالعنا مجموعة من الشباب اليهودى فى مصر قبيل حرب فلسطين فى مايو (١٩٤٨) . وقد جاءت هذه المجموعة فى رحلة نظمتها حركة الشبان اليهود ، وكانت لها فى مصر أندية رياضية واجتماعية متعددة فى ذلك الوقت ، تحت اسم « المكابى » ، ووسط مجموعة الشباب هذه يبرز وجهان يهيمنان على المشهد ، بل على الرواية كلها بعد ذلك .

الوجه الأول لفتاة تدعى إنبار ، عمرها (١٨) سنة ، أبوها قاض فى المحاكم الملية اليهودية فى القاهرة ، تنتمى لأسرة موصيرى الغنية العريقة ، وتسكن فيللا كبيرة فى حى الزمالك الأرستوقراطى ، وتستعد للالتحاق بالجامعة . تميل إلى المرح والانطلاق .

والوجه الآخر لفتى يدعى راءول ، عمره (٢٠) سنة ، فر بأعجوبة من الاعتقال النازى فى ألمانيا ، وجاء إلى مصر عام (١٩٤٦) ؛ ليعيش مع خالته أرملة الدكتور عزرا باروخ الجراح المشهور فى المستشفى الإسرائيلى بالقاهرة الذى مات بالتيفوس قبل ثلاث سنوات . ويميل راءول إلى الصمت والعزلة .

التقى الوجهان فى الترام رقم (١٥) ، وكان يشق طريقه وسط القاهرة ، ويعبر الزمالك متجها إلى منطقة الأهرامات ، التى كانت وجهتهما . ، وبسرعة وجد كل

منهما فى صاحبه شيئا يبحث عنه . فلما حطت الرحلة عند الهرم الأكبر ازدادت الألفة ، وانطلق الجميع فى الرقص والغناء بالعبرية . وكانت الأغانى من أجل العودة إلى ماتسميه المؤلفة « الأرض الجميلة » ومع ذلك استطاعت إنبار أن تشغل راءول بملاحظاتها وأسئلتها . ومن ذلك أنها قالت له ، وهى تشير إلى الأهرامات متسائلة ، كأنما لتؤكد حقيقة فى ذهنها :

– وهل بنى أجدادنا هذا كله ؟ لابد أنهم كانوا أقوياء جدا .

سنغض النظر عن سؤالها بالطبع ، فلا أجدادها بنوا الأهرامات ، ولا كانوا أقوياء جدا ، ولكنها الأوهام التاريخية التى تتردد كثيرا اليوم فى كتابات يهود إسرائيل ، كما رددها مناحم بيجين للسادات . ولكننا لن نغض النظر عن الهدف الدعائى ، أو (البروباجندا) التى تكمن وراء السؤال السابق ، وغيره من ملاحظات تطالعنا كلما مضينا فى قراءة الرواية .

تقول الكاتبة بعد قليل فى تصويرها لشخصية « إنبار » :

« فى وقت مبكر من حياتها اكتشفت أنها ولدت فى مصر ، وعاشت أسرتها (١٥) جيلا . ومع ذلك لم تستطع الحصول على الجنسية المصرية ، لأنها يهودية . فلم يتمتع بالجنسية المصرية من المائة ألف يهودى فى مصر سوى خمسة فى المائة . أما الباقون فكانوا غير معينى الجنسية ، بالرغم من أنهم ولدوا فى مصر ، أو كانوا ممن يحملون جنسيات أجنبية ورثوها عن أسلافهم » .

ومن هذا التصور المغلوط فنيا وواقعيا ، تنطلق الكاتبة لترتب عليه هدفا سياسيا . أما الغلط الفنى فى التصور ، فخلاصته أن فتاة بهذه السن والأهلية ، لايمكن أن تفكر أو تتصور الأمور على هذا النحو ، وإذا شذت عن ذلك ، فلابد أن يكون لتصورها مقدمات مقنعة فى رسم الشخصية ووعيها ، وهذا مالم تحققه الكاتبة . وأما الغلط الواقعى فى التصور ، فخلاصته أيضا ، أن الذين تمتعوا بالجنسية المصرية

من اليهود كانوا يلحون عليها ويريدونها ، فى حين كانت الأغلبية من زملائهم غير معينى الجنسية ، تفضل البقاء على هذا الوضع أو اكتساب جنسيات أجنبية ، لما يعود عليها من منافع وامتيازات فى عصر كان الأجانب فيه – فى ظل الاحتلال البريطانى – معززين مكرمين .

ومع ذلك تمضى الكاتبة فتقول : إن إنبار سألت أباها ذات مرة :

● كيف حصلت نسبة الخمسة فى المائة هذه على الجنسية المصرية ؟

أجاب الأب :

– هؤلاء فى الأساس من الأثرياء جدا ، وقد حصلوا على الجنسية من خلال الرشوة .

وإذا كان بعض كبار أثرياء اليهود فى مصر قد حصلوا على الجنسية المصرية عن طريق الرشوة كما يقول الأب ، فهؤلاء قلة قليلة فى النسبة السابقة . أما الأغلبية العظمى فكانت من سكان « حارة اليهود » فى القاهرة ، ومايساويها فى المدن الأخرى ، وهؤلاء كانوا يحملون الجنسية المصرية ، ويعيشون على سفح السلم الاجتماعى لطائفتهم فى مصر ، أو بمعنى أدق كان معظم حاملى الجنسية المصرية من اليهود الفقراء أو المتوسطى الدخل ، بالقياس إلى زملائهم الذين لم تعنهم الجنسية المصرية فى شىء .

لم يكن الأب ، القاضى موصيرى ، من الفقراء على أى حال ، ولاكانت أسرته التى امتلكت الشركات والبنوك فقيرة . بل كانت من أعمدة الصهيونية فى مصر ، ومن ألصق الأسر بالثقافة الأوربية (الفرنسية بوجه خاص) ، وأكثرها انتماء للهوية الإسرائيلية على الطريقة الأوربية كما سنوضح بعد ذلك .

هناك هدف سياسى إذن وراء هذا الغلط المركب ، تسعى إليه الكاتبة . فبعد تصويرها للمناقشة بين الفتاة وأبيها حول الجنسية المصرية تقول : إن الأب لم يستطع الحصول على هذه الجنسية ، لأنه لم يقدم دليلا على أن أسرته عاشت

فى مصر منذ القرن التاسع عشر ، لأن الدولة العثمانية – كما تقول – لم تحتفظ بسجلات لمواليد الأجانب . وإذا صح ذلك فلماذا لم يحاول الأب الحصول على الجنسية عن طريق الرشوة وهو قادر عليها ؟ ألم يقل قبل قليل : إن « الأثرياء جدا » فعلوا ذلك ؟ وهل ساكن القصر أو الفيللا الفخمة فى حى الزمالك فقير ، لايملك القدرة على الرشوة ، إذا صحت ؟ هذا مظهر لتناقض التصور من الناحية الواقعية . ولكن الكاتبة لايعنيها ذلك ، وإنما يعنيها الهدف السياسى ، وهو أن الفتاة (إنبار) عاشت بسبب ذلك فى حيرة من أمرها ، لاتعرف أرضا ولاوطنا . وراحت تحلم بوطن تعيش فيه مع أغلبية مثلها من اليهود . ثم تقول على لسانها : « لقد كان الشعب المصرى كريما معنا ، ولكنى لاأريد أن أكون ضيفا محتملا فى أرض غريبة بعد الآن . لقد حان الوقت لشكرهم على حفاوتهم والبدء فى التفكير فى وطننا الحقيقى » .

هذا هو مربط الفرس،أو بيت القصيد،كما يقولون . ولكن هذا الكلام لايقوله من الناحية الواقعية إلا زعيم صهيونى ، أو ضالع فى الصهيونية . فهو إذن غلط واقعى من ناحية ، وفنى من ناحية أخرى ، لأن الكاتبة فرضته فرضا ، دون أن تمهد له ، أو تقنعنا بمقدرة شخصية الفتاة على النطق به ، فكأنه فى النهاية كلام المؤلفة ، لاكلام الشخصية التى تصورها . ولو أنها جاءت به فى نهاية الرواية لقلنا : إن الشخصية تطورت وتشربت الأفكار الصهيونية ، التى كانت أندية « المكابى » تبثها فى شباب اليهود المصريين . ولكن المشكلة أننا لم نتجاوز الصفحة الخامسة من الرواية بعد .

ثم تترك المؤلفة إنبار وتنتقل إلى راءول فتقول عنه : إنه لم يكن يؤمن بالحلم الصهيونى ، لأنه لم يكن ينتمى لحركة صهيونية ، وإنما كان يؤمن بالاشتراكية والعالمية ، وزوال الحدود ، ويرى أن زملاءه يبحثون عن حدود جديدة . كما كان متشائما فى نظرته إلى الحلفاء ، الذين لم يفعلوا شيئا فى نظره ، لإيقاف الأفران النازية عن حرق اليهود ، بعد أن راح ضحيتها (٨٣) فردا من أسرته . ومع ذلك

كان راءول يشارك(إنبار)فى الكثير ، فهو أوربى الثقافة يقرأ بأربع لغات ليس منها العربية ، جاء من طائفة الاشكنازيم (يهود شرق أوربا) ، فى حين جاءت هى من طائفة السفارديم (يهود الشرق الأوسط وأسبانيا) ، وهو أيضا يحب القراءة والمناقشة . ولكن أهم من هذا كله أن الود بدأ يمتد بحباله بين الاثنين منذ رحلة الهرم ، وأنها هى التى بدأت هذا الود وراحت تنميه ، بعد أن وقع الفتى فى قلبها موقعا حسنا . وراحت تعيره كتبا فى الشعر الإنجليزى ليناقشاها معا بعد القراءة ، كما فتحت له باب زيارتها فى قصر أبيها ، على الرغم من استياء جدتها لأبيها وتحذيرها لها من عواقب زيارة فتى لفتاة بغير رباط اجتماعى وثيق . والجدة هنا مثال للجيل الذى تأثر بتقاليد الشرق ، وحاول الاندماج فيها ، على عكس ابنها ، وحفيدتها التى لاتعرف من العربية إلا القليل .

وتمضى المؤلفة بعد ذلك ، فتصور تجربة راءول فى معسكر الاعتقال النازى ، وكيف أفقدته تلك التجربة ثقته فى البشر ، وجعلته يرى العالم غابة لارحمة فيها ولاشفقة . وهذا نفسه عكس ماسبق أن قالته عن إيمانه بالاشتراكية والعالمية ، وإزالة الحدود بين البشر ، فكأنها إذن تتناقض مع نفسها فى تصوير شخصيته . ولكن الذى لاتتناقض فيه هو أن الحب الذى بدأ يتفتح فى قلب الفتاة للفتى راح يتسع ويكبر ، بالرغم من ضيق أبيها بخروجها وممانعته فى اشتراكها فى أحد معسكرات « المكابى » فى الإسكندرية خلال الصيف ، بدعوى أن الفتاة السفاردية ليست فى تبرج الفتاة الاشكنازية . ومع ذلك تنجح فى اللحاق بالمعسكر والانضمام إلى راءول الذى راح يروى لها المزيد عن تجربة الاعتقال . ومنها أن أباه غطاه بجسمه فى الحفرة التى ألقاهما فيها النازى حتى لايراه هؤلاء ، وبعدها تسلل من الحفرة بعد أن قتل الألمان أباه وظنوه هو ميتا . ولكنه قبل أن يتسلل إلى الغابات وعد أباه بأن يعيش . وليس هذا غريبا ، ولكن الغريب أن الأب طالبه بهذا على نحو خطابى غير منطقى فى لحظات مثل هذه ، فقال له :

« عدنى ، عدنى ياراءول أن تبذل كل مابوسعك كى تعيش . هذا هو واجبك إزاء أسرتك : إزائى وإزاء أمك وإخوتك ... أنت آخر أفراد أسرة(ليبسكى). وإذا عشت فهذه هى الخسارة لهم (للألمان) .

ثم يعلق راءول على طلب أبيه :

« من الواضح لى غاية الوضوح ، أن الوعد الذى قطعته على نفسى لأبى ، هو سر بقائى على قيد الحياة » .

هذه الخطابية غير المنطقية فنيا أو واقعيا هى نفسها التى جعلت«إنبار»تزداد تعلقا بصاحبها ، وتسلم له جسدها دون إحساس بأى ذنب !

يعود الحبيبان بعد ذلك من شاطىء العجمى بالإسكندرية إلى القاهرة ، فيستجيبان لما فيها من تنوع وانطلاق . ويذهبان إلى دار الأوبرا ، حيث يشاهدان عرضا لمسرحية « جلسة مغلقة » لسارتر بالفرنسية . وتلتفت إلى المقصورة الملكية فترى الملك فاروق وزوجته (فريدة) وابنته فريال . ثم تناقش صاحبها حول وضع الإنسان والوجودية واليهود فى مصر ، وهى تروى له أن الملك فؤاد وعد بحماية اليهود واحترامهم فى مصر ، حتى يعودوا إلى وطنهم ، وأن ابنه فاروق سار على خطوه . ولكن راءول المتشائم أبدى لها قلقه وتخوفه . بل تنبأ لها بالخروج الثانى قبل وقوعه .

وهنا تصل المؤلفة بروايتها إلى الفصل الخامس وعنوانه « سوق باب اللوق » ، وفيه تصل أيضا إلى ذروة شديدة الغرابة والشذوذ ، تتناقض مع ماسمته كرم ضيافة المصريين لليهود . وبغض النظر عن استهلالها الفصل بتصوير قذارة السوق والشوارع وبشاعة الحياة ، فهى تعود ببطلتها « إنبار » إلى سن السابعة ، أى نحو عام (١٩٣٧) ، أو (١٩٣٨) ، دون أن تفطن إلى أن اليهود لم يتعرضوا فى مصر فى ذلك الوقت لما تعرضوا له قبيل أو بعد حرب فلسطين من مضايقات أو اعتداءات . وهى تصور«إنبار»ابنة السابعة مضطهدة فى السوق ، حتى وهى تسير

مع خادمتها « محسنة » . فالصبية يلاحقونها ويهتفون : « الإفرنجية اليهودية ! » (وضعت المؤلفة الهتاف بالعربية) ، هكذا بغير سبب . صحيح أنها تعلق فى عنقها سلسلة تتدلى منها نجمة داود ولكن هل كان الصبية يدرون وقتها أن النجمة رمز إسرائيل أو اليهود ؟

تروى«إنبار»ماحدث لها فى السوق لصاحبها راءول ، وتضيف إليه حادثة مقتل صبى صغير فى أرجوحة . وهنا يعلق راءول بقوله :

« هذا أحد الأشياء التى تثيرنى هنا . حقا ، إن الحياة رخيصة جدا ، فالناس يموتون من حولك – حتى فى الأحوال العادية بلا حرب ولأى شىء – فلا يهتم بهم أحد ! وهذا ماصدمنى دائما فيما يتعلق بمصر » .

بل إنه يروى لها – تأكيدا لكلامه – كيف شاهد بنفسه قبل أسبوع،بائع كبريت فى العاشرة من عمره كان قد هرب من الكمسارى إلى سطح الترام . وعند مرور الترام فوق جسر على النيل توقف فجأة لأمر ما ، فإذا بالصبى يسقط رأسا فى النيل . ومضى الترام دون أن يعلق أحد اللهم إلا « أفندى » شاهد ماحدث فقال « أخشى ألا يكون قادرا على السباحة » ، والحادثة بهذا التركيب تبدو مختلفة . فكيف يمضى الترام هكذا ببراءة والناس فى مصر كلهم عيون وآذان وألسن ؟ وإذا كان « الأفندى » الذى صوره راءول سلبيا فلماذا لم يتحرك هو ويلفت نظر السائق أو الكمسارى إلى ماحدث ؟!

ولكن هذه وغيرها وقائع « مفبركة » بطريقة تخدم هدف الرواية .«فإنبار»تعود مرة أخرى فتتذكر ماحدث لها فى سوق باب اللوق . وتعلق بأنها لم تنزعج إلا لكلمة « إفرنجية » التى وصفها بها الصبية ، (وهل تدرى الإفرنجية ابنة السابعة معنى الكلمة ؟!) وبدأت تشعر بأنها بلا وطن وبلا جنسية . وهكذا دار فى رأسها طوال سنواتها المصرية ألم البحث عن هوية على حد تعبيرها !

إذا كانت هذه ذروة شديدة الغرابة والشذوذ والتناقض ، فهى توصلنا إلى ذروة أخرى أغرب وأكثر شذوذا وتناقضا فى الفصل التالى بعنوان « الانتقام » . فمشهد السوق يستمر ، وتستمر «إنبار» فى سرد ماحدث لها فى ذلك اليوم ، وهى لاتزال ابنة السابعة . إذ تصحبها « محسنة » إلى أخيها « على » الذى يعمل فى محل للحلوى ، ثم يصحبهما على معا إلى داره ، حيث نجد أمه تصيح فى وجهه بكلمة واحدة هى « الانتقام » أو « الثأر » . وهنا تبدأ الغرابة والشذوذ والتناقض . إذ يتحول على إلى ذئب يحاول اغتصاب الطفلة اليهودية . وتعلق «إنبار» بأنها أدركت بعد سنين عدة أن ذلك لم يكن إلا لأنها يهودية . لماذا ؟ لأنها – كما تقول – تعلم فيما بعد أن أخاها « جابى » سبق أن اغتصب « محسنة » ، وأن أباها لم يتشفع لأبى محسنة ، حين اتهم فى حادث سرقة فدخل السجن ومات به . وكان أن أضمرت الأسرة الرغبة فى الانتقام والثأر ، فلما حانت الفرصة اعتدى « على » على بنت مخدوم أخته . ومع ذلك فما ترويه المؤلفة فى هذا المشهد لايقنع بالمرة ، لا لأنه حادث اغتصاب غريب ، وإنما لأن الأم العجوز هى التى شجعت عليه ، وأشرفت على تنفيذه دون أن تأخذها رحمة أو شفقة !

لقد تركت هذه الحادثة – على أى حال – جرحا فى نفس الطفلة ، عمقته الأيام وجعلته يؤرق صاحبته نحو المزيد من الانتماء إلى وطن ، ولكنها لاتترك فى نفس القارىء قناعة ولااقتناعا بما فعلته الأم العجوز .

ويلى ذلك فصل آخر بعنوان « اليهود المصريون » تستهله «إنبار» بحكاية عن والد صديقتها ، طبيب العيون العالمى الذى قرر الهجرة من مصر إلى أمريكا ، لأن المستشفى المصرى الذى يعمل به تخطاه فى الترقية كرئيس قسم لا لشىء إلا لأنه يهودى . وتعود إلى أسئلتها المكررة : « ماذا نفعل فى بلد ليس بلدنا ؟ ماذا يعنى اليهودى المصرى بالضبط ؟ » ولكنها لم تتساءل : ماذا نفعل أيضا فى أمريكا ؟

وكان نادى المكابى (الشباب اليهودى) ، قد كلف «إنبار» بإعداد محاضرة عن « اليهود المصريين » راحت تعد لها ، ولكنها فوجئت يوم إلقائها بباب النادى ، وقد تصدره الشمع الأحمر الذى وضعته السلطات نتيجة إحساسها بخطورة نشاط النادى . وقد كانت أندية «المكابى» هذه منذ إنشائها حتى (١٩٥٢) ، بؤرة للنشاط الصهيونى بين شباب اليهود ، وكانت سلطات الأمن المصرية تغلق بعض هذه الأندية من وقت لآخر ، حتى يتعهد لها مسئولو الأندية بعدم العودة إلى النشاط غير المطلوب . ومع ذلك كان المدرخ (قائد المجموعة التى تنتمى إليها «إنبار») قد أعد لها مكانا آخر للمحاضرة . فصحبها من أمام النادى إلى دار يهودية قريبة من المكان ، حيث رحب رب الدار بالمحاضرة وصاحبتها وجمهورها الذى كان كله من زملائها وزميلاتها فى النادى . وكانت المحاضرة عن وضع اليهود فى مصر عبر التاريخ ، وقد استغرقت الفصل كله تقريبا . وعبثا حاولت الكاتبة أن تطعمها بتعليقات الحاضرين ونكاتهم ومشاغباتهم لصاحبة المحاضرة . فقد ظلت المحاضرة مادة جافة وسط السياق الروائى ، وكان من الممكن الاستغناء عنها بسهولة . وسوف نعود إليها بعد ذلك لمناقشة ماجاء فيها من وقائع وآراء .

كانت بريطانيا وقت إلقاء المحاضرة ، قد أعلنت انتهاء وصايتها على فلسطين ، بعد عشرة أيام ، وكانت الأمم المتحدة قد أصدرت قرار التقسيم المشهور ، ولم يبق على إعلان الدولة اليهودية سوى عشرة أيام أيضا . ولهذا قام المدرخ (الكلمة عبرية بمعنى القائد أو الموجه) بتحذير الحاضرين من الذهاب إلى السينما فى تلك الليلة (٥ مايو ١٩٤٨) ؛ حتى لايتعرضوا لردود الفعل إزاء مايحدث على أرض فلسطين . ومع ذلك لم يسمع أحد للتحذير ، وذهبوا إلى السينما حيث تصدى لهم من تسميهم المؤلفة باسم الغوغاء من المسلمين المتعصبين ، فقذفوا واحدا من شباب اليهود بحجر أصابه بنزيف ، حتى اضطر هؤلاء إلى مغادرة دار السينما والاحتماء بإحدى العمارات القريبة . وكان بواب العمارة رحيما بهم فأغلق وراءهم الباب . وحين انصرف الغوغاء ، والمسلحون بالعصى والسكاكين ، خرج البواب

ليستطلع الأمر فلقى حتفه على يد أحد المسلحين أمام الباب . وبعدها هدأ الموقف قليلا ، فخرج اليهود المعتصمون (٢٥ شابا وشابة) إلى الشارع ساعين إلى بيوتهم ، ولكن أحدهم تعرض للضرب من بعض المسلحين ، حتى فقد وعيه ، وحمله سائق تاكسى عابر إلى المستشفى اليهودى .

كان الشاب المصاب هو نفسه راءول . وفى صباح اليوم التالى زارته«إنبار»فى المستشفى فوجدته محطم البدن والروح ، ولكنه قال لها : إنه سيتم ترحيله إلى خارج البلاد ، دون أن تشرح المؤلفة سبب الترحيل ، ومن الواضح أن السبب كان يرجع إلى نشاط راءول المعادى كاشتراكى أو شيوعى .

وهنا نصل إلى الفصل العاشر من الرواية فنجد«إنبار»تحلم فى منامها بأنها أصبحت عروس النيل ، وأنها ستلقى فى مياه النهر . ثم تحكى باقتضاب شديد – غير مقنع بالطبع – عن ترحيل صاحبها إلى فرنسا ، وتروى عن زفاف ابنة خالها أو عمها الذى تستعد له الأسرة فى العيد . وحين يتم الزفاف تسقط أثناء الحفل علبة كبيرة من الصينى ، فيها « ملبس » العروسين ، ويتناثر الملبس فى أرجاء المكان ، فتربط«إنبار»بين سقوط العلبة وتحطمها وتناثر مافيها ، وبين تناثر اليهود فى كل اتجاه . وفجأة يظهر أبوها القاضى فيستدعيها ويبلغها غاضبا هائجا ، أن أخاها قد قبض عليه . ثم يذهب إلى قسم الشرطة فيرشو الجاويش بعشرة جنيهات حتى يرى ابنه ، ويقابل الضابط المختص فيساومه الأخير على ألف جنيه ، مقابل الإفراج عن الابن ، .والحاخام«فنتورا»، وترحيلهما إلى باريس بدلا من سجنهما ! وبعدها يقرر الأب نفسه الرحيل عن مصر .

فى الوقت الذى يقرر فيه الأب الرحيل ، يكون قد تم ترحيل (١٢) من مجموعة الثلاثين التى تضم «إنبار» فى نادى «المكابى» . ثم تم ترحيل الابن . واجتمع الباقون من المجموعة فى بيت إحدى الفتيات ، وفوجىء الجميع بأن « المدرخ » يعلن أمامهم أن « الخروج الثانى » قد بدأ . وكان قد مضى أسبوع واحد على إعلان

دولة إسرائيل . وبعدها تتطور الأمور فتصدر الحكومة (المصرية) قانونا يجعل نسبة الأجانب فى الشركات ٢٥ ٪ لإحراج اليهود كما تقول المؤلفة ، وتتشدد مصلحة الضرائب فى تقديراتها على أموالهم ، ويزداد نكير الإخوان المسلمين عليهم . ويقرر قائد مجموعة«إنبار»(المدرخ) تدريب الباقين من أفرادها (١٨ شخصا) على السلاح لحماية أنفسهم . وتتحول حركة الشبان اليهود (المكابى) إلى العمل السرى . ويصمم الأب على بيع الفيلا والرحيل ، ولكن أمه العجوز ترفض السفر ، وتسقط ذات يوم من على السلم الداخلى للفيلا ، مع طقم الصينى الذى كانت تعتز به . وتلفظ الروح فى مشهد ميلو درامى مسطح . ويدفنها«ابرامينو» موصيرى مع زوجته . ويبيع الفيلا لأسرة فلسطينية ثرية هاجرت إلى القاهرة ، بسبب الحرب . ويتقاضى نظير البيع ثمنا بخسا ، ويحزم حقيبة واحدة ، ويحمل عشرين جنيها لنفسه ومثلها لابنته (وهو المبلغ المسموح بإخراجه وقتها) ثم يرحل مع ابنته إلى مرسيليا . أما ثمن البيت والسيارة فقد أودعهما فى البنك السويسرى ثم قيل له فى مرسيليا : إن الحكومة المصرية استولت على المبلغ وصادرته !

وهكذا تتوالى المصائب على موصيرى وأسرته . ولكنه يصمد ، وينتقل إلى باريس حيث يعمل فى وظيفة صغيرة كملاحظ ليلى فى فندق ، بالقرب من ابنه الذى بدأ يكمل دراسة الطب هناك بعد ترحيله . أما«إنبار»فتسافر إلى إسرائيل بحثا عن مجموعتها ، ولاسيما عن راءول الذى لم تجد له أثرا فى باريس أو الأمريكتين . وبعد مدة يلحق بها الأب لرؤيتها ، ولكنه يموت بالسكتة القلبية عقب عودته إلى باريس .

لقد استقرت «إنبار» فى «كيبوتز» (المزرعة الجماعية) دجانيا ، وراحت تعمل بفلاحة الأرض مثل غيرها ، وتتذكر ماضيها وتحلم بمستقبلها ، ولكنها تشعر بالسعادة لأنها وجدت وطنا على حد قولها . وهنا تصل بنا المؤلفة إلى الفصل الأخير (١٥) من الرواية ، حيث يطالعنا عام (١٩٥١) ،«وإنبار»لاتكف عن البحث

عن راعول عن طريق الوكالات اليهودية حتى تجده أخيراً فى القدس عند جبل صهيون . وكان قد تغير إحساسه السابق بالهزيمة والشك ، فراح ينذر البشرية فى كلامه ويتوعدها إذا لم تفق وتغير أساليبها المجنونة ، التى تضعها على حافة الفناء ، ولكنه لم يعد يرى العالم غابة . « فقد تعلم من الهولوكوست (عملية الإبادة النازية) درساً مهما ، هو : « تشبث بفرصتك فى السعادة بكل ماأوتيت من قوة ، قبل أن تختفى الفرصة مرة أخرى ... تشبث بالحاضر . (كما قال سارتر) : « تشبث به بكل ماأوتيت من قوة – فما عداه هباء وقبض ريح » .

وتنتهى الرواية كما تنتهى أفلام النهاية السعيدة . فقد اتحد إنبار وراعول فى القدس – كما تقول المؤلفة – مثلما اتحد باقى اليهود تحت أصوات المؤذنين وأجراس الكنائس !

لعله قد اتضح من خلال العرض السابق لهذه الرواية ، أن المؤلفة محدودة الموهبة الروائية ، وأنها أرادت أن تكتب رواية تاريخية ، ولكن النية شيء والنتيجة شيء آخر . فمن الناحية الفنية جاءت الرواية رديئة لأسباب كثيرة أهمها الاهتمام بالتفاصيل والحكايات الصغيرة غير الضرورية أو المقنعة ، التى صنعت فى النهاية عملا ميلودراميا يخلو من المنطق الفنى والبناء المحكم ، ويضعف رسم الشخصيات التى سيطر عليها البعد الواحد ، وحركتها إرادة المؤلفة لامنطق الأحداث وتطورها ، فضلا عن تهافت الأحداث ذاتها . وبهذا كله تسقط الرواية فنيا . ومن الناحية الفكرية نجد تعبير « الرواية التاريخية » فوق طاقة الرواية والمؤلفة معا . فالتاريخ كما قلنا فى البداية : ليس إعادة ترتيب الوقائع التاريخية ، وإنما هو وقائع محددة فى نسيج زمانى مكانى إنسانى ، يمكن النظر إليها من زوايا متعددة ، أو تفسيرها على ضوء معين ، دون الوقوع فى أخطار التحيز أو التلاعب . وبهذا المعنى تصبح هذه الرواية الرديئة فنيا ، رواية سياسية بالدرجة الأولى ، أى أنها كتبت لهدف سياسى معين . وهذا ماسنناقشه بعد ذلك ، لا لأهمية الهدف ، وإنما لأهمية الموضوع .

نعود إلى المحاضرة التى أجلنا مناقشتها ، وهى بعنوان « اليهود المصريون » وتحتل الفصل السابع من هذه الرواية التاريخية الكاذبة ، وفيها بذلت المؤلفة جهدا بحثيا كبيرا بلاشك ، ولكنه الجهد الضائع فى النهاية ؛ لأن القارىء لايمكن أن يتوقع من فتاة فى الثامنة عشرة ، لم تدخل الجامعة حتى تتعلم أصول البحث العلمى ، ولم تبد عليها موهبة من أى نوع ، أن تقدم له محاضرة كهذه . وبذلك تضيف المؤلفة إلى ضعف الرواية ضعفا آخر ، فضلا عن إمكان حذف المحاضرة نهائيا من الرواية ، دون أن يتخلخل تركيبها أو معمارها الفنى ، الذى لايزيد على معمار قصة قصيرة .

تقول المحاضرة : إن تاريخ اليهود فى مصر يرجع إلى عهد نبيهم جرميا ، الذى جاء هو نفسه إلى مصر مع أتباعه عقب تدمير المعبد اليهودى الأول فى القدس . وكان ذلك عام (٥٨٧) قبل الميلاد ومنذ ذلك التاريخ ، لم تخل مصر من اليهود ، ولكن أول المستوطنين منهم على نطاق واسع جاءوا بعد فتح الإسكندر الأكبر للقدس عام (٣٣٢) ق . م . وهذا ماأثبتته – كما تقول المحاضرة – وثائق الجنيزة التى أخفاها اليهود، طوال القرون الماضية ، داخل الجدران المزدوجة فى معبد بن عزرا بحى مصر القديمة فى القاهرة . وحتى يتضح أمر هذه الوثائق نضيف نحن من عندنا ، أنها مجموعة من المخطوطات اليهودية القديمة ، أخفاها اليهود فى تاريخ غير معروف ، داخل ذلك المعبد الذى يزيد عمره على (٨٠٠) سنة . ثم جاء عالم يهودى يدعى سولومون شختر إلى مصر سنة (١٨٩٦) ، واقتنص من هذه المخطوطات نحو (١٠٠) ألف ورقة ، وسافر إلى إنجلترا حيث أودعها بجامعة كيمبريدج .

وتضيف المحاضرة أن عدد اليهود فى مصر خلال القرن الأول الميلادى بلغ مليون نسمة كان معظمهم يعيش فى الإسكندرية . ولكننا نعرف أن كلمة « معظم » فى أى لغة تعنى أكثر من النصف ، أى أن عدد يهود الإسكندرية فى ذلك القرن

لم يقل عن (٦٠٠) ألف نسمة ، وهذا رقم مبالغ فيه بلا شك ، لأن سكان الإسكندرية خلال تلك الفترة لم يزيدوا على (٦٠٠) ألف نسمة ، وكان معظمهم من اليونان والرومان .

بعد أن ذكرت المحاضرة رقم المليون الكاذب هذا بادرتها فتاة من الحاضرين بهذا السؤال :

● كيف هبط عدد اليهود فى مصر من مليون إلى ١٠٠ ألف اليوم (عام ١٩٤٨) ؟ وهل يعنى هذا أننا من نسل ذلك المليون الأول ؟

أجابت المحاضرة :

سأبدأ بالإجابة عن الجزء الثانى من سؤالك **فأقول** : نعم . نحن من نسلهم طبقا لوثائق الجنيزة . أما بالنسبة للجزء الأول من السؤال ، فيبدو من المحتمل جدا أن كثيرين تركوا هذه المنطقة ، وهاموا على وجوههم ، فذهب منهم فريق إلى أسبانيا حيث كونوا مايعرف باسم اليهود السفاردية (السفارديم) ، وذهب فريق آخر إلى الشمال حيث كونوا هناك مايعرف باسم اليهود الإشكنازية (الاشكنازيم) ، وكان ذلك فى الحالتين بسبب العديد من ألوان الاضطهاد ، التى تعرض لها هؤلاء وأولئك فى الشرق الأوسط ، عبر العصور ، فى عهد الإغريق أولا ثم فى عهد الرومان . وتفاوتت أقدارهم فكانت أحوالهم تزدهر أحيانا كتجار وزراع وموظفين ، أو يجدون أنفسهم فى نزاع مع الغزاة أحيانا أخرى . وأدت ألوان القهر التى عانوها إلى العديد من الثورات اليهودية ، من بينها ثورة عام (١١٥) المشهورة[١] .

وإذا كان اليهود فى مصر قد تعرضوا للاضطهاد على أيدى الإغريق والرومان ، وهذا صحيح ، فليس صحيحا أنهم تعرضوا لأى اضطهاد مماثل على أيدى العرب المسلمين ، حين فتحوا مصر أو حين أصبحت مصر عربية اللسان إسلامية الديانة .

تستطرد المحاضرة قائلة :

– وفى ظل الحكم العربى ورسوخ الإسلام فى القرن السابع تعاقب على اليهود الازدهار والانكماش ، فجاء عليهم وقت تمتعوا فيه بدرجة من التسامح والحماية فى ظل شريعة البلاد (مصر) ، ووقت آخر تعرضوا فيه للاضطهاد واضطروا إلى وضع نجمة صفراء على ملابسهم لتميزهم من المسلمين . وكان وضعهم الرسمى يسمى أهل الذمة – أى الذين تحت الحماية – غير المتساوين بالمواطنين المسلمين ، ولم يكونوا مواطنين حقيقيين لهم حق المواطنة بالرغم من أنهم كانوا موجودين فى المنطقة قبل العرب كما ذكرت من قبل[٢] .

وهنا يبدو التحامل على التاريخ واضحا . ومن الأنسب – حتى لانتهم بالتحيز – أن نرد هذا التحامل الواضح مستعينين بما كتبه المؤرخون والكتاب اليهود قبل ظهور إسرائيل . ويجب أن نلاحظ أن ظهور إسرائيل عام (١٩٤٨) ، كان فاصلا بين الموضوعية والتحامل فى تناول تاريخ اليهود فى المنطقة العربية بالذات ، وأن هذا التحامل لم يكن موجودا قبل (١٩٤٨) ، أو فى مطالع هذا القرن بوجه خاص ، حتى فى كتابات غلاة الصهيونية . ومن هؤلاء يهودى صهيونى أمريكى زار مصر وفلسطين عام (١٩٠٩) ، هو بنيامين جوردون الذى ألف بعد عودته إلى أمريكا كتابا بعنوان « أرض اليهود الجديدة : الحياة اليهودية فى فلسطين ومصر الحديثة » وفى هذا الكتاب المتحيز للصهيونية ، تحدث الرجل عن التسامح والازدهار اللذين لاقاهما اليهود على أيدى العرب المسلمين ، ولم يذكر حادثة اضطهاد واحدة . وليس أدل على ذلك من التقدم الذى أحرزه اليهود فى مصر قبل العصر الحديث ، حين كانت مصر ملجأ لهم من الاضطهاد الذى لاقوه فى أسبانيا بعد سقوط الحكم العربى هناك . وقد جاء مصر فى تلك الفترة أبراهام بن عزرا ، وموسى بن ميمون ، وسعيد الفيومى ، ويعقوب بن كلس ، والشيخ السديد ابن أبى البيان ، وغيرهم من أحبار وعلماء ووزراء اليهود وأطبائهم فى تلك

العصور . أما النجمة الصفراء أحيانا ، أو الحزام الأصفر أحيانا أخرى ، فلم تكن دعوة لاضطهاد اليهود ولأنزلت بهم أى عسف ، وإلا لما تدرج أولئك الذين ذكرنا أسماءهم فى مدارج الحياة وبلغوا مناصب الوزارة (ابن كلس) ، وطبابة الحكام (ابن ميمون) ، ولأنتجوا ماخلفوه من فقه وفلسفة بالعربية لأبناء ملتهم . ولم يكن هؤلاء وأولئك أهل الذمة وحدهم ، وإنما شاركهم الأقباط المصريون . ولم يعرف عن أهل الذمة أنهم اضطهدوا فى تلك العصور .

يقول جوردون فى كتابه الذى أشرنا إليه :

« بالرغم من حقيقة منع الأسفار المقدسة (التوراة) عودة إسرائيل إلى مصر ، فلم يحدث أن خلت مصر من اليهود فى أى عهد من عهود التاريخ اليهودى . فوثائق الجنيزة فى الفسطاط (مصر القديمة) تحمل براهين كافية على أنه لم يكن بمصر مركز يهودى فحسب ، وإنما كان هناك مركز روحى كبير أيضا . فقد وجد ميمونيدس (ابن ميمون) فى مصر قانونا يرجع تاريخ وضعه إلى سنة (١٠٠٨) . كما وجد أجزاء من التلمود ، رأى أن عمرها (٥٠٠) سنة ، ويدل عدد المخطوطات التى تم اكتشافها لهذا النص من التلمود على أن قراءة الكتب كانت منتشرة فى القاهرة القديمة . ويبدأ استيطان اليهود فى القاهرة على نطاق واسع نحو عام (١١٦٠) ، حين وصل إلى القاهرة موسى بن ميمون (الذى يعرف على النطاق الشعبى باسم رام بام) وقد أقام فى الفسطاط حيث أصبح الطبيب الخاص لوزير صلاح الدين ... وسرعان ماجتذب اسمه كثيرين من اليهود من البلدان القريبة والبعيدة . واستمر أثره على مدى خمسة أجيال من نسله ، ممن تولوا زعامة الطائفة اليهودية فى القاهرة »[٣] .

تقول المؤلفة إن جمهور المحاضرة أخذ يعلق على وضع اليهود فى مصر من حيث المواطنة منذ الفتح العربى الإسلامى لمصر ، فقال أحدهم : إن اليهود فشلوا فى أن يكونوا مواطنين مصريين بحق المولد كما يحدث فى البلاد الأخرى ، ولم يتمتعوا بهذا الحق . وقال آخر مدافعا : إن أفراد أسرته (أسرة منشه) يتمتعون

بالجنسية المصرية ، فعلق الأول بأن هذه الأسرة ليست القاعدة ، وأن ٥٪ فقط من يهود مصر ، معظمهم من الطبقات العليا ، يتمتعون بالجنسية ، وأنهم اشتروا هذه الجنسية عن طريق الرشوة . وحاولت المحاضرة أن تخفف عن الراشى دون أن تخفف التهمة ، بل أضافت أن اليهود لم يشتروا الجنسية وحدها ، وإنما اشتروا الألقاب والرتب أيضا مثل رتبة البك ورتبة الباشا ، حتى من كان منهم خيِّرا يجود بماله ، ويساعد الشعب المصرى بتأسيس المستشفيات والمدارس ، مثل منشه باشا . وعند ذاك قال ابن منشه : أبى يقول : إن اليهود هم أنفسهم الذين لم يريدوا اكتساب الجنسية المصرية لأنهم فضلوا البقاء كأجانب .

وردت المحاضرة على هذا التعليق بقولها :

– هذا يتوقف على السنوات التى نعنيها هنا بالإشارة . ففى مطلع القرن (العشرين) ، كان يوجد بالفعل يهود فضلوا الاحتفاظ بجنسيتهم الأجنبية ، ولم يتحمسوا لاكتساب الجنسية المصرية . فقد كانوا يتمتعون بمزايا معينة بصفتهم أجانب ، مثل التمتع بحق التقاضى أمام المحاكم المختلطة ، التى كانت أكثر رفقا من المحاكم الجنائية . ولكن عليك أن تذكر أولا أن أفراد الطائفة اليهودية لم يكونوا جميعا من ذوى الجنسيات الأجنبية . وأكثر من نصفهم لم يكونوا حاصلين على أى جنسية ، أى كانوا غير معينى الجنسية – مثلى ومثل معظم الحاضرين هنا – فضلا عن أن هناك ميزات عديدة يجنيها المرء من وراء كونه مصريا مع نمو الشعور الوطنى فى مصر ، ولاسيما منذ الحرب العالمية الثانية . فكثير من الوظائف ليست متاحة لليهود والأجانب على سبيل المثال . وقد تزايد عدد الذين قدموا طلبات للحصول على الجنسية المصرية ، ولكن طلباتهم لاقت الرفض[٤] .

هذه المشكلة التى أثارتها المؤلفة فى محاضرتها أثارها من قبل عدد من الكتاب الإسرائيليين فى تناولهم للوجود اليهودى فى مصر وتاريخه الحديث ، مثل حاييم كوهين وماريون وولفصون .

يقول كوهين فى كتابه : « يهود الشرق الأوسط » حول مشكلة الجنسية هذه :

« يجب أن نوضح فى هذا المقام أن قانون الجنسية المصرية الصادر سنة (١٩٢٩) كان يقضى بقبول طلب كل مقيم فى مصر للحصول على جنسيتها ، مالم يثبت أنه يحمل جنسية أخرى ولكن اليهود فى مصر ، باستثناء قلة قليلة ، لم يقدموا طلبات للحصول على الجنسية المصرية ، لأنهم لم يعلقوا عليها أهمية كبيرة . ولكن حين تم تعديل القانون - فيما بعد - بحيث يقضى بعدم منح الجنسية إلا لمن يثبت مولد جده فى مصر ، أو إقامة أسرته فى مصر بشكل دائم منذ سنة (١٨٤٨) ، أصبحت غالبية اليهود فى مصر غير مؤهلة للحصول على الجنسية المصرية . ومن ثمة بقى ألوف منهم غير معينى الجنسية »[٥] .

وهذا التوضيح المحدد المعنى نقلته ماريون وولفصون فى كتابها « الأنبياء فى بابل : اليهود فى العالم العربى » ورأت فيه دليلا على عدم اندماج يهود مصر فى المجتمع المصرى على عكس يهود العراق[٦] . ولكنها لاحظت أن نحو (٣٠) ألفا من يهود مصر فى القرن الماضى كانوا يحملون جنسيات أجنبية فى الوقت الذى لم يزر فيه كثيرون منهم البلاد التى حملوا جنسيتها . وكان ذلك العدد يقرب من نصف عدد اليهود فى أواخر القرن[٧] .

معنى هذا بوضوح أن اليهود فى مصر لم يحرصوا على الجنسية المصرية ، خلال مايقرب من قرن كامل (١٨٤٨ - ١٩٤٨) ، وقد ساعدهم الاحتلال البريطانى واستقرار المحاكم المختلطة ، والامتيازات الأجنبية على الاحتماء بالجنسيات الأوربية . ولم يرغمهم أحد على اتخاذ هذا الموقف بالطبع . أما من بقى منهم بغير جنسية محددة ، فكان يغادر البلاد ويعود إليها بوثيقة مرور خاصة موقع عليها من سلطات الأمن . ولم يكن هؤلاء يشكلون أغلبية على أى حال . فقد كانت الأغلبية تحمل جنسيات وجوازات سفر أجنبية ، وتحرص على التعامل مع الحياة المصرية من هذا الموقع . والدليل أيضا على هذا الحرص ماترويه

المحاضرة نفسها وماتسميه « حكاية ليفورنو » فما هذه الحكاية ؟

تقول المحاضرة :

« حدث أن أتى حريق على مبنى مكتب وزارة الخارجية بمدينة ليفورنو فى إيطاليا قبل الحرب (الثانية) ، وذهبت ضحية الحريق كل سجلات الأهالى المنتشرين فى أرجاء العالم . وقامت القنصلية الإيطالية فى مصر بدعوة جميع المواطنين الإيطاليين من أبناء ليفورنو إلى الحضور وإعادة تسجيل أسمائهم . وكانت هذه فرصة رائعة لكثيرين من اليهود غير المعينى الجنسية للحصول على جنسية ما . وهكذا تدافع إلى القنصلية الإيطالية زبائن ادعوا أنهم من ليفورنو . وأبدى القنصل دهشته الشديدة من كثرتهم ، ولكنهم حصلوا على الجنسية الإيطالية على أى حال »[٨] .

ولاأعتقد أن هؤلاء الذين زوروا محل ميلادهم فى سبيل الجنسية الإيطالية ، كانوا حريصين على الجنسية المصرية . ولو أنهم حرصوا عليها لساعدتهم السلطات الإنجليزية فى الحصول عليها .

معنى هذا كله فى النهاية ، أن اليهود الذين حرصوا على الجنسية المصرية ، قد حصلوا عليها قبل صدور قانون (١٩٢٩) وبعده ، وأن هذه الجنسية لم تكن تشكل لهم مشكلة خطيرة فى الحقيقة إلا فى عام (١٩٤٧) . ففى ذلك العام أصدرت وزارة النقراشى الثانية قانون الشركات رقم (١٣٨) ، الذى اشترط لأول مرة فى تاريخ مصر المالى والاقتصادى - كما يقول عبد الرحمن الرافعى - أن يكون للمصريين أكثر من النصف على الأقل من أسهم كل شركة تتألف فى مصر ، واشترط نسبة معينة من الموظفين المصريين يتحتم على كل شركة مراعاتها[٩] . وبهذا المضمون تهدد وضع اليهود غير معينى الجنسية من العاملين فى الشركات . أما قبل ذلك فلم تكن الشركات التى تنشأ فى مصر تطالب أحدا من موظفيها بشرط الجنسية ، فضلا عن أن ذلك القانون ذاته لم يغلق الباب أمام اليهود ، كما هو واضح من مضمونه . فقد ترك نسبة معينة ، أقل من النصف ، لغير المصريين ،

أى للأجانب من حاملى الجنسيات الأجنبية أو المحرومين منها على السواء .

أما الذين اشتروا الجنسية المصرية بالرشوة من اليهود ، فهؤلاء لايشكلون قاعدة ولاجمهورا عريضا ، فضلا عن استحالة إثبات الرشوة ذاتها . ولكن من الممكن أن تكون بعض الحالات قد وقعت على هذا النحو بالطبع ، وهذه وغيرها – مما لادليل عليه – لايتوقف عندها المؤرخ . بل إن المرء ليتساءل : لماذا لم يلجأ القاضى موصيرى إلى الرشوة إذا كان حريصا على الجنسية المصرية ؟ لماذا لم يحل مشكلته ومشكلة ابنته صاحبة المحاضرة بالمال ، عندما فشل فى حلها بغيره ؟

تعود المحاضرة بعد ذلك إلى الماضى البعيد ، فتذكر بعض أمثلة ازدهار اليهود علميا وثقافيا فى مصر ، ابتداء من العهد الإغريقى . وتذكر أن فيلو الإسكندرى اليهودى ترجم الإنجيل إلى اللغة اليونانية فى القرن الميلادى الأول ، وأن تأثيره كفيلسوف كان كبيرا لاعلى الفلسفة اليهودية وحدها ، وإنما على الفلسفة الهيلينية أيضا . كما تذكر أن عددا من اليهود قد ارتقوا مناصب مهمة فى مصر على مدار العصور . ومع أن هذا يتناقض مع ماسبق أن قالته عن اضطهادهم ، فإننا سنمضى فى متابعتها تأكيدا لما سبق أن قلناه عن التسامح الذى لاقاه اليهود فى مصر ، إن لم يكن فرص الازدهار التى أتيحت لهم فى مصر بعد أسبانيا على نحو لم يحدث فى أى بلد آخر خلال العصور الوسطى . ومن هؤلاء الذين تذكرهم المحاضرة سعاديا هاجا عون (٨٩٢ – ٩٤٢) (سعيد الفيومى فى المراجع العربية) الذى ولد فى الفيوم بصعيد مصر ، وميمونيدس (١١٣٥ – ١٢٠٤) أو ابن ميمون ، الذى جاء مصر من أسبانيا وقد ترجم سعاديا الإنجيل إلى العربية (أول ترجمة) ، وألف فى الفلسفة والنحو . وألف ابن ميمون معظم كتبه فى مصر بالعربية .

وتستطرد المحاضرة فتقول : إن القرن (١٤) شهد اضطهادات قاسية ضد اليهود فى مصر، مما أدى إلى هجرة كثيرين منهم . ولما استولى العثمانيون على

البلاد سنة (١٥١٧) بدأ اليهود ينعمون بالأمن مرة أخرى . وتستنبط من ذلك نمطا كثير الظهور فى حياة اليهود ، وهو أنهم حين يضطهدون يغادرون ويصبحون « يهودا جوالين » ، وحين تتحسن الأحوال يعودون ويحاولون إعادة جذورهم ، وهكذا . ومن الواضح أن المؤلفة تفرض الشعور بالتفوق عند اليهود على التاريخ . فما دام أثرهم لم يظهر فى فترة تاريخية ما ، فمعنى ذلك أنهم اضطهدوا خلال تلك الفترة . وإذا طبقنا هذا الفرض المفروض من جانبها على التاريخ – تاريخ اليهود فى مصر – وجاريناها فى قولها : إنهم تعرضوا للاضطهاد فى القرن (١٤) ولذلك هاجروا ، فإننا نتساءل : لماذا لم يظهر لهم أثر فى البلاد التى هاجروا إليها ؟ الجواب نستقيه من محاولة المحاضرة التفكه بالمثل المصرى القائل : « يوم عسل ويوم بصل » والعسل والبصل ليسا وقفا على اليهود وحدهم . فقد كان المصريون أيضا يعيشون على تعاقب العسل والبصل خلال تلك القرون .

تقول المحاضرة بعد ذلك :

– مع سقوط الإمبراطورية العثمانية ، وتأسيس مملكة مستقلة فى مصر ، جاءت الموجة الوطنية الجديدة المتزايدة بمتاعب واضطهادات جديدة ، مما اضطر يهودا كثيرين إلى التجوال نحو الشمال ونحو تركيا . وهكذا نجد مع بداية القرن العشرين طائفة تتألف من (٦٠) ألف يهودى فقط فى مصر ، منهم (٣٠) ألفاً فى القاهرة ، و (٢٥) ألفاً فى الإسكندرية ، والخمسة آلاف الباقية موزعة على مدن أصغر مثل : بورسعيد والسويس والإسماعيلية وبنها . غير أن وضعهم تماسك إلى حد ما مع مرور الوقت . وكان أكثر من نصفهم تجاراً بعد أن سمح بالتجارة لليهود ، وشجعتها السلطات ، فى حين عمل الآخرون فى الوظائف الإدارية والمصالح والمهن بصفة أساسية .

ومن الملاحظ هنا أن المؤلفة ليست على علم جيد بالتاريخ . فالإمبراطورية العثمانية لم تسقط إلا بالحرب العالمية الأولى ، والمملكة التى أسسها محمد على

لأسرته فى مصر لم تكن منفصلة تماما عن الإمبراطورية إلا فى بعض عهده وسنوات الاحتلال البريطانى . ومن الملاحظ أيضا أن الموجة الوطنية التى تقصدها المؤلفة ، هى الحركة العرابية وثورتها . وخلال هذه الثورة لم يضطهد أى يهودى ، ولكن عددا كبيراً من الأجانب غادر مصر حين حاصر الأسطول الإنجليزى الإسكندرية ، وكان من بينهم يهود كثيرون . ومع ذلك عاد الجميع بعد استقرار الاحتلال البريطانى ، أى أن رحيلهم لم يتجاوز شهورا .

ومن الملاحظ أخيرا أن الأرقام التى أوردتها المؤلفة كاذبة تماما . فطبقا للإحصاءات الرسمية حتى (١٩٤٨) (التى تمت كلها فى عهد الاحتلال البريطانى وأخذ بها الباحثون الإسرائيليون نجد أن تطور عدد اليهود فى مصر كان كالتالى :

(١٨٩٧) (٢٥٢٠٠) .
(١٩٠٧) (٣٨٦٣٥) .
(١٩١٧) (٥٩٥٨١) .
(١٩٢٧) (٦٣٥٥٠) .
(١٩٣٧) (٦٢٩٣٥) .
(١٩٤٧) (٦٥٦٣٩) .

وهكذا يتبين أن عدد اليهود لم يبلغ (٦٠) ألفا إلا فى العشرينيات لافى بداية القرن كما تقول المؤلفة . وهذه الأرقام السابقة كلها نجدها فى كتاب كوهين الأستاذ بالجامعة العبرية ، الذى سبقت الإشارة إليه ، وهى لاتختلف عن الأرقام التى جاءت فى الإحصاءات المصرية الرسمية ، فضلا عن أن إحصاء (١٩١٧) ، سجل ارتفاع عدد اليهود فى القاهرة إلى (٢٩٢٠٧) ، وعددهم فى الإسكندرية إلى (٢٤٨٥٨) ، وفى المدن الأخرى إلى (٤٦١٨) ، أى أن المؤلفة رجعت إلى هذه الأرقام فى الغالب ، قبل أن تغيرها[١٠] .

تستطرد المحاضرة قائلة :

عند نشوب الحرب العالمية الثانية كان وضع اليهود قد تحسن ، فزاد عدد المشتغلين منهم بالبنوك والتجارة والمهن الحرة ، مثل الطب والمحاماة والتدريس والهندسة . وأصبحت الطائفة ثرية نسبيا ، بل ضمت العديد من المليونيرات . وهكذا تأمنت حياة اليهود فى عهد الاحتلال والملك فؤاد . وأقيمت المدارس والمعابد والمستشفيات والأندية اليهودية . وازدهرت الطائفة وتألقت خلال السنوات الخمسين الماضية (قبل ١٩٤٨) بل إن الطبقات الفقيرة التى عاشت بشكل عام فى حارة اليهود تمتعت بحياة أفضل . ففى الماضى لم يكن يتمتع برغد العيش سوى يهود الطبقة الوسطى وسكان الأحياء الأوربية فى المدينة . وفى هذه الأحياء مثل الزمالك وجاردن سيتى وهليوبوليس والضواحى الراقية فى القاهرة ، لم يحدث اتصال يذكر بين اليهود والسكان العرب والثقافة العربية ، فى حين كان هذا الاتصال يتم على نحو أكبر مع الجيتو اليهودى ، الذى يتألف كما نعرف جميعا من صغار البقالين والباعة الجوالين ، ويقع فى قلب المدينة . أما اليوم فيوجد فى مصر نحو مائة ألف يهودى[١١] .

ولاغبار على هذه الفقرة إلا فى جملتها الأخيرة . فما زال حس المؤلفة بالأرقام يميل إلى المبالغة ، لأن العدد الحقيقى – كما مر بنا – أقل من (٦٦) ألفا .

إلى هنا نصل إلى مسألة أزعجت المحاضرة طويلا كما تقول :

– كيف نكون نحن اليهود المصريين أكثر توجها للغرب من الشرق ، مع أننا نعيش فى قلب الشرق الأوسط ؟ هذا سؤال يرتبط ارتباطا وثيقا بجوهر هويتنا . وسوف يقربنا قليلا من فهم هذه الهوية[١٢] .

وترد على سؤالها بقولها : إن البيوت اليهودية فى مصر ، تختلط فيها الثقافة الأوربية والتقاليد اليهودية والعادات الشرقية . وقد أدى هذا إلى إثراء اليهود من

ناحية ، وإزعاج الشباب منهم بمشكلات الهوية من ناحية أخرى . فاليهود-كما تقول-يوازنون بين الغرب والشرق ، بين الثقافتين : الفرنسية والبريطانية من جهة ، والقيم اليهودية والصهيونية من جهة أخرى . وترى أن الأمر لم يكن اختياريا ولامتعمدا ، وإنما فرضته الظروف المحيطة باليهود فى مصر ، فالحكومة المصرية لم تشأ أن يكونوا مصريين ، فاضطروا إلى التوجه نحو الثقافة الأوربية ، التى كانت متاحة وقتها فى مصر ، وتضيف : ومادامو لايريدوننا فنحن لانريدهم . وهذا فيما يبدو هو السبب الاجتماعى التاريخى للتوجه الثقافى نحو الغرب . لقد اختار اليهود الثقافة الفرنسية ، بعد افتتاح قناة السويس سنة (١٨٦٩) وإقامة شبكة مدارس الليسيه الفرنسية فى مصر ، بهدف تخريج الإداريين والموظفين فى شركة القناة وغيرها من المصالح الفرنسية . ثم جاءت مدارس « التحالف الإسرائيلى » فتحالفت مع مدارس « التحالف الدولى الفرنسى » ، فأصبحت الفرنسية اللغة الأم عند يهود مصر واللغة الأولى فى المدارس اليهودية ، فى حين أصبحت الإنجليزية لغة ثانية تليها العبرية فالعربية . ثم ازداد إقبال اليهود على المدارس الإنجليزية والأمريكية ، مما ساعد ، فى النهاية ، على نشر الثقافة الغربية بين اليهود ، ونشأتهم فى أحضانها . وفى الوقت نفسه ساعدت على انتشار هذه الثقافة فى مصر دور العرض السينمائية الأمريكية ، والفرق المسرحية والموسيقية والأوبرا الزائرة . ونشأت الصحف اليهودية فى مصر بتأثير لغة فرنسا وثقافتها .

تضيف المحاضرة أيضا :

« ارتفع مستوى التعليم بين اليهود بسرعة ، ففتح أمامهم فرصا مهنية جديدة عديدة . وقد استجابوا بسرعة للثورة التكنولوجية ولم يعودوا مجرد مصدرين ومستوردين وصيارفة وتجار ، وإنما أصبحوا مهندسين وباحثين وقضاة ومحامين وأطباء ومعلمين . وبذلك ساعدوا كثيرا على رفع المستويات الاقتصادية والتربوية فى مصر . وأرسلوا أولادهم إلى الجامعات الأمريكية والمصرية المحلية ، فضلا

عن الدراسة فى الخارج بفرنسا وانجلترا والولايات المتحدة . وأدى هذا كله إلى توسيع المناخ الغربى والعالمى الجديد ، الذى أضاف إلى التنوع المثمر فى التيارات وكذلك فى العادات والتقاليد الشرقية واليهودية التى كانت قائمة بالفعل . ومن طريف مايلاحظ أن « التقدم الأوربى » كان فى كثير من البيوت (اليهودية) راية رفعتها الأم ، فى حين كان الأب المسئول عن الرفاهة الاقتصادية والتعامل مع العرب ، يميل إلى التقاليد الشرقية ، ويحرص على حفظ الوضع القائم على ماهو عليه . وكان الولد رجل المستقبل ، كثيرا مايتلقى دروسا خصوصية فى اللغة العربية ، بالإضافة إلى تعليمه الغربى ، على عكس البنت حتى لو التحقت بالجامعة فى النهاية ... وهكذا أصبحت الطائفة اليهودية فى مصر ، طائفة عصرية غربية التوجه . وصحب هذا التغريب اليهودى مدٌّ من النشاط الغامر ، فى مجالات عديدة اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا ، عاد على مصر برخاء جديد . ومن الأشياء الطريفة التى تمثل هذا الوضع فى المجال الاقتصادى ، أن منطقة الحمزاوى ، مركز تجارة الأقمشة فى الموسكى ، تغلق أبواب محلاتها أيام السبت حتى الآن (١٩٤٨) ، لأن اليهود لايعملون يوم السبت »[١٣] .

وإذا كانت الظروف المحيطة قد فرضت « تغرب » اليهود كما تقول المحاضرة ، أى تعلقهم بالغرب ، فلم يكن ذلك لأن الحكومة المصرية اضطرتهم إليه حين لم تمنحهم الجنسية على ماتعتقد المؤلفة . وقد مر بنا أن مسألة الجنسية هذه حجة على اليهود ، لأنهم هم الذين لم يحرصوا على اكتسابها . فكأن تعلقهم بالغرب جاء إذن تعبيرا عن مصلحة مادية فى الحقيقة ، لأن مصر نفسها كانت تحت سيطرة الغرب ، ابتداء من عهد الخديو إسماعيل . وكان لابد أن يتعلق اليهود بأصحاب النفوذ أو السيطرة ، فهذه مسألة طبيعية لأنهم أقلية ، والأقلية عادة فى حاجة إلى الحماية ، والحماية عادة عند صاحب النفوذ أو السلطان . فإذا أضفنا إلى هذا عامل الهجرة اليهودية الأوربية المتزايدة منذ الاحتلال الإنجليزى فى (١٨٨٢) يصبح التعلق بأوربا منطقيا ، لأن هذه الهجرة اليهودية أوربية الثقافة

والتكوين . فإذا أضفنا أيضا عامل استمرار اتصال أفراد هذه الهجرة بأوربا فى التجارة والبنوك ، لم يعد أمامنا مايشكك فى التعلق اليهودى بأوربا ، نتيجة للأسباب التى ذكرناها ، وليس نتيجة لما تعتقده المؤلفة المحاضرة .

لنعد مرة أخرى إلى الأرقام فهى تؤكد مانقول .

لقد بلغ عدد اليهود فى إحصاء (١٨٩٧) – كما ذكرنا من قبل – (٠٢٥٢٠٠) يهودى . وكان هذا أول إحصاء تعرفه مصر لسكانها – بشكل منظم – فى ظل الاحتلال الإنجليزى . ولكن بعض تفاصيل الرقم السابق ، تدلنا على الحقيقة التى نبحث عنها . فقد بلغ عدد اليهود المصريين حاملى الجنسية المصرية (١٢٦٩٣) يهوديا ، وبلغ عدد اليهود الأجانب حاملى الجنسيات الأجنبية (١٢٥٠٧)[١٤] . ومعنى هذا أن حاملى الجنسية المصرية كانوا فى ذلك الوقت أكثر من (٥٠ ٪) . فما السبب فى ذلك ؟ السبب ببساطة أن اليهود الأجانب هؤلاء جاء معظمهم إلى مصر فى الفترة من سنة (١٨٨٢) ، أو قبلها بسنوات ، إلى (١٨٩٧) . وكان مصدر هجرتهم الأساسى أوربا ، بعد مايعرف فى تاريخهم باسم مذابح روسيا فى (١٨٧٩ ، ١٨٨١) وكان هدفهم الاستفادة من الوضع الجديد فى مصر بعد الاحتلال البريطانى . وإذا عدنا أيضا إلى أرقام الإحصاءات السابقة ، لاحظنا الارتفاع المستمر فى أعداد اليهود منذ سنة (١٨٩٧) ، ولاسيما فى تعداد سنة (١٩١٧) الذى بلغ فيه عدد اليهود (٥٩٥٨١) نسمة ، وهو رقم مرتفع إذا قيس بعددهم سنة (١٩٠٧) ، وهو (٣٨٦٣٥ ، أى بزيادة ٢٠٩٤٦)نسمة ، وهو مايوازى (أربعة أخماس عددهم عام ١٨٩٧) . والسبب فى هذه الزيادة المرتفعة لم يكن التكاثر الطبيعى عن طريق الإنجاب ، وإنما كان فى الأساس هجرة يهودية كبيرة من فلسطين ، وقت الحرب العالمية الأولى ، بسبب اضطهاد الوالى العثمانى أحمد جمال باشا . وقد بلغ عدد المهاجرين إلى الإسكندرية وقتها (١١٢٧٧) يهوديا وكان هؤلاء أنفسهم من

المهاجرين الأوربيين إلى فلسطين على أثر المذابح الروسية ، وبتأثير الدعاية الصهيونية .

ومن الغريب أن الدعاية الصهيونية ، كانت من أهم عوامل احتفاظ اليهود الأوربيين المهاجرين إلى مصر بثقافتهم الأوربية ، دون أن تقصد إلى ذلك . فقد كان قصدها الأصلى أن تبعد هؤلاء عن الاندماج فى المجتمع المصرى ؛ حتى يسهل عليها التأثير عليهم . وكانت أهم وسائل الصهونية لإبعادهم عن الاندماج ، هى تغذية فكرة الوطن القومى فى نفوسهم ، والاحتفاظ بهويتهم الأجنبية ، وتدعيم الإحساس فى نفوسهم بأنهم أجانب ، وأن إقامتهم فى مصر مسألة مصادفة ، وتمهيدا لانتقالهم إلى الوطن القومى . وهذا مانجده بوضوح فى الصحف اليهودية والصهيونية ، التى نشأت فى مصر فى الفترة من سنة (١٨٩٧ إلى ١٩٤٨) .

هذا أيضا ماتصل إليه المحاضرة بعد ذلك ، ولكن بطريقتها الخاصة فى لَيّ عنق الحقيقة التاريخية .

تقول المحاضرة فى ثقة :

– هناك نتيجة أساسية أخرى لعدم اكتساب الجنسية المصرية ، ألا وهى التحول ناحية صهيون الذى أصبح عند اليهود تعبيرا عن التطلع القومى . فبعد أن رفضوا كمواطنين ، لم يكن أمامهم مخرج آخر سوى الاعتماد على أنفسهم ، وعلى إسرائيل ، الأرض الموعودة . وكان شعورهم العام هو : إذا لم يكن مسموحا لنا بالتصويت والانتخاب ، ولايرحب بنا أحد كمواطنين ، فسوف ننعزل ونحيا حياتنا الخاصة . وهكذا نتج عن ذلك ، مع التأثير الأوربى المتزايد ، مد جديد للصهيونية ... ومع أن كثيرين من أبناء الجيل الأكبر سنا ، لم يكونوا صهاينة عاملين فقد كان معظمهم من العاطفين ، بسبب التوق العميق لعش حقيقى يضمهم ، وأرض ملكهم بالفعل . وكان من الواضح بالنسبة للغالبية أن عودة اليهود لأرض

صهيون – أرض آبائهم –، يمكن أن تكون الحل الوحيد لأزمتهم . ولهذا السبب قام كثيرون من اليهود فى الفترة الأخيرة بشراء أرض فى فلسطين ، مثلما فعل أبى ... وهكذا أصبحت الصهيونية – أى التطلع إلى العودة لأرض صهيون – تعبيرا عن شعورنا القومى ، ورغبتنا فى هوية اجتماعية وسياسية ، وكذلك فى « الجذور » التى ربطتنا فى الأصل . وهذا هو السبب فى أن معظمنا انضموا إلى حركة المكابى (حركة الشبان اليهود) وأن كثيرين جدا من الشباب قد انضموا إلى حركات صهيونية عديدة[١٦] .

ثم تضيف قائلة :

– عرفت مصر الحركات الصهيونية ، مثلما عرفتها بعض البلاد العربية الأخرى ، منذ بداية القرن . فقد تأسست عام (١٨٩٧) منظمة باركوخبا ، وهى أول منظمة صهيونية فى مصر . وفى عام (١٩٠٥) ظهرت فى القاهرة منظمة جديدة تدعى مورياح . ثم تشكلت بعد ذلك حركات أخرى مثل : هاشومير هاتسير وبنى بريت والمكابى . وقد انضممت لحركتنا حين كنت فى العاشرة من عمرى ، وكذلك انضم أبى وأمى ... وفى (١٩١٧) تأسس الاتحاد الصهيونى العام فى مصر ، المعروف باسم « هستادروت هاتسيونيت بيمصرايم » الذى وحد مختلف الحركات الصهيونية فى مصر . ومارس نشاطه علنا فى القاهرة والإسكندرية ، مع مباركة السلطات المصرية . وقد وعد الملك فؤاد الذى شهد الافتتاح عام (١٩١٧) بأن ينال اليهود « الحماية » دائما فى مصر – وهذا التصريح فى غاية من الأهمية – حتى يعودوا إلى وطنهم . ومن الواضح أن هذا تصريح صهيونى صرف ؛ لأنه يكشف عن أن الملك فؤاد نفسه ، ملك مصر نفسه،كان يؤمن بحقنا فى أن تكون لنا دولة خاصة[١٧] ....، وهكذا أتاحت الصهيونية حافزا مجددا للطائفة اليهودية ... التى سرعان ماأصبحت منظمة مكتفية بذاتها ، تحكم نفسها بنفسها ، وتحقق إنجازات رائعة »[١٨] .

وبهذا تقريبا تنتهى المحاضرة . فقد تلا الفقرة السابقة ، نحو صفحة من النوادر وتعليقات الحاضرين ، وهذه لاتهمنا فى قليل أو كثير . ولكن مايهمنا الآن هو أن هذا الجزء الأخير من المحاضرة ، يعالج موضوع الصهيونية كبديل لحرمان اليهود فى مصر من الهوية والجنسية ، وهذه مغالطة تاريخية لاتحتاج إلى تصحيح ، بعد كل ماقدمناه عن مشكلة الجنسية . ولكن من المستحسن أن نذكر أنفسنا مرة أخرى باللعبة التى لعبتها الصهيونية فى مصر بين اليهود . فقد استغل دعاتها نقاط الضعف فى اليهود الأوربيين المهاجرين حاملى الجنسيات الأجنبية ، أو غير الحاملين لأى جنسية . وكان هؤلاء وأولئك يشكلون غالبية يهود مصر ، لابحكم المولد فى مصر ، وإنما بحكم الهجرة المستمرة إلى مصر ، فضلا عن أنهم كانوا مؤهلين بحكم نشأتهم الأوربية ، وماتعرضوا له من اضطهاد فى مواطنهم الأولى ، لتقبل الدعوة الصهيونية ، على خلاف زملائهم حاملى الجنسية المصرية الذين لم يثبت حتى الآن أنهم تحمسوا – على نطاق واسع – للصهيونية ، وفكرة الوطن القومى .

أما تصريح الملك فؤاد الذى عدته المحاضرة تصريحا صهيونيا صرفا ، فليس فيه سوى الوعد بحماية اليهود فى مصر ، حتى يعودوا إلى وطنهم ، وهذه مجاملة واضحة للصهاينة فى مصر ، الذين دعوه لحضور افتتاح اتحادهم العام ، ولكن لايوجد لهذا الوعد أى سند فى الصحف العربية فى تلك الفترة ، ولاندرى ماصحته ، ولكننا ندرى أن المحاضرة ذكرت صحيفة « الفجر » L'Aurore اليهودية كمصدر للمعلومة ، وأن هذه الصحيفة نشرت الخبر يوم افتتاح الاتحاد الصهيونى عام (١٩١٧) . ومع ذلك فيجب أن نذكر أن الملك فؤاد تولى عرش مصر فى (٩ أكتوبر ١٩١٧) ، تحت اسم « السلطان أحمد فؤاد » ، وأن مجلة « الفجر » هذه التى أصدرها بالفرنسية يهودى ، يدعى « لوسيان سكيوتو » ، لم تصدر إلا عام (١٩٢٤) ، وأن سكيوتو نفسه دخل مصر مهاجرا من تركيا عام

(١٩٢١) ، وأنه سبق له إصدار المجلة فى تركيا من (١٩٠٨ إلى ١٩١٩) . فهل صرح السلطان فؤاد له بهذا التصريح فى القاهرة أم فى استانبول ؟ لاندرى بالضبط ، ولكننا ندرى بشكل عام أن السلطان – الملك فيما بعد – لم يكن يعادى الصهيونية ، وربما لم يكن يدرى أبعادها فى ذلك الوقت ، مثله فى ذلك مثل كثيرين من الساسة المصريين . وسنعود إلى مناقشة هذا الموضوع بتفصيل فيما بعد .

وهكذا نجد التاريخ فى هذه الرواية بلا قداسة ولااحترام ، بل نجده لعبة فى يد السياسة أو فى يد سياسية بمعنى أدق . فالمؤلفة تريد ، ببساطة ، أن تقول : لقد دفعت مصر يهودها إلى الصهيونية والخروج إلى أرض صهيون . ولكن خروجهم الثانى هذا لم يكن نحو التيه !

أين إذن تاريخ اليهود فى مصر ؟ وأين نلتمس حقيقته بعيدا عن الخيال ؟ هذا ماسنحاول توضيحه واستخراج معانيه .

الموقف الرسمى : غير معاد

فى سنة (١٩٦٨) صدر بالإنجليزية فى لندن كتاب ضخم من تأليف أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل الأسبق . وكان عنوان الكتاب « أهلى » أو « قومى » أو « شعبى » أيا كان اختيارنا لمعنى عبارة My people الإنجليزية .

وفى هذا الكتاب حاول إيبان ، أن يضع تاريخا شاملا لأهله أو قومه . وكان مما صوره فى هذا التاريخ تجربة اليهود فى أسبانيا والمغرب العربى ، فى ظل الحكم العربى الإسلامى . وقد عرض لهذه التجربة من نواح متعددة ، ثم ختم عرضه بعبارة تقول :

« شهدت الطوائف اليهودية فى أسبانيا وشمال أفريقيا ازدهاراً فى جميع مجالات الإبداع ، على مدى قرنين من الزمان فى أقل تقدير ، تحت ظل الوصاية العربية ، برغم التذمر من استعلاء العرب . وهذا الازدهار لم يتحقق من قبل على مدار تاريخ الشتات الذى تعرض له اليهود ، ولم يكن له نظير بعد ذلك إلا تجربة القرن التاسع عشر فى ألمانيا والنمسا وتجربة القرن العشرين فى أمريكا »[١٩] .

وبغض النظر عما أشار إليه إيبان من تذمر اليهود من تعالى العرب عليهم مما لامجال لمناقشته هنا ، فإن هذا الازدهار يدعونا إلى التساؤل :

١ – هل حقق اليهود شيئا من الازدهار خلال تجربتهم الحديثة فى مصر ، أى فى الفترة من بداية القرن التاسع عشر حتى سنة (١٩٤٨) ؟ .

٢ – هل انطلقوا فى مجالات الإبداع المختلفة خلال هذه التجربة ، مثلما انطلقوا فى الأندلس والمغرب قديما ، وألمانيا والنمسا وأمريكا حديثا ؟

وحتى نجيب عن هذين السؤالين،لابد من النظر فى تاريخ اليهود فى مصر ، خلال الفترة التى حددناها . أما تحديد نهاية الفترة بسنة (١٩٤٨) ، فهذا أمر طبيعى يقتضيه السياق التاريخى ، لأن مابعد تلك السنة يشكل فترة مختلفة تماما ، تمتد حتى يومنا هذا ، برغم محاولات تطبيع العلاقات بين مصر وإسرائيل بعد اتفاق

كامب دافيد . وهذه الفترة الأخيرة لن نسقطها من حسابنا على أى حال . وسوف نعود إليها فى نهاية هذه الدراسة ، لنرى إلى أى حد تقلص وضع اليهود ودورهم فى مصر ، وإلى أى مدى يمكن أن يتطور هذا الوضع فى ظل اتفاق الصلح الراهن .

وإذا نظرنا إلى تاريخ اليهود فى مصر كموضوع للبحث ، فلا بد أن نعترف مقدما بأنه لم يجد العناية الكافية فى الكتابات التاريخية العربية ، لاقديما ولاحديثا .

لايوجد فى العربية سوى أربعة كتب صغيرة ، تناولت موضوعات متصلة بهذا التاريخ ، ولاسيما الحديث منه .

وكان أول هذه الكتب بعنوان « تاريخ الإسرائيليين » من تأليف شاهين مكاريوس (١٨٥٣ – ١٩١٠) ، وقد ظهر فى القاهرة سنة (١٩٠٤) ، وأجمل فيه مؤلفه تاريخ اليهود على مدار العصور ، دون أن يتوقف كثيرا عند تاريخهم فى مصر خلال العصر الحديث . وقد كان مكاريوس صحفيا شاميا ، هاجر إلى القاهرة مع زميليه يعقوب صروف ، وفارس نمر من بيروت ، وأعاد الثلاثة إصدار مجلة « المقتطف » فى القاهرة سنة (١٨٨٤) ، ثم أنشأ مكاريوس لنفسه مجلة « اللطائف » ، وصرف جهده فى التأليف عن الماسونية والدعوة إليها ، وخصها بسبعة كتب صغيرة[٢٠] .

ولم يظهر بعد سنة (١٩٠٤) كتاب آخر بالعربية عن تاريخ اليهود فى مصر إلا فى سنة (١٩٦٩) ، حين أصدرت دار الهلال فى القاهرة كتابا صغيرا بعنوان « اليهود والحركة الصهيونية فى مصر » من تأليف أحمد غنيم وأحمد أبو كف . ويمكن أن نعد هذا الكتاب الصغير أول محاولة بالعربية لتناول تاريخ اليهود فى مصر ، خلال العصر الحديث . ومع ذلك فهو ليس كتابا فى التاريخ العام لليهود فى مصر . ومن الواضح – كما يدلنا عنوانه – أنه اكتفى بجانب واحد من جوانب ذلك التاريخ ، هو الجانب الصهيونى ، وأنه كتاب سياسى بالدرجة الأولى .

ينطبق هذا الحكم تقريبا على الكتيبين التاليين . وأولهما – بترتيب الصدور – بعنوان « الصحافة الصهيونية فى مصر » من تأليف عواطف عبد الرحمن ، ظهر فى القاهرة سنة(١٩٨٠)والآخر بعنوان « اليهود المصريون صحفهم ومجلاتهم » من تأليف سهام نصار ، ظهر فى القاهرة أيضا سنة (١٩٨١) ، وظهرت له قبيل ذلك طبعة أخرى فى بيروت بعنوان مختلف هو « اليهود المصريون بين المصرية والصهيونية » . ومن الواضح أن هذا العنوان الأخير عنوان تجارى ، وأن الأول هو الأدق . وكان هذا الكتيب فى الأصل رسالة نالت بها المؤلفة درجة الماجستير من كلية الإعلام بجامعة القاهرة . وإذا بدا بينه وبين كتاب زميلتها السابقة تشابه ، فسببه أن المؤلفة – سهام نصار – قدمت بحثها للجامعة سنة (١٩٧٤) بعنوان أكثر دقة هو « صحافة اليهود العربية فى مصر »[٢١] ، وأن زميلتها رجعت إلى البحث فى مخطوطته بمكتبة الجامعة ، وانتفعت به إلى مدى بعيد ، دون أن تشير إلى ذلك فى مواضع كثيرة .

وباستثناء هذه الكتب ، أو الكتيبات الثلاثة ، لم يظهر بالعربية بعد ذلك سوى مقالات محدودة ومتناثرة ، وفصل صغير فى كتيب آخر صدر بالعربية والإنجليزية عن مركز الأبحاث الفلسطينى فى بيروت سنة (١٩٧١) ، بعنوان « يهود البلاد العربية » من تأليف على إبراهيم عبده وخيرية قاسمية .

لم يكن اليهود أسعد منا حظاً فى هذا المجال على أى حال . فقد ذكر يعقوب لانداو ، أن دراسة المجتمع اليهودى فى مصر الحديثة ، تعد من المناطق البحثية الشديدة الإهمال[٢٢] ومع ذلك فقد حقق اليهود عددا من الجهود فى هذا الموضوع ، وهذا أمر طبيعى، يتعلق بهم أكثر مما يتعلق بنا . وتستند هذه الجهود إلى محاولتين سبق أن قام بهما محام يهودى صهيونى متحمس ، عاش فى مصر هو موريس فرجون . فقد ألف كتابين بالفرنسية عن تاريخ اليهود فى مصر ، كان أولهما بعنوان « اليهود فى مصر منذ أصولهم الأولى حتى اليوم » وقد ظهر فى

القاهرة سنة (١٩٣٨) ، وكان الآخر بعنوان « العلاقات بين المصريين واليهود » وقد ظهر فى الإسكندرية سنة (١٩٣٩) باسم مستعار هو « توفيق سليمان أبو هيف » كشف لانداو سره[٢٣] . وليس من الغريب أن يلجأ اليهود إلى الأسماء المستعارة ، ولأن يتخذوا أسماء من البيئة التى يعيشون فيها . واسم « أبو هيف » هذا لأسرة عريقة من أسر الإسكندرية .

وقد تلت محاولتى فرجون هاتين محاولة ثالثة ليهودى مصرى آخر هو نورى فارحى الذى ألف كتابا بالفرنسية بعنوان « الطائفة اليهودية فى الإسكندرية » ظهر فى الإسكندرية سنة (١٩٤٦) ، وحفظ مع الكتابين السابقين صفحات مهمة من تاريخ اليهود فى مصر الحديثة .

غير أن هذه الكتب الثلاثة امتلأت بالمبالغات فى تقدير دور اليهود ، ولاسيما فى الحركة الوطنية وخدمة الشعب المصرى ، وكذلك امتلأت بالأخطاء فى تسجيل الوقائع التاريخية ، على نحو يصعب حصره . ولكننا نكتفى هنا بمثلين لهذه المبالغات والأخطاء .

أما المثل الأول فهو مركب صارخ نقلته سهام نصار ، وعواطف عبد الرحمن ، دون تحقيق أو مراجعة ، ويتلخص فى أن يوسف أصلان قطاوى باشا ، كان وزيرا للمالية فى وزارة سعد زغلول سنة (١٩٢٤)[٢٤] . والصواب أنه كان وزيرا فى وزارة أحمد زيور – التى خلفت وزارة سعد زغلول – فى (٢٤ نوفمبر ١٩٢٤)[٢٥] .

وأما المثل الثانى فقد نقلته المؤلفتان السابقتان أيضا ، ويتلخص فى أن المحامى اليهودى الصهيونى ليون كاسترو « كان صديقا شخصيا لسعد زغلول ، ورافقه فى مفاوضاته فى لندن ، وقام بمهمة المتحدث الرسمى لحزب الوفد فى أوربا ، ثم عاد إلى مصر ، ليبدأ عن طريق صحيفته اليومية الوفدية الناطقة بالفرنسية (الحرية) La Liberté حملة ضد بريطانيا ، من أجل الاستقلال » ، كما تقول سهام

نصار[٢٦] وعواطف عبد الرحمن[٢٧] دون ذكر المصدر فى الحالتين . وفى هذا مبالغة كبيرة . فلم يكن كاسترو صديقا شخصيا لسعد زغلول أو ناطقا باسم الوفد فى أوربا ، ولكنه كان ممن استعان بهم زغلول فى مهامه الخارجية ، ووكل إليهم شئون الترجمة من العربية إلى الفرنسية . ولم يجىء ذكره فى أى مصدر عربى فى ذلك الوقت ، لا تحاشيا لصهيونيته التى لم تكن مرفوضة على المستويين الرسمى والشعبى وقتها ، وإنما لأنه لم يكن معروفا ولامرموقا مثل يوسف قطاوى .

وقد تلا تأسيس دولة إسرائيل اهتمام كبير بتسجيل تاريخ الطوائف اليهودية فى البلاد العربية ، وتشجيع اليهود المهاجرين من مصر على تسجيل تجاربهم وذكرياتهم . ومع ذلك لم يتمخض هذا الاهتمام والتشجيع إلا عن بعض الفصول والكتب ، أهمها فصل بالإنجليزية بعنوان « اليهود فى مصر خلال القرن التاسع عشر » ليعقوب لانداو ضمن كتاب صدر فى إنجلترا سنة (١٩٦٨) ؛ بعنوان « التغير السياسى والاجتماعى فى مصر الحديثة » ، وفصل آخر فى كتاب بالإنجليزية بعنوان « يهود الشرق الأوسط » لحاييم كوهين ظهر فى القدس سنة (١٩٧٣) ، وفصل ثالث بالإنجليزية فى كتاب صدر فى إنجلترا سنة (١٩٨٠) بعنوان « أنبياء بابل : اليهود فى العالم العربى » لماريون ولفصون ، فضلا عن كتاب بالفرنسية بعنوان« مصر ويهودها » ليهودى مصرى مهاجر ، هو موريس مزراحى ، ظهر فى سويسرا سنة (١٩٧٧) . وفى هذا الكتاب رجع المؤلف – فيما يبدو – للكتب الثلاثة التى سبق ظهورها فى مصر لفرجون وفارحى ، وردد كثيرا من المبالغات والأخطاء ، التى أشرنا إليها قبل قليل ، ولاسيما فيما يتعلق بقطاوى وكاسترو . فهو يقول عن كاسترو : إنه كان مقربا جدا من سعد زغلول ومستشاراً له وناطقا بلسانه فى الفرنسية[٢٨] .

من الملاحظ بوجه عام على هذه الكتابات العربية واليهودية أنها لم تعالج تجربة اليهود فى مصر معالجة تاريخية دقيقة أو شاملة ، وأن تجربة اليهود فى مصر الحديثة

مازالت منطقة مهملة من مناطق البحث كما لاحظ لانداو. ومع ذلك فلا بد للباحث فى هذه المنطقة من اتخاذ الكتابات السابقة نقطة بداية وانطلاق . وهذا ماسنحاوله الآن مع التركيز على الكتابات اليهودية ، حتى لانتهم بالتحيز ، مع العلم بأن هذه الكتابات اليهودية تشجع الباحث – دون قصد منها – على افتراض ازدهار اليهود وانطلاقهم فى شتى المجالات فى مصر خلال العصر الحديث ، إن لم تكن تشجعه على الاقتناع بذلك .

ويقتضى البحث فى هذه المنطقة المهملة ، خلال العصر الحديث ، أن ندرس تجربة اليهود فى مصر منذ بداية حكم محمد على سنة (١٨٠٥ إلى سنة ١٩٤٨) ، حتى نجيب عن السؤالين السابقين حول ازدهار اليهود فى مصر ، وحتى نختبر صحة الفرض السابق .

ويقتضى البحث أيضا ، أن نبدأ بدراسة الموقف الرسمى والموقف الشعبى من اليهود فى مصر . ونعنى بالموقف الرسمى موقف الحكومة والمسئولين تجاه اليهود كأقلية وكأفراد فى آن واحد ، كما نعنى بالموقف الشعبى موقف الشعب المصرى ومثقفيه – بصفة خاصة – من اليهود – طائفة وأفرادا – فى آن واحد أيضا . وغير خاف أن الموقفين معا ، يحددان مدى ازدهار التجربة اليهودية أو مواتها .

ماذا كان الموقف الرسمى من اليهود فى مصر منذ عهد محمد على ، أو فى ظل حكم أسرة محمد على بمعنى آخر ؟

يجب أن نلاحظ أولا أن حكام هذه الأسرة حتى الخديو توفيق ، كانوا من ذوى الإرادة المطلقة فى حكم البلاد ، أى كانوا حكاما مستبدين بمعنى أوضح . ولكن ابتداء من الخديو توفيق حتى الملك فاروق ، تغير الوضع وأصبحوا مستبدين بالمشاركة ، وكان الشريك الذى لايرد له طلب هو المعتمد أو المقيم أو السفير البريطانى .

ويجب أن نلاحظ ثانيا : أن تجربة اليهود فى الأندلس ، ثم فى أوربا حتى هذا

القرن علمتهم أن يتعلقوا بحبال الحاكم ، ويتقربوا إليه ، حتى يضمنوا البقاء والازدهار . وهذا نفسه ماحدث فى مصر على مدى حكم أسرة محمد على ، قبل الاحتلال البريطانى وبعده[٢٩] . ولكن التجربة المصرية مع حكم هذه الأسرة، أدت ، على مدار الزمن ، إلى مقاومة استبدادها وتسلطها وانفرادها بالإرادة عن طريق فكرة الحكم النيابى . فابتداء من عهد إسماعيل حتى نهاية عهد فاروق ، كان الحكم النيابى والدستور والأحزاب والديموقراطية شغلا شاغلا لهذه المقاومة ، التى اتخذت صورة الحركة الوطنية ، ولذلك كان على اليهود أن يتعلقوا بحبال ثلاثة من السادة بدلا من سيد واحد ، فكان عليهم أن يتقربوا إلى الحاكم وشريكه البريطانى وحزب الأغلبية ، مع ملاحظة أن الشريك الجديد البريطانى لم يظهر بصورة علنية قبل (١٨٨٢) ، وأن الشريك المستجد ، وهو حزب الأغلبية لم يظهر بصورة فعالة قبل ثورة (١٩١٩) .

إذا عدنا إلى عهد محمد على ابتداء من سنة (١٨٠٥) فإننا نلاحظ أن الرجل لم يكن يعادى استخدام غير المصريين ، أو غير الترك بوجه عام . وإذا كان من المعروف عن عهد المماليك والعثمانيين قبل محمد على ، أن اليهود فى مصر تعرضوا للضرائب والجزية العالية ، فقد حاول محمد على التخفيف عنهم حتى تم إلغاء الجزية المفروضة عليهم سنة (١٨٥٥) ، كما يقول لانداو[٣٠] . وإذا كان من المعروف أيضا أن اليهود تعرضوا لسخط المسلمين ، خلال الحملة الفرنسية (١٧٩٨ – ١٨٠١) بسبب تعلقهم ببونابرت ، وتعاونهم معه ، فقد خفف عنهم محمد على ، واستعان بهم فى الأعمال والوظائف ، حتى ازدهروا فى عهده . وشجع ازدهارهم هجرة كثيرين من يهود اليونان وشرق أوربا إلى مصر ، كما يقول كوهين ، الذى يضيف : إن محمد على أسس محاكم مدنية ومكن اليهود من التقاضى أمامها ، كما أسس مجالس للبلديات وعين بعض أعضائها من اليهود . وتراوح عدد اليهود فى عهده بين (٥ إلى ٦) آلاف ، وإن كان معظمهم فقراء وأميين[٣١] .

ومعنى هذا أن اليهود بدأوا فى التمتع بموقف رسمى جديد من الدولة على عكس ماكان قبل محمد على ، وإن كان كوهين يصر على أن « العصر الحديث فى تاريخ اليهود فى مصر لم يبدأ إلا فى ستينيات القرن الماضى »[٣٢] ، ولاسيما بعد سقوط البلاد فريسة للديون الأجنبية وسيطرة الأوربيين على المالية المصرية ، وعندئذ تمتع الأجانب بامتيازات كثيرة دخل اليهود فى نطاقها . وكان من نتيجة ذلك أن أعفوا من الضرائب ، ونالوا حماية قناصل أوربا . وشجع ذلك على هجرة يهود كثيرين إلى مصر فى عهد الخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩) ، ولاسيما بعد افتتاح قناة السويس سنة (١٨٦٩) . ولم يفقد اليهود هذه الامتيازات إلا عند إلغائها بمعاهدة مونترو سنة (١٩٣٧)[٣٣] .

لم تكن هجرة الأجانب إلى مصر مقصورة على عهد إسماعيل . ففى عهد سلفه محمد سعيد ، ازدادت هجرة الأجانب ، ومنهم اليهود ، حتى إن سعيدا أنشأ محكمة خاصة تدعى « مجلس القومسيون » أو « قومسيون مصر » للنظر فى دعاوى الأجانب على المصريين . وكانت المحكمة تتألف من رئيس مصرى ، وستة أعضاء بينهم يونانى ، وأرمنى ، ويهودى .

غير أن عهد إسماعيل شهد توسعا فى استخدام اليهود فى وظائف الدولة ، ولاسيما فى أقسام أو أقلام الحسابات والترجمة . وكان من أوائل اليهود الذين عملوا فى هذه الوظائف فيكتور هرارى وإفرايم عاداه ، اللذان تدرجا بعد ذلك ، حتى صار الأول مديرا للخزانة وصار الآخر مراقبا بوزارة المالية[٣٤] . كما شهد عهد إسماعيل بداية إقبال اليهود على إصدار الصحف العربية فى القاهرة . ففى سنة (١٨٧٧) أصدر يعقوب صنوع صحيفة « أبو نظارة » وفى سنة (١٨٧٩) أصدر موسى كاستلى صحيفة « الكوكب المصرى » ، ولم يجد الاثنان أى عقبة أمامهما ، سوى أن صنوع تجاوز حدود حرية الصحافة ، ونقد الخديو فكان مصير الصحيفة المنع ، ومصير صاحبها الهجرة إلى باريس . ومع ذلك .. لعلنا نتفق مع

لانداو فى قوله : إن بداية الاحتلال البريطانى سنة(١٨٨٢)تعد نقطة الانطلاق فى التغيرات التى أصابت أحوال اليهود فى مصر الحديثة[٣٥] . والمقصود هنا ، أن الاحتلال هيأ لليهود ظروفا أنسب للتوسع والازدهار المالى والاقتصادى ، ولكننا نعتقد أن الاحتلال لم يطور الموقف الرسمى للدولة من اليهود ، إلا من حيث أنه شارك فى الحكم من وراء الستار . فقد كانت الدولة . بتركيبها الأوتوقراطى ، قبل الاحتلال ، لاتفرق بينهم وبين أى أقلية أخرى فى الحقوق . فقد مكنتهم من تأسيس المدارس والمعابد والمستشفيات والصحف . كما أتاحت لهم فرص النمو الاقتصادى فى التجارة وأعمال الصيرفة والوظائف الحكومية . ولم يكن فى التشريعات القائمة قبل الاحتلال مايعوق حريتهم أو نشاطهم ، سواء فى دستور سنة (١٨٦٦) ، أو فى لائحة المطبوعات فى عهد الخديو إسماعيل . أما اليهود الذين هاجروا إلى مصر بعد الاحتلال ، فلاشك أنهم فعلوا ذلك بوحى من الحماية البريطانية المنتظرة ، على العكس مثلا من اليهود الذين ينتمون لأسر هاجرت إلى مصر فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . ومن هذه الأسر قطاوى وهرارى وموصيرى ومنشه ، وهى أسر بدأ ازدهارها فى أواخر عهد محمد على ، وأوائل عهد سعيد .

ولم يظهر فى الدساتير التالية فى مصر فى سنوات (١٨٨٢ / ١٨٨٣ / ١٩١١ / ١٩٢٣ / ١٩٣٠) ، ولافى قوانين المطبوعات ولوائحها ، فى سنتى (١٨٨١ /١٩٣١) ، ولافى التشريعات المدنية والتجارية ، مايشير إلى أى تغير سلبى فى الموقف الرسمى من اليهود . أما قانون الشركات الذى أصدرته وزارة النقراشى فى (٤ نوفمبر ١٩٤٧) وذكر كوهين أن ضحيته الأساسية كانت اليهود ، فلم يكن موجها ضدهم ، وإنما كان موجها ضد الأجانب بوجه عام . ونظرا لأن (٢٠٪) من اليهود فى ذلك الوقت كانوا يحملون جنسيات أجنبية ، ونحو الثلثين منهم كانوا بلا جنسية معينة فقد وقعوا تحت طائلة القانون ، الذى اشترط أن تكون أغلبية مجالس الإدارات فى الشركات مصرية ، فى الوقت الذى

كانت فيه نسبة حاملى الجنسية المصرية من اليهود ، توازى (١٥٪) من عددهم الكلى[٣٦] . ومع ذلك يجب ألا ننسى أن هذا القانون بالذات صدر فى وقت تصاعدت فيه المشكلة الفلسطينية ، بعد قرار التقسيم المشهور الذى أصدرته الأمم المتحدة .

كانت حرية التعبير حقا مكفولا لليهود كغيرهم من أبناء البلاد . ولعل أبلغ دليل على هذه الكفالة من الوجهة الرسمية للدولة ، أن عدد الصحف التى أصدرها اليهود فى مصر فى الفترة من سنة (١٨٧٧ إلى ١٩٤٨) ، بلغ نحو (٥٠) صحيفة ومجلة كان معظمها بالعربية ، وكان بعضها منابر صريحة للصهيونية . ومن الواضح أن العدد كبير ، إذا قيس بالنمو السكانى اليهودى فى مصر ، من (٢٥٢٠٠ فى إحصاء ١٨٩٧ إلى ٦٥٦٣٩ فى إحصاء ١٩٤٧) . وقد رافقت هذه الحرية فى التعبير حرية أخرى فى ممارسة الشعائر الدينية والتعليم اليهودى والمجالس الملية . فقد بلغ عدد المعابد اليهودية فى القاهرة وحدها ، خلال النصف الأول من هذا القرن ، نحو (٢٩) معبداً ، وفى الإسكندرية (٢٠) معبداً ، عدا (١١) معبدا فى المدن الصغيرة التى عاشت فيها طوائف يهودية ، أى بمجموع (٦٠) معبدا[٣٧] . وقد كانت الكتاتيب هى وسيلة التعليم الرئيسية عند اليهود فى مصر قبل سنة(١٨٤٠). ولكن حدث فى تلك السنة أن تأسست مدرستان كبيرتان لليهود فى الإسكندرية والقاهرة ، وإن كانتا قد أغلقتا بعد سنتين لسبب خارج عن إرادة الدولة ، وهو « أن أثرياء اليهود فضلوا المعاهد المسيحية » كما يقول كوهين[٣٨] . ومع ذلك تتابع إنشاء المدارس اليهودية منذ سنة (١٨٥٤) فى الاسكندرية ثم فى القاهرة . وفى سنة (١٨٩٦) ، دخل « التحالف الإسرائيلى العالمى » مجال التعليم فى مصر فأسس مدرسة للبنين فى القاهرة ، وتلاها بأخرى للفنون والصنائع ، ثم ثالثة للبنين والبنات فى الإسكندرية . وفى سنة (١٨٩٨) أضاف التحالف المذكور مدرسة للبنات فى القاهرة . وفى سنة (١٩٠٢) ، أسس مدرستين للبنين والبنات فى القاهرة ، ثم تلاهما بمدرستين فى طنطا ،

وهكذا[٣٩] . ومع ذلك لم تلتحق بهذه المدارس سوى نسبة ضئيلة من اليهود ، طوال النصف الأول من القرن ، وكانت الأغلبية تفضل المدارس الأجنبية ، مثل الليسيه والفرير الفرنسيتين ، وكلية فيكتوريا الإنجليزية[٤٠] . ولم تكن المدارس الحكومية المصرية ، ولا الجامعة أو المعاهد العليا ، مغلقة فى وجه اليهود فى ذلك الوقت . فقد بلغ عدد المتخرجين اليهود فى الجامعة والمعاهد العالية المصرية سنة (١٩٤٧ وحدها ٩٢٧ يهوديا منهم ١٢٦ بنتا) . كما بلغ عدد المتخرجين فى المدارس الثانوية ومافى مستواها (٣٠٨٠ يهوديا منهم ٧٤٠ بنتا) . ومن الواضح أن نسبة الأمية عند اليهود كانت منخفضة جدا وتقع فى فئة السن التى تزيد على الخمسين[٤١] .

وإذا كانت هذه الحريات فى التعبير وممارسة العقيدة والتعليم من الحقوق الأساسية للمواطن فى الدساتير الحديثة ، فقد صحبها فى مصر على طول القرنين تقارب متبادل بين اليهود والسادة الثلاثة ، الذين أشرنا إليهم من قبل : الحاكم ، ممثل الاحتلال البريطانى ، حزب الأغلبية .

أما الحاكم فلم يكن من المعروف عن حكام أسرة محمد على ، أنهم عادوا اليهود فى أى وجه من الوجوه . بل إنهم قربوا إليهم اليهود ، وتقرب هؤلاء إليهم فى الوقت ذاته . وإذا كان المؤرخون لم يذكروا أن محمد على قرب يهوديا بعينه إلى حاشيته فقد ذكروا أن ابنه عباس الأول ، قرب يعقوب قطاوى إليه ، وعينه فى وظيفة الصراف العام ، أو كبير الصيارفة ، أو شيخ الصيارفة ، وأن خلفه محمد سعيد احتفظ لقطاوى بوظيفته ، وكذلك فعل خلفه إسماعيل . وكان الأخير يقرب إليه عددا أكبر من اليهود ويستعين بهم فى مفاوضات الحصول على القروض الأجنبية من البيوت المالية اليهودية فى أوربا ، مثل بيت أوبنهايم ، وبيت« روتشيلد » وعندما افتتح قناة السويس سنة (١٨٦٩) دعا إلى حفل الافتتاح بعض أعيان اليهود ، ومنهم يعقوب منشه ، الذى كان من مستقبلى فرانسوا جوزيف إمبراطور

النمسا والمجر . ونظرا لأن منشه هاجر من هناك فقد أنعم عليه الإمبراطور فى تلك المناسبة بلقب « البارون »[٤٢].

وفى عهد الخديو توفيق (١٨٧٩ – ١٨٩١) ، ظلت لأسرة قطاوى الحظوة فى القصر ، وشاركتها فى ذلك أسر هرارى وعاداه وموصيرى . وفى عهد سلفه وابنه الخديو عباس الثانى (١٨٩٢ – ١٩١٤) ، كان محامى القصر هو مرادفرج ليشع . وكان الخديو يستعين باليهود فى تصريف الاستثمارات والمضاربات المالية التى شغل نفسه بها . وظل طوال حكمه على علاقة ود بعدد من الأسر اليهودية ، ولاسيما أسرة قطاوى . وفى سنة (١٩١٣) ، أصدر الخديو دستوره المعروف باسم « القانون النظامى » ، وتأسست بموجبه « الجمعية التشريعية » وكان أعضاؤها المنتخبون (٦٦) عضوا والمعينون (١٧) عضوا . وقد عينت الحكومة – برضا الخديو والإنجليز بالطبع – يوسف أصلان قطاوى عضوا بالجمعية عن التجار . وكان وكيل الجمعية المعين عدلى يكن ووكيلها المنتخب سعد زغلول . وكانت هذه أول مرة يعين فيها عضو يهودى بالبرلمان المصرى ، منذ ظهور فكرته فى عهد إسماعيل .

وفى عهد السلطان حسين كامل (١٩١٤ – ١٩١٧) ، ازداد عطف القصر على اليهود . وحين اضطهد الوالى العثمانى جمال باشا يهود فلسطين فى سنة ١٩١٥ ، وحرم عليهم النشاط الصهيونى ، هاجر منهم إلى مصر عدد كبير ، بلغ فى نهاية السنة (١١٢٧٧) مهاجرا استقروا بمدينة الاسكندرية . وأبدى السلطان عطفه عليهم ، وأمر لهم بإعانة قدرها (٨٠) جنيها – زيدت إلى (١٠٠) جنيه – فى اليوم . وقامت الحكومة بإيوائهم فى مبانيها ، فضلا عن المعسكرات والمدارس التى ساعدت فى إنشائها لهم . وفى عهد السلطان حسين أيضا ، تبرعت الحكومة المصرية بقطعة من الأرض لبناء مستشفى الطائفة اليهودية فى القاهرة ، الذى تم افتتاحه سنة (١٩٢٦)[٤٣] .

وفى عهد السلطان (الملك فيما بعد) أحمد فؤاد (١٩١٧ – ١٩٣٦) ، بلغ التقرب المتبادل بين القصر واليهود عصره الذهبى . وازدادت الثقة المتبادلة بين الحاكم واليهود فى مصر . فحين صدر وعد بالفور بالوطن القومى ، صرح السلطان (وقتها) بأن مصر تنظر بعين العطف إلى قضيتهم وتأمل أن يتحقق أملهم ، وتعلن حمايتها لهم . وفى (١٩ مايو ١٩٢١) تألف الوفد الرسمى للمفاوضات مع الإنجليز على يدى السلطان فؤاد برئاسة عدلى يكن . واصطحب الوفد بعثة من المستشارين والفنيين ، كان من أعضائها يوسف أصلان قطاوى . وبعد صدور تصريح (٢٨ فبراير ١٩٢٢) بإنهاء الحماية على مصر أعلن السلطان استقلال مصر فى (١٥ مارس ١٩٢٢) ، وسمى نفسه ملكا على البلاد . وألفت وزارة عبد الخالق ثروت لجنة لوضع مشروع الدستور ، وقانون الانتخاب فى (٣ أبريل ١٩٢٢) . وكانت اللجنة من (٣٠) عضوا منهم يوسف قطاوى الذى أعفاه الإنجليز من الاعتقال حين اعتقلوا ويصاواصف ، ومرقس حنا ، وواصف بطرس غالى ، وجورج خياط .

وعندما استقالت وزارة سعد زغلول الأولى فى (٢٤ نوفمبر ١٩٢٤) ، تشكلت وزارة أحمد زيور الذى ضم إليها – بإيعاز من الملك – يوسف قطاوى وزيرا للمالية ، فسجل بذلك أول سابقة لوزير يهودى فى تاريخ مصر الحديث . وفى يناير (١٩٢٥) نجح الملك فى تأسيس حزب جديد موال للسراى ، ومعاد لحزب الوفد ، باسم « حزب الاتحاد » . واختير لرئاسته يحيى إبراهيم ، الذى عهد لعبد الحليم البيلى بتأسيس جريدة ، تنطق باسم الحزب . ووقع الاختيار على جريدة « الحرية » الفرنسية ، التى يملكها ويحررها المحامى اليهودى الصهيونى ليون كاسترو ، واشتروها « مقابل ثمن ضخم فجعلوها تنطق بلسان حزبهم ، بعد أن كانت وفدية » كما يقول عبد الرحمن الرافعى[٤٤] . ولاندرى ، إن كانت هذه الصفقة قد تمت من جانب كاسترو لضعف فى عواطفه الوفدية ، أم لحرص على

إرضاء الملك ، أو السيد الأعلى . ومع ذلك يمكن أن نأخذ هذا التصرف من جانب كاسترو قرينة على أنه لم يكن مستشارا وصديقا شخصيا لسعد زغلول كما حاول بعض اليهود تصويره[٤٥] .

وعقب تأسيس حزب الاتحاد قام زيور بتعديل وزارته – بإيعاز من الملك بالطبع – وضم إليها أربعة وزراء اتحاديين هم : يحيى إبراهيم (رئيس الحزب) ، وموسى فؤاد وعلى ماهر ويوسف قطاوى . وكانت وزارة المواصلات من نصيب قطاوى هذه المرة . ولكن لم يمض عليه شهران فى الوزارة حتى قدم استقالته فى مايو (١٩٢٥) . ويقول الرافعى : إن « سبب استقالته مالوحظ عليه أنه مر على دار سعد (زغلول) يوم عيد الفطر ، وترك بطاقته للتهنئة ، فاعتبرت هذه الزيارة عملا عدائيا للسراى ، وأشير عليه بالاستقالة فقدمها »[٤٦] . وهذه الحادثة إن كانت تدل على شىء فإنما تدل على احتدام كراهية السراى لحزب الأغلبية وزعيمه فى ذلك الوقت ، ووفاء قطاوى للرجل الذى عمل معه من قبل فى الجمعية التشريعية وغيرها . كما تدل – من جهة أخرى – على استناد الملك إلى سلطة الاحتلال فى محاربته لسعد زغلول .

غير أن قطاوى لم يعد إلى الوزارة بعد هذه المرة الأخيرة ، حتى وفاته عن (٨١) سنة عام (١٩٤٢) ، وإن كان الملك قد عينه عضوا بمجلس الشيوخ سنة (١٩٢٧) ، وظل به حتى وفاته . وكان قد سبق انتخابه عضوا بالبرلمان ، ثم رأس اللجنة المالية به ، كما رأس فى سنة (١٩٢٩) وفدا مصريا فى المؤتمر البرلمانى الدولى ، الذى انعقد بمدينة ريودى جانيرو فى البرازيل . ولم يكن اختياره فى كل هذه المناصب تقديرا لشخصه فحسب ، وإنما تعبيرا عن تقدير الحاكم للطائفة اليهودية ، التى كانت تحت رئاسة قطاوى نفسه . بل إن زوجته اختيرت وصيفة للملكة نازلى ثم للملكة فريدة بعد ذلك . وكان ابنه أدولف صديقا للملك فؤاد ، منذ كان الأخير أميرا . كما كان ابنه الأكبر أصلان موظفا فى إدارة أملاك

الحكومة التى تدرج فيها حتى منصب المدير العام سنة (١٩٣١) ، وعين عضوا بمجلس الشيوخ وشركة القناة والبنك الأهلى والملاحة الخديوية . أما ابنه الآخر رينيه فكان رئيسا لشركة السكر والتكرير المصرية ، وشركة كوم أمبو التى بدأ أبوه حياته فيها بعد عودته من باريس مهندسا .

ومع ذلك لم يكن قطاوى وحده من أصحاب الحظوة عند السراى . فقد كان الملك فؤاد يشجع اليهود ويعطف عليهم : عين جاك جوهر مشرفا على النشاط الرياضى فى مصر ، كما عين الحاخام حاييم ناحوم عضوا بمجمع اللغة العربية . وحين نظمت الطائفة اليهودية فى القاهرة احتفالا فى يناير (١٩٣١) بذكرى مرور (٨٠٠) سنة على وفاة موسى بن ميمون (ميمونيدس) ، قام الملك برعايته ، وساهمت الحكومة فى نفقاته ، وكذلك كلية طب قصر العينى ، ومجمع اللغة العربية . وحضر الأمير عمرطوسون ، وحسن صبرى محافظ الاسكندرية احتفالات المدينة بالذكرى .

وأخيرا جاء عهد الملك فاروق (١٩٣٦ – ١٩٥٢) فلم يتغير الموقف الرسمى من اليهود ، بالرغم من أن الظروف دفعت فاروق سنة (١٩٤٨) إلى إرسال الجيش إلى فلسطين . ومع ذلك أعلن عشية الحرب أن حياة اليهود وأموالهم فى مصر مؤمنة ومحمية . ومن المعروف أن المد الشعبى المعادى للصهيونية ، كان أقوى من فاروق .

لقد سقطت أسرة محمد على سنة (١٩٥٣) ، بإعلان الجمهورية فى مصر . وعلى مدى عهدها لم يعرف عن أى حاكم منها عداء لليهود فى مصر على مستوى الطائفة . وباستثناء الخديو إسماعيل وابنه توفيق ، اللذين كانا يعاديان يعقوب صنوع بسبب هجومه المقذع عليهما ، لم يعاد حكام مصر من أسرة محمد على اليهود على المستوى الفردى . بل إن هؤلاء الحكام ، ابتداء من إسماعيل ، أغدقوا الرتب والألقاب على أفراد كثيرين من اليهود . وكان من أبرز الحاصلين على رتبة

الباشوية . بلوم ، وفيكتور هرارى ، وموسى يوسف قطاوى ، ومزراحى . وكان من أبرز الحاصلين على رتبة البكوية : جوزيف دى بيشوتو ، ومارك بيابولوس ، وجوزيف وموسى ديشى ، وسلفاتور شيكوريل ، ويعقوب ، وأدولف ، وأصلان ، ورينيه قطاوى ، وأبرام عاداه ، ومراد فرج ليشع ، ورودلف شالوم ، وكليمان شملا . ومعظم هؤلاء الباشوات والبكوات كانوا من أبناء الأسر ذات الثراء والنشاط الاقتصادى الكبير . كما أن معظمهم نال الألقاب فى عهد الملك فؤاد ، بصفة خاصة ، تقديرا لخدماتهم .

وإذا كان هذا هو موقف الحكام فماذا كان موقف رؤساء وزرائهم ؟

لم يعرف عن أى رئيس للوزراء على مدى حكم أسرة محمد على أى عداء لليهود . ولكن عرف عن بعضهم العطف على اليهود ، ولاسيما مصطفى النحاس ، وإسماعيل صدقى ، وحسين سرى . ويذكر موريس مزراحى أن النحاس وزوجته كان لهما صديق شخصى من اليهود هو زكى شويقه ، وأن شويقه صحبهما سنة (١٩٤٣) ، فى زيارة إلى فلسطين حيث زارا القدس وتل أبيب . ومن المعروف أن صدقى وسرى كانا عضوين ببعض مجالس إدارات الشركات الأجنبية واليهودية فى مصر . ومن مواقف صدقى المعروفة ، أنه اعتقل سنة (١٩٢٥) الوطنيين الفلسطينيين الذين تظاهروا فى القاهرة ضد (بالفور) ، وهو فى طريقه إلى فلسطين لحضور افتتاح الجامعة العبرية بالقدس . كما أغلق صدقى سنة (١٩٣٠) صحيفة « الشورى » التى أصدرها المجاهد الفلسطينى محمد على الطاهر فى القاهرة للدفاع عن القضية الفلسطينية ، وأبقى فى الوقت ذاته على صحيفة « إسرائيل » التى أصدرها ألبير موصيرى فى القاهرة للدفاع عن القضية الصهيونية . بل إنه وافق على الاشتراك فى معرض تل أبيب سنة (١٩٣٢) ، وزار فلسطين فى السنة ذاتها[٤٧] .

هؤلاء الرؤساء وغيرهم ، ووزراؤهم أيضا ، شاركوا الحكام فى العطف على اليهود . وعن طريقهم ، وطريق المديرين التابعين لهم ، كرمت الدولة عددا كبيرا من اليهود بإطلاق أسمائهم على الشوارع والميادين والضواحى . ومن هذه الأسماء : شارع منشه فى حى محرم بك فى الإسكندرية ، وميدان سوارس (مصطفى كامل حاليا) فى القاهرة ، وضاحية سموحة فى الإسكندرية .

ونتيجة لهذه المواقف السابقة كلها ، وغيرها على المستوى الرسمى ، لم يصدر من الدولة حتى سنة (١٩٤٨) مايمس المصالح اليهودية ، ولا النشاط الصهيونى العلنى لليهود فى مصر . بل لم يحدث أن تعرضت السلطات المصرية للمظاهرات ، التى كان يقوم بها اليهود فى شوارع المدن المصرية فى ذكرى وعد (بالفور) منذ صدوره فى نوفمبر (١٩١٧) ، مما سنتناوله عند الحديث عن النشاط السياسى لليهود فى مصر[٤٨] .

وأما ممثل الاحتلال البريطانى فى مصر فلم يشر أى مصدر يهودى إلى عدائه لليهود ، وإنما اتفق الجميع – يهودا وغير يهود – على أن الاحتلال البريطانى لمصر أتاح لليهود النازحين – بصفة خاصة – الشعور بالأمان منذ سنة (١٨٨٢) حتى (١٩٤٨) وساعدهم على الاستقرار والإبداع فى كل مجال . وإذا كان كرومر ممثل الاحتلال حتى سنة (١٩٠٧) قد اشتهر عنه قوله « نحن لانحكم مصر ، وإنما نحكم من يحكمون مصر »[٤٩] فقد كان هذا شعارا مباشرا للسلطة الاحتلالية فى البلاد ، ولكنه تغير بعد ثورة (١٩١٩) ، وأصبح شعاراً غير مباشر ، وأصبح قصر الدوبارة (مقر السفارة البريطانية فى القاهرة) يحرك خيوط الحكم من وراء الستار على عكس ماكان يفعل كرومر .

غير أن موقف ممثل الاحتلال من اليهود فى كلتا الحالتين لم يتغير . فقد شجع الحكومة المصرية على الاستعانة باليهود فى الوظائف الحكومية . كما شجع الشركات والبنوك الأجنبية على توظيفهم . بل شجع كثيرين من يهود بريطانيا على

الهجرة إلى مصر والإقامة فيها . ومن أبرز اليهود الإنجليز الذين أثروا من وراء هذه الهجرة إدجار سوارس الذى جاء إلى مصر سنة (١٩٠٧) ، وكان ابن عم فيليكس وجوزيف ورافاييل سوارس ، الذين اشتهروا بخطوط الأوتوبيس التى أطلقوها فى القاهرة . أما إدجار فتخصص فى شراء الأراضى واستصلاحها ثم تأجيرها للفلاحين . ومن أبرز هؤلاء اليهود الإنجليز أيضا جوزيف سموحة الذى أنشأ ضاحية سموحة فى الإسكندرية على أنقاض منطقة من المستنقعات خلال الثلاثينيات والأربعينيات . وفى الوقت نفسه أنعمت الحكومة البريطانية على بعض اليهود بالرتب والألقاب ، وكان من بينهم روبرت رولو مدير البنك الأهلى المصرى ، الذى فاز بلقب « سير » .

ولعل أبرز مظاهر العطف البريطانى على اليهود بشكل عام ، هو ذلك الوعد الذى قطعه (بالفور) على بلاده بإنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين . وقد سبقه تشجيع سلطات الاحتلال فى مصر لزعيم الصهيونية الحديثة تيودور هرتزل على المجىء إلى مصر سنة (١٩٠٣) ، لبحث إقامة وطن لليهود فى شبه جزيرة سيناء ، وإن كان المشروع كله قد أخفق فى النهاية بسبب زيادة مطامع هرتزل على إمكانات كرومر وقتها . ثم عاد العطف مرة أخرى زمن الحرب العالمية الثانية ، حين هدد الألمان مصر من الغرب ، فقامت سلطات الاحتلال بترحيل أعداد كبيرة من اليهود إلى فلسطين لحمايتهم من انتقام النازية ، وغارات طائراتها فى سنة (١٩٤٢) .

أبدى اليهود مقابل هذا العطف كثيراً من مظاهر الاعتراف بجميل بريطانيا عليهم . ففى سنة (١٩١٥) كون اليهود اللاجئون من فلسطين فى الإسكندرية فرقة من المتطوعين أطلقوا عليها اسم « فرقة البغالة » أى راكبى البغال ، لأنهم استخدموا البغال بدل الخيول . وكان من بين أفرادها (١٥٠) متطوعا ، من يهود الإسكندرية ، والباقون من اللاجئين . أما الهدف منها فكان الانضمام إلى القوات

البريطانية المحاربة فى فلسطين ضد الأتراك . وقد أدت للإنجليز « خدمات كثيرة حتى صدر الأمر بتسريحها فى مارس عام (١٩١٦) »[٥٠] وفى أعقاب صدور وعد بالفور احتفلت المنظمة الصهيونية فى الإسكندرية ، وأقامت حفلين كبيرين شهدهما أحمد زيور محافظ المدينة (وهو نفسه رئيس الوزراء – فيما بعد – الذى ضم قطاوى إلى وزارته سنة ١٩٢٤) وكبار رجال الطائفة وأرسل جاك موصيرى ، رئيس المنظمة الصهيونية برقية شكر للويد جورج رئيس وزراء بريطانيا[٥١] .

أما حزب الأغلبية ، الشريك الثالث فى حكم مصر ، فكان ممثلا فى حزب الوفد منذ تشكيل الوفد المصرى للتفاوض مع الإنجليز سنة (١٩١٨) . ومع أن هذا الحزب لم يتمكن من الحكم فترات طويلة ، ومع أنه عانى من خصومة الملك والإنجليز ، وتعرض للانقسام والتفتت أكثر من مرة ، فقد ظل حتى سنة (١٩٤٨) ، يضم أغلبية العاملين فى الحركة الوطنية . وكانت شخصية سعد زغلول تحظى باحترام المسلمين والأقباط واليهود على السواء ، وتجمع حول الحزب كثير من العاملين والعاطفين معا . ولم يتغير الموقف كثيرا بعد وفاة سعد زغلول سنة (١٩٢٧) ، وتولى مصطفى النحاس زعامة الحزب . ومع أن اليهود لم ينضموا للحزب بأعداد كبيرة ، فقد كانوا يشعرون بأنه قوة لايمكن تجاهلها . ولم يكن قادة الحزب أنفسهم يعادون اليهود أو يحاربون أحلامهم ونشاطهم الصهيونى .

وإذا كان اليهود يفخرون بأن فتاة من طائفتهم تدعى فورتينيه ليفى ، شاركت فى مظاهرة النساء أثناء ثورة (١٩١٩) ، فهم يفخرون أيضا بأن بعضهم انتمى لحزب الوفد وتعاطف معه . ومن هؤلاء فيليكس بن زاقين المحامى المولود فى طنطا سنة (١٨٩٥) ، الذى كان صهيونيا ووفديا متحمسا فى آن واحد ، وإليان فينبير الذى شارك بكتاباته الفرنسية فى جهاد سعد زغلول ، وأهدى إليه روايته

الفرنسية « حسين » ، وزكى شويقه صديق النحاس ، وليون كاسترو الصحفى ورئيس المنظمة الصهيونية ، والمحامى الذى كتب عن سعد زغلول فى صحيفته « الحرية » قبل أن يبيعها لحزب الاتحاد ، فضلا عن جوزيف دى بيشيوتو النائب الوفدى فى البرلمان الذى عينه الملك فؤاد عضوا بمجلس الشيوخ[٥٢] ، وإبراهيم مزراحى (الشهير بألبرت مزراحى) الذى أصدر صحيفة « التسعيرة » سنة (١٩٤٤) ، بمساعدة فؤاد سراج الدين والوفد على حد قوله ، بالرغم من أسلوب الابتزاز والتهديد والإثارة الذى مارسه فى هذه الصحيفة وغيرها بعد ذلك ، كما أثبتت الباحثة سهام نصار[٥٣] .

غير أنه من الملاحظ بوجه عام أن حزب الأغلبية حرص على الوحدة الوطنية ، بين عناصر الشعب الثلاثة ، وكان تشجيعه لليهود وعطفه عليهم ينبعان من هذا الحرص ، ويفوقان ماعاد عليه من انضمام اليهود إليه أو عطفهم عليه .

وهكذا صنع التقارب المتبادل ، بين اليهود والحكام وممثلى سلطة الاحتلال وحزب الأغلبية،ظروفا مواتية لليهود ، وثبت الموقف الرسمى غير المعادى لهم حتى قيام الحرب فى فلسطين سنة (١٩٤٨) .

لم يكن الموقف الشعبى من اليهود فى مصر مختلفا عن الموقف الرسمى للدولة بشكل عام . فقد كان كلاهما تعبيرا عن جو التسامح ، الذى عاشت فيه الأقليات غير المسلمة ، خلال الفترة موضوع هذه الدراسة على الأقل .

وإذا كنا قد بحثنا الموقف الرسمى من خلال ثلاثة أركان هى : الحاكم، وممثل الاحتلال ، وحزب الأغلبية ، فسوف نبحث هنا الموقف الشعبى من خلال ثلاثة أركان أيضا هى على التوالى : الأهالى ، والأحزاب ، والمثقفون .

لم يذكر واحد من المؤرخين أو الرحالة اليهود خلال القرن الماضى شيئا يمس معاملة الأهالى المصريين ، مسلمين وأقباطا ، لليهود . وقد اتفق الجميع على أن اليهود عاشوا فى حرية وأمان ، وسط جو يسوده التسامح ، دون أى تفرقة أو تمييز . ومع ذلك أشار أكثر من مؤرخ وكاتب يهودى إلى مجموعة من حوادث الاعتداء على اليهود ، خلال ذلك القرن ، انتقاما مما يسمى « شعيرة الدم » Blood Ritual ، أو ماكانت الصحافة ، العربية واليهودية ، تطلق عليه فى مصر فى أواخر القرن اسم « سفك الدم » .

وبمقتضى هذه الشعيرة ، يتهم اليهود باختطاف المسيحيين وقتلهم ، لاستخدام دمهم فى صنع الخبز غير المخمر ، الذى يتناولونه فى أعيادهم الدينية فى الربيع . وقد راجت هذه التهمة ضد اليهود فى أوربا خلال القرون الوسطى ، وكانت من أسباب اضطهادهم . ثم تكرر ظهورها خلال القرن الماضى ، قبيل عيد الفصح اليهودى فى مصر والشام . وكان ظهورها فى مصر خلال السنوات : (١٨٤٤ / ١٨٧٠ / ١٨٧٣ / ١٨٨٠ / ١٨٨١ / ١٨٨٢ / ١٨٩٠ / ١٨٩٢) بصفة خاصة . ويروى موريس مزراحى حادثة سنة (١٨٧٠) فيقول : إن رجلا مالطيا اتهم يهوديا من أصل حلبى يدعى ابراهام ساسون بخطف ابنته البالغة من العمر أربع سنوات ، فثار الناس على اليهودى واعتدوا عليه . كما يروى حادثة سنة (١٨٧٣) فيقول : إن امرأة مصرية فى دمنهور اتهمت اليهود بخطف ابنتها البالغة

من العمر سنتين وذبحها فى المعبد اليهودى ، فثار الناس مرة أخرى على اليهود ، واعتدوا عليهم . وحقق جعفر باشا مدير الإقليم فى الموضوع فاتضح أن الطفلة تاهت من أمها ، ثم عثرت عليها بعد ذلك ، وأن الأم أثارت المشكلة بتحريض من بعض المتعصبين[٥٤] .

وقد تناول يعقوب لانداو هذه الحوادث ، فذكر أنها كانت تتم بتحريض من اليونانيين أو المسيحيين الشوام . وكان هؤلاء وأولئك يثيرون الحوادث فى صحفهم ، ويؤلبون الرأى العام على اليهود[٥٥] . وتناولت ماريون وولفصون أسباب الحوادث ، فردتها إلى غيرة هؤلاء من اليهود ، وذكرت أن صحفهم كانت تهول الشائعات نكاية فى اليهود[٥٦] . أما رد الفعل عند اليهود ، فكان يتمثل – كما يقول لانداو – فى الشكاية لدى القناصل الأجانب أو السلطات المصرية . ويلاحظ لانداو أن « لهجة الشكاوى الأولى – فى الحالات المبكرة – كانت خاضعة ومستجدية ثم تغيرت فى ظل الاحتلال ، وأصبحت أكثر جرأة ، بل عدوانية أحيانا ، ومن المرجح أن هذا التغير كان نتيجة الثقة التى شعر بها اليهود فى مقدرة القوات البريطانية فى مصر على حمايتهم وترحيبها بهذه الحماية »[٥٧] . ومع ذلك يلاحظ لانداو أنه « مما يلفت الانتباه أن المصريين المسلمين كانوا يقتفون أثر المسيحيين فى جميع الحالات ، ولم يكونوا محركى العداء لليهود والعدوان عليهم »[٥٨] . وباستثناء هذه الحوادث المحدودة الحجم ، على أى حال ، والتى لم يكن للمصريين دخل فيها كما رأينا ، لم تقع أى حوادث أخرى معادية لليهود خلال القرن الماضى ، ولم يتغير جو التسامح الذى ظلل حياتهم ومعاملاتهم مع الأهالى . ويبدو أن هذه الحوادث ذاتها قد ساهمت فيما أشار إليه كثير من السياح والرحالة قبل الاحتلال من مظاهر الحرص والحذر ، واتقاء الغيرة والحسد، عند اليهود . فقد ذكر هؤلاء أن اليهود المصريين كانوا يتعمدون إهمال واجهات بيوتهم ومداخلها ، ويرتدون ملابس بسيطة أو رثة . وكانت نساؤهم يضعن الحجاب على وجوههن كلما سرن فى الشوارع[٥٩] .

ويقول حاييم كوهين :

« حتى الثلاثينيات (من هذا القرن) لم تظهر أى دلائل فى مصر على كراهية اليهود إلا من جانب المسيحيين الذين كانوا يروجون حتى سنة (١٩٣٠) اتهامات الدم ضد اليهود ، ولاسيما فى الفترة من (١٨٨٠ إلى ١٩٠٥) . وفى أثناء هذه الفترة شعر معظم اليهود فى مصر ، بمن فيهم من المحليين ، بأنهم غرباء . فبعضهم لم يتعلم كيف يقرأ ويكتب بالعربية . وكانت الأغلبية تلتحق بمدارس أجنبية . وكان لديهم شعور بالتفوق على الأهالى المسلمين . ولم يكن لديهم تقريبا أى اهتمام بكفاح مصر من أجل الاستقلال ، بالرغم من بعض الاستثناءات كما فى حالة صنوع وكاسترو »[٦٠] .

ومع ذلك ، أى مع الشعور بالغربة والتفوق على المسلمين ، وعدم الاهتمام بكفاح مصر ، لم يحدث على مستوى الأهالى فى مصر ، أن عومل اليهود معاملة غير كريمة ، لافى القرن الماضى ولا فى هذا القرن . أما مايشير إليه كوهين بعد ذلك من أن العداء لليهود بدأ فى الظهور منذ سنة (١٩٣٨) ، من جانب جماعة محمد على علوبة التى كانت تنادى بمقاطعة اليهود ، وتتهمهم بجمع المال للصهاينة فى فلسطين ، فهذا شيء آخر تماما ، وقد استمرت أعراضه بعد ذلك . ففى يوليو (١٩٣٩) – كما أشار كوهين – تم اكتشاف بعض القنابل بالقرب من ثلاثة معابد يهودية فى القاهرة . وكانت القنابل ملفوفة بتحذيرات لليهود ، ضد تأييد إخوانهم فى فلسطين ، ولكن اليهود لم يعيروا هذه الحوادث أى أهمية على حد قوله[٦١] . وفى أواخر (١٩٤٥) ازدادت خطورة كراهية اليهود . ففى (٢) نوفمبر من ذلك العام وقعت حوادث شغب مدبرة فى القاهرة ، وكانت الأولى من نوعها منذ منتصف القرن التاسع عشر على حد قوله أيضا . ورتب هذه الحوادث أعضاء حزب مصر الفتاة الذين هاجموا حارة اليهود ، وأحد المستشفيات وبيتا للمسنين ، وخربوا المحلات التجارية ، بهدف تحذير اليهود من تأييد الصهيونية[٦٢] .

وإذا كان كوهين يلقى اللوم فى هذه الحوادث على حزب مصر الفتاة ، فإن عبد الرحمن الرافعى يلقى اللوم على جماعة الإخوان المسلمين ، ويحملها مسئولية الحوادث التى وقعت فى غمار موجة الاغتيالات السياسية ، التى بدأت بأحمد ماهر (رئيس الوزراء السعدى) فى فبراير (١٩٤٥) ثم بأمين عثمان (الوزير سابقا والمناصر للإنجليز) فى يناير (١٩٤٦) وانتهت بالمستشار الخازندار (الذى حكم على قاتل أحمد ماهر) فى مارس (١٩٤٨) . ويضيف الرافعى أنه فى يوليو (١٩٤٨) ألقى طوربيد بين محلى شيكوريل وأوركو (اليهوديين) ، وقنبلة على محل داود عدس (اليهودى أيضا) ، وفى أغسطس من السنة ذاتها وقع انفجاران أمام محل بنزايون وجاتينيو ، كما وقع انفجار آخر بمبنى شركة أراضى المعادى (كلها مؤسسات يهودية) ، وبعدها « وضعت حراسة مشددة على محال اليهود عامة تفاديا من وقوع الاعتداء عليها » . وفى سبتمبر « حدث انفجار هائل فى حارة اليهود أودى بحياة (٢٠) قتيلا ، وإصابة (٦١) ، وترتب عليه انهيار أربعة منازل وتصدع ستة » وفى نوفمبر« حدث انفجار كبير فى مبنى شركة الإعلانات الشرقية ، أدى إلى تخريب المبنى ، وإتلاف المطبعة ، والأدوات وبعض المبانى القريبة » وعلى أثر ذلك اغتيل سليم زكى (حكمدار القاهرة) ، وتم حل جماعة الإخوان المسلمين فى (٨) ديسمبر بعد اتهامها فى الكثير من الحوادث السابقة ، فضلا عن اغتيال النقراشى رئيس الوزراء فى ذلك الوقت[٦٣] .

ونعتقد أن رواية الرافعى هنا أدق من رواية كوهين ، ولكن هذه ليست المشكلة ، لأن الذى يتفادى كوهين ذكره ، هو أن هذه الحوادث وغيرها ، سواء قام بها حزب مصر الفتاة أو جماعة الإخوان ، كانت ردود فعل طبيعية لتفاقم الأوضاع فى فلسطين ، واستفحال نشاط المنظمات الصهيونية فى مصر ، وسط ماكان يبدو للشباب تواطؤاً من جانب الحكم فى مصر مع الإنجليز والصهيونية ، ولاسيما بعد الضربة القاصمة التى تلقتها الجيوش العربية فى فلسطين . ومن الظلم

فى تقدير تلك الفترة أن نتفادى استفزاز الجماعات الصهيونية فى مصر للشعور الوطنى والقومى للأهالى ، إن لم يكن للمشتغلين منهم بالسياسة . ففى سنة (١٩١٨) سارت فى الإسكندرية أول مظاهرة يهودية صهيونية كبيرة ، فى ذكرى وعد (بالفور) ، وكان المتظاهرون يحملون الأعلام الصهيونية ويهتفون : « عاش اليهود ! » وفى الذكرى الثانية للوعد سارت فى طنطا مظاهرة أخرى ، فى (٢ نوفمبر ١٩١٩) ، اشتركت فيها الكشافة اليهودية بالقاهرة وحاخام اليهود فى الإسكندرية ، وأصبح ذلك كله تقليدا يتجدد كل عام ، دون أن يقابله رد فعل من جانب الأهالى أو السلطات . ولكن المظاهرة اليهودية الضخمة فى (٢ نوفمبر ١٩٤٥) بالقاهرة بدأت فى إحداث رد الفعل ، مع نمو الوعى القومى بالطبع . فعلى أثرها امتلأت المساجد والصحف والشوارع بالدعاية المضادة لليهود . ومع هذا كله لم يتعرض الأهالى ، ولا السلطات ، لليهود بسوء[٦٤] . ولم يظهر هذا السوء إلا حين بلغ السيل الزبى فى سنة (١٩٤٨) . وإذا كنا نشجب السوء والعدوان ، فلابد أن نشجب الاستفزاز أيضا ، لأن الاستفزاز المستمر أصل العدوان فى معظم الأحيان .

وحتى لانخرج عن نقطة موقف الأهالى من اليهود التى بدأنا بها هنا ، واضطررنا إلى تخطيها ، نعود فنقول : إن الموقف المتسامح للأهالى ، قد عكرته الاستفزازات الصهيونية ، ولكنها لم تقض عليه أو تغيره ، وإن كانت فتحت الأعين ، ونبهت الأذهان إلى خطر لم يكن مطروحا على مستوى الرأى العام قبل (١٩٤٨) .

تقول ماريون وولفصون : إن شهادات الرحالة والزوار اليهود لمصر فى عهد محمد على ، لم تشر إلى أى سوء فى أحوال يهود البلاد ، لا فى القاهرة ، ولا فى الاسكندرية حيث كانوا يفضلون الإقامة . وقد نتج عن حسن معاملة الأهالى لهم أن « نمت الطائفتان اليهوديتان الأساسيتان فى الإسكندرية والقاهرة نموا ملحوظا ، طوال القرن التاسع عشر »[٦٥] .

وهذا ماحدث أيضا لليهود فى القرن العشرين .

يقول بنيامين جوردون اليهودى الأمريكى الصهيونى عن يهود الإسكندرية الذين زارهم فى رحلته إلى مصر سنة (١٩١٠) :

« تعد الأحوال السياسية والاقتصادية لليهود مرضية جدا . فهم لايعانون من أى قيود خاصة . بل لايوجد بينهم شحاذون يهود ... ومدرسة « التحالف الإسرائيلى الدولى » تحظى بسمعة محترمة ، إلى درجة أن محافظ المدينة بعث أولاده إليها »[٦٦] .

وكتب جوردون أيضا عن يهود القاهرة الذين زارهم ، وهو فى طريقه إلى فلسطين :

« تعد الحالة السياسية والاقتصادية لليهود مرضية جداً . فهم لايتعرضون لأى قيود . ويوجد بينهم أغنى أغنياء القاهرة من أرباب البنوك والمصانع والمتاجر . ومحلاتهم تعد أرقى المحلات فى سوق المدينة القديم (لعله يقصد حى الأزهر والموسكى) ، ويقصدهم الأهالى عامة كما يقصدهم السياح »[٦٧] .

لقد استمر وضع اليهود على هذا النحو وازداد ازدهاراً مع الوقت . وكان الأهالى يقبلون على متاجر اليهود ، ومنتجات مصانعهم ، مثلما يقبلون على أطبائهم ومحاميهم ، دون تمييز أو تفرقة أو تعصب . بل إن أهالى محافظة البحيرة كانوا – ومازالوا – يترددون على قبر رجل يهودى يدعى أبو حصيرة ، هاجر من المغرب سيرا على الأقدام ، فيما يقال ، حتى وصل إلى مركز المحمودية حيث أقام إلى وفاته . وكان البسطاء من أهالى المركز يتبركون به ، ويعدونه صاحب كرامات . فلما مات لم يكفوا عن زيارة قبره ، أو حضور حفل « مولده » السنوى ، الذى كان يأتيه اليهود من جميع أرجاء مصر . وبعد صلح كامب دافيد بدأ أفراد أسرة أبى حصيرة فى إسرائيل فى زيارة قبره ، وحضور « مولده » . وكان كثير من

الأهالى المسلمين والأقباط فى الإسكندرية والقاهرة ، يعتقدون أنه شيخ مسلم ، لدرجة أن ذكره ورد فى حديث جمعنى مع بعضهم ذات مرة فتساءلت سيدة من الحاضرين : لماذا يحرص كثير من اليهود على زيارته وإشعال الشموع له ؟!

وإذا كانت هذه حكاية فولكلورية طريفة ، تدل على مدى تسامح الأهالى مع اليهود ، فهناك حكاية أخرى غير فولكلورية يرويها عن نفسه موريس مزراحى ، الذى ولد وعاش فى مصر قبل رحيله إلى سويسرا ، فى سن الخامسة والخمسين سنة (١٩٦٠) .

لقد أهدى مزراحى كتابه « مصر ويهودها » إلى شخصيتين : إحداهما يهودية يمثلها « فيلكس بن زاقين المحامى اللامع فى الإسكندرية والباحث العربى والعبرى » ، والأخرى مصرية يمثلها « محمد عبد الهادى كبير مفتشى الرسم بوزارة المعارف سابقا » وسبب هذا الإهداء الأخير أن عبد الهادى حماه فى قريته يوم وصلت جيوش الألمان إلى مشارف الإسكندرية ، وهددت الوجود اليهودى فى مصر سنة (١٩٤٢) . وكان مزراحى قد قرر فى ذلك الوقت ، مثل مئات من اليهود ، أن يبحث لنفسه عن مكان آخر غير مصر . ومع أنه كان قد عرف صاحبه المصرى ، على ظهر باخرة قادمة من أوربا سنة (١٩٣٠) ، ثم قابله مصادفة عند اقتراب روميل من « العلمين » ، فقد رحب الرجل به وآواه فى « عزبته » القريبة من القاهرة ، حتى انتهت الأزمة ، وانتصر مونتجومرى على روميل . ويضيف مزراحى إلى ذلك ، أن كثيرين من اليهود فروا فى ذلك الوقت إلى صعيد مصر ، حيث آواهم أبناء الصعيد[٦٨] .

وعلى هذا النحو من التسامح عاش اليهود فى مصر بين أهلها البسطاء وغير البسطاء معا .

وإذا كانت حوادث الشغب والاستفزاز المتبادل التى مررنا بها ردَّ فعل للنشاط الصهيونى المتزايد فى هذا القرن ، فلم يكن حزب مصر الفتاة ، ولاجماعة الإخوان

المسلمين ، يعاديان اليهود كيهود ، ولاشهدت مصر حزبا سياسيا آخر ، عادى اليهود من قبل . بل كانت الأحزاب تحرص بشكل عام – كما رأينا مع حزب الوفد – على استقطاب عناصر الأمة دون تفرقة أو تمييز ، منذ أن ظهرت فكرة الحزبية فى مصر سنة (١٨٧٩) .

ويروى الذين أرخوا لتلك الفترة أن أعضاء مجلس شورى النواب ، الذى أسسه الخديو إسماعيل سنة (١٨٦٦) واجهوا فى (٢٧ مارس ١٨٧٩) أزمة خطيرة . فقد قام الخديو بحله ، فقرر أعضاؤه الاجتماع فى صورة جمعية وطنية ، بدار السيد على البكرى نقيب الأشراف . ثم اجتمعوا بعد ذلك فى دار إسماعيل راغب أول رئيس للمجلس ، ووضعوا مايسمى « اللائحة الوطنية » ، أى الدستور بالتعبير المعاصر . ووقع على هذه اللائحة (٣٢٧) شخصا يمثلون مختلف قطاعات الأمة وعناصرها . وكان من بين الموقعين شيخ الإسلام وبطريك الأقباط وحاخام اليهود[٦٩] . وفى أثناء اشتداد الثورة العرابية ، قرر المجلس العرفى – الذى كان يحكم فى ذلك الوقت – دعوة الجمعية العمومية إلى الانعقاد ، فاجتمعت بوزارة الداخلية فى (٢٢ يوليو ١٨٨٢) للمرة الثانية ، وحضر الاجتماع نحو (٥٠٠) عضو منهم (٣) أمراء وشيخ الأزهر وحاخام اليهود . وقد تداول الحاضرون حول مصير الخديـو (توفيق) بعد ضرب الإسكندرية ، وقرروا عدم قبول عزله لعرابى ، وعدم تنفيذ أوامره . وكان من بين الموقعين « حاخام باشا الإسرائيليين » ، على حد قول عبد الرحمن الرافعى[٧٠] .

هاتان الواقعتان تدلان على حرص الحركة الوطنية على عناصر الأمة . وإذا كانت الحركة الوطنية هى المضمون الحقيقى للأحزاب السياسية فى تلك الفترة . وماتلاها ، فقد كانت الأحزاب تتحرك من واقع المصالح الطبقية والفئوية للمجتمع . وكان من أوائل هذه الأحزاب والتنظيمات السياسية تنظيم « مصر الفتاة » الذى تكون فى الإسكندرية ، وقت تكوين الحزب الوطنى فى القاهرة سنة

(١٨٧٩) . وكان كثير من أعضائه من شباب اليهود فى المدينة ، وضم عبد الله نديم وأديب إسحق ، وكانت له صحيفته التى تحمل اسمه ، ثم اختفى خبرها بعد (١٨٨٠) بل إن الحزب الوطنى ذاته الذى كونه محمد شريف (رئيس الوزراء فى عهدى إسماعيل وتوفيق)، وإسماعيل راغب ومحمد سلطان ، كان يضم عددا من اليهود[٧١] . وكان يناصر الحزب فى منفاه بباريس يعقوب صنوع بشعاره « مصر للمصريين » وصحفه العديدة التى تتسلل سرا إلى مصر .

ولم يكن يعقوب صنوع (١٨٣٩ – ١٩١٢) يهوديا متمردا على يهوديته ، ولكنه كان يعد نفسه فى الوقت ذاته مصريا ، ويعد مصر وطنه ويتحمس لعرابى وجماعته . وقد ظل على صلة بالمراسلة مع عرابى ومحمود سامى البارودى فى منفاهما بجزيرة سيلان . ومما كتبه له عرابى بتاريخ (٢٥ سبتمبر ١٨٨٤) قوله :

« أعترف أنك كنت أول من تعاطف مع الأمة المصرية ، لأنك كافحت من أجل قضية الأمة والحرية ثمانى سنوات (هى عمر صحف صنوع حتى ذلك الوقت) وقد كانت صحيفتاك : الحاوى وأبو نظارة زرقا أهم عون لى فى نداء الأمة ، ونشر أفكار الحرية بين القاصى والدانى . أكرمك الله باسم الأمة »[٧٢] .

ليس فى كلمات عرابى هذه – التى نقلتها إيرين جندزير عن مخطوطة فى تركة صنوع – مايشير إلى أنه يخاطب يهوديا ، أو أن مسلما يتعامل مع يهودى ، وإنما هى نموذج للعمل على طريق واحدة ، من أجل غاية واحدة ، وإن كان صنوع نفسه ينبغى ألا يؤخذ بمأخذ الجد ، لافى مواقفه ولا فى كتاباته ، كما أشار الباحث الألمانى ألكساندر شولش[٧٣] .

وماعبر عنه عرابى هنا ، هو ذاته ماجعل مصطفى كامل بعد ذلك ، يطرق كل الأبواب المتاحة فى سبيل قضيته . وحين تعامل مع اليهود كان يتعامل من موقف حسن النية والتسامح . فقد درس مصطفى كامل فى باريس ، مع داود حزان المحامى المصرى ابن إيلى حزان حاخام الاسكندرية . وكان حزان ضابطا فى

الجيش العثمانى ، ثم أصبح محاميا أمام المحكمة المختلطة فى الإسكندرية ، فى أوائل القرن العشرين . وكان أيضا يعادى الإنجليز ، حتى إنهم قبضوا عليه بسبب نشاطه المعادى ، وحكموا عليه بالإعدام ، ولكن تدخلات كثيرة أنقذت حياته . وعندما مات مصطفى كامل سنة (١٩٠٨) شارك حزان أخاه على كامل فى نشاطه الوطنى وساعده[٧٤] وقد لجأ مصطفى كامل فى أوربا - فيمن لجأ - إلى « تيودور هرتزل » ، قبل أن يعقد الأخير مؤتمره الصهيونى المشهور فى أغسطس (١٨٩٧) . وكان هرتزل كاتبا وصحفيا قبل أن يكون مهيجا صهيونيا ، فسعى إليه مصطفى كامل لخدمة القضية الوطنية . وكتب هرتزل فى يومياته عن ذلك قائلا بتاريخ (٢٤ مارس ١٨٩٧) :

« للمرة الثانية مر علىَّ المبعوث المصرى مصطفى كامل ، وكان قد زارنى مرة من قبل . إنه يقوم بجولة أخرى من أجل إيجاد شعور يخدم قضية الشعب المصرى ، الذى يريد التخلص من السيطرة البريطانية . وهذا الشرقى الشاب يترك فىَّ انطباعا رائعا ، فهو مثقف ، ذواقة ، ذكى ، فصيح ، سأضعه فى حساباتى ، لأنه قد يلعب يوما ما دورا فى سياسة الشرق ، حيث يجوز أن نلتقى مرة أخرى .

هاهو ذا سليل مستعبدينا السابقين فى مصرايم (مصر) ، يشكو الآن من عذاب العبودية . ويسوقه طريقه إلىَّ ، أنا اليهودى ، سعيا وراء معونتى الصحفية . ولأننى لاأستطيع فى الوقت الحاضر أن أصنع له شيئا ، فقد أكدت له أطيب تمنياتى . وأشعر - مع أنى لم أقل له هذا - بأنه من الأفضل لقضيتنا ، أن يضطر الإنجليز إلى الخروج من مصر ، لأنهم عند ذاك سيبحثون عن طريق أخرى إلى الهند غير قناة السويس ، التى سيخسرونها ، أو سيجدون ، على الأقل ، خطرا فى عبورها . وعند ذاك تكون فلسطين اليهودية الحديثة مفتوحة أمامهم ، ويتخذون طريق السكة الحديدية من يافا إلى الخليج الفارسى »[٧٥] .

يكشف هذا النص عن طريقة تفكير هرتزل وحماسته البالغة ، لحلمه الصهيونى ، أكثر مما يكشف عن طريقة تفكير مصطفى كامل ، وحماسته البالغة

أيضا لحلمه المصرى . ومع ذلك فهاهو مصطفى كامل يقصد هرتزل غير مدرك للتناقض الواضح بين القضيتين : استقلال مصر للمصريين ، واستقلال فلسطين لليهود . وهاهو ذا هرتزل يريد أن يكسب من الطرفين : مصر وبريطانيا ، وهذه هى اللعبة السياسية التى لعبها مع الجميع ، ولم يدرك قواعدها مصطفى كامل « البرىء » الذى لايطلب إلا الدعاية لقضيته ، وحتى هذه لم يستجب لها هرتزل .

وقد ضم سجل الأحزاب السياسية فى مصر هذا النوع من التشاور مع اليهود المتعاطفين ، لافى القضية المصرية وحدها ، وإنما فى القضية الفلسطينية أيضا . فقد روى أصلان قطاوى (ابن يوسف قطاوى) حكاية من هذا النوع لموريس مزراحى . وكان أصلان عضوا بمجلس الشيوخ المصرى ، ورئيسا للطائفة اليهودية فى القاهرة بعد أبيه ، ومعاديا للصهيونية . وفى سنة (١٩٤٣) كلفه على ماهر قطب حزب « الاتحاد » الملكى السابق ، ورئيس الديوان الملكى ، وبضع وزارات ، بالذهاب إلى فلسطين ، والاتصال بالمسئولين فى الوكالة اليهودية ، ولاسيما بن جوريون ، حول المصالحة بين العرب واليهود . كما كلفه بمشاورة عبد الرحمن عزام أول سكرتير للجامعة العربية ، لمعرفة رأى العرب فى الموضوع ، وتحديد المقترحات التى يمكن تقديمها للوكالة . وذهب قطاوى إلى فلسطين ، وقابل بن جوريون ، ولكن الأخير رفض اقتراح قيام دولة للشعبين ، يكون فيها اليهود أقلية[٧٦] . كما روى فيلكس بن زاقين حكاية أخرى ملخصها أن النقراشى رئيس الحزب السعدى ، طلب إليه تأليف لجنة تمثل يهود مصر للذهاب إلى الولايات المتحدة ، والتباحث مع زعماء اليهود هناك حول إنشاء دولة فيدرالية للعرب واليهود فى فلسطين . ولكن زعماء الطائفة فى الإسكندرية والقاهرة نصحوا بن زاقين بعدم تدخل الطائفة فى مثل هذه الموضوعات . وكان الوسيط فى هذا الموضوع أحمد مرسى بدر ، وزير العدل فى وزارة النقراشى سنة (١٩٤٤) ، التى فكرت فى حل القضية الفلسطينية على هذا النحو[٧٧] .

كان حزب الأحرار الدستوريين – من جهة أخرى – يتعاطف مع اليهود ، ويشجع التفاهم بين عرب فلسطين ويهودها ، ويدعو إلى وطن مشترك بينهما ، منذ إنشائه سنة (١٩٢٢) . وهذه هى ذاتها الفكرة التى طرحها على ماهر ، معبرا عن صوت القصر ، والنقراشى بعد ذلك . وكانت التنظيمات الشيوعية – من جهة ثالثة – واقعة فى قبضة اليهود منذ ظهورها فى العشرينيات . ولم تكن تزيد فى برامجها على فكرة الوطن الواحد للعرب واليهود .

لم يكن التيار الغالب فى الثقافة المصرية خلال القرنين الماضى والحالى يعادى اليهود . وليس معنى هذا أن التيار غير الغالب أو المحدود كان يعاديهم ، وإنما معناه أن التيار الذى سميناه غالبا كان أقدر على تثبيت أفكاره وترويجها بحكم اعتماده على قوة الأحزاب التى ناصرها . وابتداء من رفاعة الطهطاوى وتلاميذه ، إلى طه حسين والعقاد والمازنى وهيكل ، مرورا بالأفغانى وتلاميذه مثل : محمد عبده ، ولطفى السيد ، وغيرهما ، لم يظهر فى هذا التيار غير التسامح مع اليهود والتغاضى عن نشاطهم الصهيونى فى مصر ، فى حين أن التيار الآخر المحدود ، الذى مثله رجال كرشيد رضا واسماعيل مظهر – كان يعادى الصهيونية ولايعادى اليهود بشكل عام ، وإن كان إسماعيل مظهر ، تلميذ لطفى السيد – لم يفرق بين اليهودى والصهيونى ابتداء من الأربعينيات . وبالرغم من تلاقى التيارين واتفاقهما حول أمور كثيرة ، لم يدرك التيار الغالب خطر الصهيونية إلا بعد (١٩٤٨) .

وعندما جاء الأفغانى إلى مصر سنة (١٨٧١) ، وعاش بها ثمانى سنوات كان مريدوه من شباب المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء . وقد استطاع أن يجمعهم حوله على أفكار معينة ، – لم تكن منها فكرة الجامعة الإسلامية على أى حال – مثل استقلال الوطن ، وضرورة تحرره من استبداد الحاكم واستغلال الأجنبى ، وقيام الحكم على الشورى ، أو الديموقراطية النيابية الحزبية ، والدستور . وكان يعقوب صنوع مريدا قربه الأفغانى إليه ، واقترح عليه توجيه

مسرحه نحو الموضوعات الاجتماعية ، ثم اقترح عليه إصدار صحيفة بعد تعطيل مسرحه ، وكان يمده ببعض كتاباته . وبعد رحيل صنوع إلى باريس فى صيف (١٨٧٨) ، تقرب إلى الأفغانى عدد من شباب اليهود فى الإسكندرية ، ودعوه إلى الخطابة ، ونظموا له حفلا ألقى فيه خطبة خطيرة وقتها ، نادى فيها بتكوين حزب وطنى . وعلى أثر ذلك ظهرت « جمعية مصر الفتاة » فى أوائل (١٨٧٩) على أيدى شباب اليهود فى الإسكندرية الذين ضموا إليها بعض المصريين ومهاجرى الشام ، ثم أنشأوا صحيفة باسمها تردد ذكرها فى أكثر من مصدر ، دون أن يحفظ الزمن عددا واحدا منها . وكان من أبرز هؤلاء الشباب ألفرد دى منشه ابن البارون يعقوب . وربما كان هؤلاء هم الذين قصدتهم وثائق المخابرات البريطانية ، التى أشارت إليها إيرين جندزير . وكانت هذه الوثائق تشير بدورها إلى تلقى يعقوب صنوع فى باريس معونات مالية من يهود مصر[٧٩] .

ومنذ تطورت الصحافة المصرية فى عهد إسماعيل ، وجد اليهود وقضاياهم المحلية والدولية فرصا كبيرة للتعبير والمساندة ، ولاسيما فى الصحف التى أسسها تلاميذ الأفغانى ، وماتلاها من صحف المهاجرين الشوام بعد ذلك . ففى سنة (١٨٨٤) نقل يعقوب صروف وفارس نمر مجلتهما « المقتطف » من بيروت إلى القاهرة ، حيث أدار مطبعتها زميلهما شاهين مكاريوس ، ثم أنشأ فارس نمر جريدة « المقطم » سنة (١٨٨٨) . وسرعان ماأصبحت هاتان الصحيفتان منبراً للدفاع عن اليهود ، حتى توقفهما سنة (١٩٥٢) وعلى صفحاتهما شارك الكتاب والصحفيون اليهود فى التعبير عن قضاياهم . وكان من أبرز هؤلاء سليم زكى كوهين ، وإسحق بنيامين يهودا ، وداود نعمياس ، ومراد فرج ، وهلال فارحى ، وموريس فرجون .

بل إن محرر « المقتطف » كان يتمادى أحيانا فى تسامحه مع اليهود ، إلى حد المبالغة . ومن ذلك قوله تحت عنوان « المدرسة الاسرائيلية » . فى عدد اكتوبر (١٨٨٤) ، أى فى أول عدد صدر من المجلة فى القاهرة :

« سمحت لنا الفرصة أن نزور هذه المدرسة ، فشاهدنا فيها من حسن الترتيب ، وجودة التعليم ، وإتقان التهذيب ، مايوجب الشكر الجزيل لحضرة رئيسها ومنشئها الفاضل الحاخام زكى أفندى كوهن . ومعلميها الكرام . والحق أن الإسرائيليين قد اشتهروا بالعلوم والمعارف من قديم الزمان . وقد شهد العلامة فرار « أنهم علموا البشر وبثوا فيهم دواعى الصلاح . وكتابهم التوراة هو كتاب الإنسانية ، ومبادئهم الدينية آخذة فى أن تصير مبادىء النوع الإنسانى كله »[80] .

على هذا النحو استمرت المقتطف والمقطم ، وشاركتهما صحف كثيرة أخرى ، مثل : الأهرام ، النظام ، السياسة ، الاتحاد ، الصباح . ولم تكن هذه الصحف وغيرها تنطلق فى تسامحها من نقطة الدين فحسب ، وإنما كانت نقطة الانطلاق متعددة الجوانب ، بتعدد جوانب الحياة ذاتها .

ولم يقتصر التسامح على الصحافة ، وإنما تعداه إلى الأدب والفكر والفن . ومن أبرز القصائد المعبرة عن هذا الموقف ، قصيدتان للشاعر حافظ إبراهيم نشرهما سنة (١٩٠٨) ، فى مدح مطرب يهودى ، يدعى جاك رومانو كان من أصدقاء عبده الحمولى ، مطرب عهدى إسماعيل وتوفيق ، وكان أيضا من رجال المال فى الإسكندرية .

يقول حافظ إبراهيم فى قصيدته الأولى :

ارحمونا بنى اليهود ، كفاكم ماجمعتم بحذقكم من نقود
واصفحوا عن عقولنا ودعوا الخلـ ـق بسر التوراة والتلمود

....

ويحكم إنَّ (جاك) أسرف حتى زاد فى قومه على (داود)[81]

ويقول فى قصيدته الأخرى الأطول من سابقتها :

ياجاك إنك فى زمانك واحد ولكل عصر واحد لايلحق

....

خلق كما شاء الجليس وشيمة يذكو بها صدر الندى وَيُعَبِّقُ
ومروءة لو أنها قد قسمت بين اليهود لأحسنوا وتصدقوا[82]

لم يكن حافظ إبراهيم وحده فى هذا التسامح ، وإنما شاركه كثير من الأدباء البارزين . وإذا كان قد استوحى قصيدتيه هاتين من مطرب يهودى أعجب بصوته ، فقد استوحى عباس محمود العقاد شخصية روايته الوحيدة « سارة » من فتاة يهودية عرفها . ولم يكن العقاد قبل كتابته لهذه الرواية ، ولاقبل الحرب فى فلسطين سنة (١٩٤٨) ، يفرق بين اليهودى وغير اليهودى ، ولابين اليهودى والصهيونى . ففى عشرينيات هذا القرن قدم إلى العربية أحد مفكرى الصهيونية وغلاتها فى العصر الحديث ، وهو ماكس نوردو (١٨٤٩ - ١٩٢٣) . وحين مات نوردو كتب عنه العقاد ثلاث مقالات فى جريدة « البلاغ » راثيا له ومتأسفا لموته .

وكان مما قاله العقاد فى مقاله الأول الذى نشره فى (٢٩ يناير ١٩٢٣) :

« وليس ماكس نوردو بمجهول فى مصر . فقد ترجمنا له بعض آرائه فى إحدى المجلات قبل عشر سنوات . وشاعت كتبه بين الأدباء من ناشئتنا فتداولوها وتناقلوا آراءها ، واستفادوا منها »[83] .

ولم يكن العقاد غافلا فى ذلك الوقت عن صهيونية نوردو . فهو يقول فى المقال ذاته :

« ولما ظهرت الحركة الصهيونية كان هو من أعوانها الكبار ، وقادتها المعدودين . فشن الغارة على الكنيسة الكاثوليكية . ولم يتهيب أن يتهمها بالتحريض على ذبح اليهود فى فرنسا .... وظل إلى آخر أيامه غيورا على نشر الدعوة الصهيونية ، لايني كاتبا أو خاطبا فى تأييدها وشد أزرها »[84] .

وعندما عين يوسف قطاوى وزيرا فى وزارة زيور عام (١٩٢٤) ، تحمس العقاد لهذا التعيين ، وكتب عنه مهنئا ، ناسيا أنه ليس أول وزير يهودى بعد يوسف الصديق :

« منذ تعيين يوسف الصديق وزيراً لفرعون مصر لم تعرف مصر وزيرا يهوديا إلا فى القرن العشرين اسمه يوسف أيضا ، هو يوسف قطاوى باشا »[٨٥] .

وإذا كان العقاد على هذا القدر من التسامح ، فقد كان طه حسين من أكثر أدباء مصر المحدثين ، إن لم يكن أكثرهم ، تسامحا مع اليهود وعطفا عليهم ، لافى كتاباته فحسب ، وإنما فى مواقفه أيضا .

كان لطه حسين تلميذ يهودى ، هو إسرائيل ولفنسون الذى تكنى باسم « أبو ذؤيب » وكان طه حسين يشجعه ويساعده قدر مايستطيع فى العلم والحياة ، خلال الثلاثينيات . بل أشرف على رسالته للدكتوراه ، التى أعدها بعنوان « تاريخ اليهود فى بلاد العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام » ، ثم ساعده على التدريس فى « دار العلوم » وقد نشر ولفنسون كتابا عن موسى بن ميمون عام (١٩٣٦) مع مقدمة لأستاذه الآخر الشيخ مصطفى عبد الرازق . واستمر فى صداقته لأستاذه طه حسين ، الذى استمر بدوره فى العطف على اليهود .

وفى سنة ١٩٤٤ دعى طه حسين لزيارة مدارس الطائفة الإسرائيلية فى الإسكندرية ، فلبى الدعوة ، وذهب إلى هناك ، حيث ألقى فى احتفال كبير محاضرة عن مساهمات اليهود فى الأدب العربى . وفى سنة (١٩٤٥) قَبِلَ رئاسة تحرير مجلة « الكاتب المصرى » الأدبية الشهرية التى أنشأها الإخوة هرارى ، وظل يصدرها حتى ضغطت عليه حكومة النقراشى فى مايو (١٩٤٨) ، وآثر أصحابها إيقافها بسبب ظروف الحرب فى فلسطين . ومع ذلك لم يتعرض طه حسين فى هذه المجلة أو غيرها لقضية الصهيونية ، ولامسَّ حقوق العرب فى

فلسطين ، ولاأقحم نفسه فى الصراع السياسى حول الموضوع كله ، واكتفى فى مقال واحد افتتح به العدد التاسع (يونيو ١٩٤٦) بإبداء العطف على المهاجرين اليهود إلى فلسطين من الأطفال والصبية والنساء ، وكذلك أهل فلسطين أنفسهم الذين « لم يستشاروا ولم يستأمروا فى إيواء هؤلاء البائسين » على حد تعبيره[٨٦] .

لم يكن هذا التسامح وقفا على الأدباء وحدهم بين المثقفين ، وإنما شارك فيه الفنانون أيضا . ومن أبرز الأمثلة على ذلك مسرحيتان عرضتا خلال سنة (١٩٢٨) ، ودار موضوعهما حول اليهود . وقد قدم المسرحية الأولى مسرح رمسيس ، ومثلها يوسف وهبى وإحسان كامل وكتبت عنها مجلة روز اليوسف فى (٢١ فبراير ١٩٢٨) ، تحت عنوان « إسرائيل على مسرح رمسيس»، ثم عرضت المجلة ملخصا للمسرحية ، وعنوانها « إسرائيل » من تأليف الروائى الفرنسى اليهودى هنرى برنشتين ، وأضافت أنها « رواية وضعت فى وقت خاص بلغ فيه نفوذ الممولين اليهود أشده فى فرنسا ، وتعدى أثره إلى الدوائر السياسية والحكومية » ثم أشارت إلى سخرية المؤلف المتكررة من بنى ملته ، وكيف أنه سبق تقديم المسرحية فى الإسكندرية منذ أعوام ، على أيدى فرقة فرنسية ، فكان أن « تجمهر عدد كبير من اليهود وتظاهروا أمام المسرح ، حتى اضطروا حكمدارية الإسكندرية إلى إيقاف التمثيل . ولما حضرت الفرقة المذكورة إلى القاهرة رفضت وزارة الداخلية السماح لها بتمثيلها » ، واختتمت المجلة الموضوع بأن مسرح رمسيس « تصرف قليلا فى الترجمة وحذف من الرواية بعض العبارات الجارحة » حتى لايحتج اليهود[٨٧] .

وقدم المسرحية الأخرى مسرح برنتانيا ، ومثلتها فاطمة رشدى ، وحسين رياض ، وبشارة واكيم ، واستيفان روستى ، وسرينا إبراهيم (اليهودية) وكان عنوان المسرحية « يهوديت » ، عربها أحمد رامى ، وأخرجها عزيز عيد . وكتب

عنها باروخ منجوبى فى مجلة « الصباح » فى (٥ نوفمبر ١٩٢٨) ؛ بعنوان « يهوديت على مسرح برنتانيا » ، وكان مما كتبه أنها « صفحة خالدة من تاريخ اليهود القدماء انتزعها المؤلف هنرى برنشتين (هو نفسه مؤلف المسرحية السابقة) من بين صفحات تاريخهم »[٨٨] .

من الواضح فيما كتبته « روزاليوسف » أن اليهود فى مصر لم يكونوا قوة مهملة ، وإنما على العكس كانوا قوة يحسب لها حساب . فلم يرضهم أن يسخر يهودى فرنسى من تاريخهم فى فرنسا ، ولم يرض السلطات المصرية أن تغضبهم فرقة فرنسية . ولم يرض فرقة رمسيس ليوسف وهبى أن تسىء إليهم فهذبت النص الفرنسى ، ونظفته من السخرية والمواقف والألفاظ الجارحة ، مع أن النص نفسه قدم من قبل فى أصله الفرنسى على مسارح باريس دون أن يغضب يهود فرنسا !

ولعلنا نخلص من هذا العرض للموقف الرسمى ، والموقف الشعبى من اليهود فى مصر بعبارة لموريس مزراحى يقول فيها : « لم تظهر مشكلة يهودية فى مصر ، ابتداء من عهد محمد على إلى الحرب فى فلسطين . وكانت علاقات اليهود بالأجانب من ناحية وعلاقاتهم بالمصريين من ناحية أخرى علاقات ودية جدا »[٨٩] .

يعلمنا التاريخ أن ازدهار أى أقلية داخل أى بلد ، إنما يقوم فى الأساس على عنصرى الموقف الرسمى ، والموقف الشعبى منها . وإذا كنا قد لمسنا فى هذه الدراسة – حتى الآن – مدى التسامح على مستوى الموقفين من اليهود فى مصر ، فماذا تكون النتيجة ؟ الانطلاق والازدهار باختصار ، وهذا ماحدث لليهود فى مصر حتى سنة (١٩٤٨) .

ولكن قبل أن نتبين مظاهر هذا الازدهار ، ونتقصاه فى دروبه المختلفة ، علينا أن نعرف شيئا عن مظهر آخر كمىٍّ ، يصلح فى حد ذاته كمقياس لاختبار صحة النتيجة ، التى أوصلنا إليها الموقفان ، الرسمى والشعبى ، كما عرضنا لهما . وهذا المظهر – المقياس هو النمو العددى لليهود فى مصر على طول الفترة ، لاعن طريق التكاثر أو الإنجاب ، وإنما عن طريق الهجرة الدائمة بالدرجة الأولى .

كان أول إحصاء سكانى فى مصر ظهر فيه اليهود ، هو إحصاء سنة (١٨٩٧) . أما قبل ذلك حتى بداية القرن التاسع عشر ، فقد كان عددهم يأتى على سبيل الاجتهاد فى التقدير . ففى ثلاثينيات القرن ذكر المستشرق الإنجليزى إدوارد لين أن عددهم نحو (٥) آلاف . وفى سنة (١٨٤٠) ، ذكر العالم الفرنسى كلوت بك : إن عددهم (٧) آلاف . وفى النصف الثانى من الخمسينيات ثبت رحالة يهودى زار مصر الرقم السابق . ثم رفعه سائح فرنسى فى سبتمبر (١٨٦٧) إلى (٨) آلاف . وفى سنة (١٨٨١ / ١٨٨٢) زار رحالة يهودى آخر مصر ، فرفع الرقم مرة أخرى إلى (٥٠) ألفا ، وفى ذات الفترة تقريبا خفضه كاتب ألمانى إلى (٣٠) ألفا ، وهذا أقرب إلى الحقيقة كما يقول لانداو ، وإن كان القنصل البريطانى فى القاهرة ، رالف بورج ، قدرهم سنة (١٨٩٠ بنحو ٧ أو ٨ آلاف) فى القاهرة وحدها .

ولعلنا نلاحظ أن التقديرين الأخيرين قد تما وقت الثورة العرابية والاحتلال ، البريطانى . ومن المعروف أن أعداداً كبيرة من الأوربيين ، قد غادرت مصر قبيل

الاحتلال ، وكان بينها عدد كبير من اليهود الأوربيين ، الذين سبق أن جاءوا فى عهد إسماعيل بحثا عن اللبن والعسل كما يقال فى الانجليزية . وفى سنة (١٨٨٢) جرى فى مصر أول إحصاء رسمى للسكان ، ولكن اليهود لم يظهر لهم فيه أثر ، لاهم ولاغيرهم من الأقليات . فلما تم إحصاء (١٨٩٧) ؛ كان عدد اليهود فيه (٢٥٢٠٠) نسمة ، أى بنقص قدره نحو (٥) آلاف عن التقدير الاجتهادى للكاتب الألمانى المشار إليه . وهذا النقص مرجعه هجرة بعض اليهود قبيل الاحتلال . ولكن هذا الرقم السابق ذاته ، ارتفع فجأة إلى (٣٨٦٣٥) نسمة فى الإحصاء التالى سنة (١٩٠٧) . وتفسير ذلك بسيط ، هو أن الاحتلال البريطانى ، كان قد ثبت قدميه ، فاجتذب ذلك يهودا كثيرين ، وشجعهم على المجىء إلى مصر . ومع زيادة استقرار الاحتلال ، وفى ظل الموقف الرسمى والشعبى المتسامح المواتى لليهود ، ارتفع الرقم مرة أخرى فى إحصاء (١٩١٧ إلى ٥٩٥٨١) ، ولكن سبب هذا الارتفاع كان هجرة كبيرة من فلسطين بسبب الحرب ، واضطهاد الوالى العثمانى ، وهى هجرة بلغت – كما ذكرنا من قبل – نحو (١١٢٧٧) نسمة . ولكن هؤلاء المهاجرين اللاجئين ، مالبث معظمهم أن عادوا من حيث أتوا ، بعد انتهاء الحرب .

ومع ذلك رفع إحصاء (١٩٢٧) عدد اليهود إلى (٦٣٥٥٠) نسمة . ومعنى هذا أن عودة المهاجرين اللاجئين ، صحبتها هجرة أخرى بتشجيع الظروف المواتية فى مصر من ناحية ، وإغراء المنظمات الصهيونية التى انتشرت فى مصر عقب تصريح (بالفور) من ناحية أخرى ، وجعلت مصر أشبه بمعسكر الانتقال إلى فلسطين . ومع ذلك أيضا لم تظهر أى زيادة فى الإحصاء التالى سنة (١٩٣٧) . فقد نقص العدد السابق إلى (٦٢٩٥٣) نسمة ، وهذا أمر طبيعى إذا أخذنا فى الاعتبار العوامل السابقة ، ولاسيما عامل الهجرة إلى فلسطين . أما الإحصاء التالى سنة (١٩٤٧) ، فقد رفع الرقم إلى (٦٥٦٣٩) نسمة ، بزيادة طبيعية مصدرها الأساسى التكاثر والإنجاب .

لقد تم هذا التطور السكانى اليهودى فى مصر من (١٨٩٧ إلى ١٩٤٧) فى وقت لم يشر فيه أى مؤرخ يهودى لأى اضطهاد أو مذابح لليهود فى شرق أوربا . فقد تمت آخر هجرة كبيرة فى آخر اضطهاد من هذا النوع فى سنة (١٨٨١) ، وكان مصدرها روسيا . ومعنى هذا أيضا أن الصهيونية أصبحت محركا للهجرة نحو مصر ، خلال تلك الفترة ، فضلا عن الظروف المواتية فى مصر ذاتها ، وازدهار اليهود بها . ولو لم يكن يهود مصر فى حالة ازدهار منذ عهد إسماعيل ، أو منذ الاحتلال البريطانى ، لما ازداد إقبال اليهود الآخرين عليها ، وهذه نتيجة منطقية ، تؤكد الازدهار من جهة أخرى .

ويقول حاييم كوهين فى ذلك :

« حتى سنة (١٩١٧) كانت هجرة اليهود إلى مصر كبيرة . وحتى سنة (١٩٠٧) ؛ كان عدد الرجال بين المهاجرين أكبر من عدد النساء (٨٤٧ رجلا أكثر من النساء فى فئة السن من ٢٠ إلى ٤٩) فى حين أن عدد النساء كان أكبر من عدد الرجال فى السنوات (١٩٠٧ – ١٩١٧) . وحين بدأ اليهود فى مغادرة مصر ، منذ سنة (١٩١٧) ، كان المغادرون من الرجال أساسا ، وبذلك خلفوا فائضا كبيرا من النساء اليهوديات . وكانت غالبية المغادرين شبابا من فئة سن (١٥ إلى ٢٩) ، لدرجة أن العدد الأكبر من النساء ، كان يلفت الانتباه بصفة خاصة فى هذه الفئة من العمر . ومن ثم كان الشباب – كما حدث فى بلاد أخرى – هم أول من يأتى إلى مصر وأول من يغادرها »[٩١] .

ثم يستطرد متحدثا عن الأسباب :

« كان من الأسباب الرئيسية لتدفق اليهود الكبير على مصر ، التطور الاقتصادى الذى شهدته البلاد ، ابتداء من ستينيات القرن الماضى ، والامتيازات التى منحت للأجانب بمقتضى قانون الامتيازات . فقد اجتذبت هذه الامتيازات بعض يهود

تركيا وسوريا ، حيث تدهور الوضع الاقتصادى .كما اجتذبت ألوفا من يهود شرق أوربا ، الذين فروا من المذابح المتتالية . وخلال الحرب الأولى جاء إلى مصر ألوف من اليهود المطرودين من فلسطين ، فأقام بعضهم ونزح البعض الآخر بعد إقامة قصيرة . وبعد الحرب كفت الأحوال الاقتصادية فى مصر عن جذب المهاجرين بكثرة(٩٢) .

ويلاحظ كوهين فى أرقام الإحصاءات التى أشرنا إليها ، أن اليهود تركزوا فى أكبر مدينتين فى مصر : القاهرة والإسكندرية ، حيث عاش (٨٥٪ منهم فى سنة ١٨٩٧ ؛ ٩٠٪ فى سنة ١٩١٧ ، ٩٧٪ فى سنة ١٩٤٧) ، وهو أمر لم يحدث من قبل بهذه الكثافة فى بلدان الشرق الأوسط . ومرجعه عنده إلى تركز المؤسسات التعليمية ، والصحية ، والاقتصادية ، فى المدينتين . كما يلاحظ أنه حتى سنة (١٩١٧) ، كانت نسبة اليهود حاملى الجنسيات الأجنبية كبيرة بسبب منافع الامتيازات الأجنبية ، فضلا عن أن المولودين فى مصر ، كانوا يحاولون اكتساب جنسيات أجنبية لهذا السبب . ولما ازداد الضغط على الأجانب بفعل الدعاية بعد ذلك بدأوا فى السعى نحو الحصول على الجنسية المصرية ، ولكن هذا السعى لم يتحقق للكثيرين ، وبذلك انخفض عدد اليهود الأجانب فى سنوات (١٩٢٧ – ١٩٤٧ من ٢٩ ألفا إلى ١٣ ألفا)(٩٣) .

ولكن هذه الملاحظات لاتغير من الأمر شيئا . والأمر – كما رأينا ببساطة – أمر ازدهار أولا وأخيرا ، والازدهار يقاس هنا بازدياد السكان زيادة كبيرة ، سبيلها المعقولة هى الهجرة ، أو التدفق إلى الداخل،لا الإنجاب ، لأنه لم تعرف عن اليهود فى مصر أو فى غيرها معدلات مرتفعة فى الإنجاب ، فى الفترة التى ندرسها على الأقل .

يقودنا هذا ، على أى حال ، إلى تبين وجوه الازدهار ومظاهره . وأبرز هذه المظاهر، بالطبع ، هى السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية . وهذا

ماسنتوقف عنده على التوالى .

ونتساءل : ماذا كان النشاط السياسى لليهود ؟

لقد مر بنا اشتراك حاخام القاهرة فى اجتماعات سياسية مصرية فى سنتى (١٨٧٩ ؛ ١٨٨٢) ، كما مر بنا تشكيل شباب اليهود فى الإسكندرية لجماعة سياسية باسم « مصر الفتاة » سنة (١٨٧٩) ، ومشاركتهم فى الحزب الوطنى الذى تألف فى تلك السنة . ولكن هذه وغيرها أمور محدودة جدا ، لم يظهر لها أثر بارز ، مثلما لم يظهر أثر بارز أيضا لكتابات يعقوب صنوع ، أو صحفه السياسية فى فرنسا . ولهذا نميل مع لانداو إلى القول بأن اليهود لم يلعبوا طوال القرن التاسع عشر ، سوى نصيب لايذكر ،فى مجموعه ،فى حياة مصر السياسية(٩٤) .

وقد مر بنا أيضا اشتراك يوسف قطاوى فى الجمعية التشريعية ، ثم تعيينه وزيرا مرتين ، فشيخا فى البرلمان ، فممثلا لمصر فى بعض المؤتمرات . كما مر بنا تعيين ولديه بعد ذلك فى مجلس الشيوخ ، وانتخاب بيشيوتو فى البرلمان الوفدى سنة (١٩٢٧) ، وتعيين عدد آخر من اليهود فى مجلس الشيوخ ، كان آخرهم زكى عريبى المحامى . ولكن هذه وغيرها أمور فردية عادية لم يكن لها أثر بارز فى سياسة البلاد ولافى توجهاتها . ولهذا نميل إلى الاعتقاد بأن اليهود ، لم يلعبوا فى القرن العشرين دوراً بارزا فى حياة مصر السياسية ، وأن الدور الذى لعبوه عادى وفردى فى مجموعه .

غير أن هذا أو ذاك لم يكن يمثل النشاط السياسى الحقيقى لليهود فى مصر . فهذا النشاط الحقيقى كان أكبر وأخطر من كل مامر بنا ، لافى وسائله فحسب وإنما فى غاياته أيضا .

ونستطيع أن نقسم هذا النشاط السياسى الحقيقى إلى نوعين بتعبيرات هذا العصر: نشاط يمينى ، ونشاط يسارى .

أما النشاط اليمينى فقد انصرف أساسا إلى الصهيونية . وأما النشاط اليسارى فقد انصرف أساسا إلى الاشتراكية والشيوعية .

لعل السؤال الذى يتبادر إلى الذهن عند دراسة النشاط الصهيونى لليهود فى مصر هو :

لماذا اختار اليهود هذا النشاط ، فى حين كان الموقف الرسمى والموقف الشعبى فى مصر ودودين ومتسامحين معهم كما رأينا ؟

نحن نعرف أن فكرة الصهيونية ، وتجميع اليهود حول حلم الوطن القومى فى فلسطين ، قد نشأت فى أوربا بتأثير ألوان الاضطهاد التى تعرضوا لها ولاسيما فى روسيا . وقد ساهمت فى نمو هذه الفكرة الحركات القومية التى اجتاحت أوربا بعد سقوط نابليون بونابرت سنة (١٨١٥) . ثم تبلورت الفكرة على يد الصحفى النمسوى تيودور هرتزل (١٨٦٠ - ١٩٠٤) ، الذى نجح فى عقد أول مؤتمر صهيونى عالمى بمدينة بال أو بازل السويسرية فى (٢٩ أغسطس ١٨٩٧) ، ولم يكن مصطلح « الصهيونية » قد مضى عليه ست سنوات فى لغات أوربا ، ولاسيما الألمانية . إذ يقال : إن أول من استخدم هذا المصطلح يهودى يدعى ناثان بيرنباوم فى مناقشة جرت بمدينة فيينا بتاريخ (٢٣ يناير ١٨٩٢) . ثم بدأ تاريخ الصهيونية على المستوى السياسى بكتاب « الدولة اليهودية » الذى نشره هرتزل سنة (١٨٩٦)[٩٥] .

ولم يثبت حتى الآن ماإذا كان هرتزل قد دعا إلى مؤتمره الصهيونى الأول هذا ممثلا ليهود مصر ، ولكن ثبت للمحاضرين أن مصر هى أنسب جسر إلى فلسطين ، وأن وقوعها فى أيدى الإنجليز ، يمكن أن يمهد السبيل إلى التفاهم مع السلطان العثمانى ، حول فلسطين بالشراء أو بالإيجار ، فضلا عن أن الطائفة اليهودية فى مصر ، قد بدأت فى الازدهار والثراء .

ومع ذلك لم ينجح هرتزل وأعوانه ووسطاؤه فى الحصول على شيء مثمر من السلطان العثمانى عبد الحميد ، فيما يتعلق بفلسطين . وبدأت قرائح الصهاينة والعاطفين عليهم من الإنجليز فى طرح البدائل لفلسطين . وكانت هذه البدائل ثلاثة : جزيرة قبرص ، وأحد أقاليم أوغنده ، ومنطقة العريش فى شبه جزيرة سيناء . أما البديلان الأولان فلم يصمدا طويلا أمام النقاش عند الصهاينة والإنجليز معا . وأما البديل الأخير فقد صمد قليلا ، ووجد ترحيبا من الطرفين ، وعده الصهاينة عتبة دخول إلى فلسطين . ودخل هرتزل فى مفاوضات بشأنه ، ثم جاء بنفسه إلى مصر فى (٢٣ مارس ١٩٠٣) ، ومعه مشروع بإقامة مستوطنة قرب مدينة العريش . وكان قد سبقه إلى القاهرة مندوبه اليهودى الإنجليزى ليوبولد جرينبرج ، الذى قابل المندوب السامى اللورد كرومر ، ووزير الخارجية بطرس غالى ، ونجح فى الحصول على تأييدهما المبدئى للمشروع . ولكن حين جاء هرتزل بنفسه ، وقابل كرومر وغالى تحول التأييد المبدئى إلى عدم اكتراث ورغبة فى التريث من جهة كرومر ، الذى كان يخشى أن يثير غضب السلطان ، فأثار بعض العراقيل مثل مشكلة الأمن ، ومشكلة البدو فى المنطقة ، ومشكلة حجم المستوطنة والمستوطنين ، ومشكلة توصيل مياه النيل إلى المشروع . وكتب هرتزل فى يومياته عن لقائه غير المشجع بكرومر ، وكيف أن الأخير عامله بصلافة ثم « زحلقه » إلى غالى الذى لم يكن بيديه حق ولاباطل . بل إنه حين طلب لقاء المندوب السامى التركى مختار باشا ، قال له كرومر : إنه لايعترف به ، ونصحه بألا يقابله .

وخرج هرتزل من مقابلتيه لكرومر مصوراً إياه بقوله : « إن اللورد كرومر هو أبغض إنجليزى واجهته فى حياتى » ثم غادر مصر بخفى حنين فى (٤ ابريل ١٩٠٣) ، عائدا إلى أوربا ، ليكافح من جديد فى سبيل أحلامه[٩٦] .

بالرغم من هذا الفشل الذى واجهه هرتزل فى مصر ، فقد وجد شيئا من التعويض فى يهودها ، الذين لم يشر إليهم فى يومياته عن هذه الزيارة الوحيدة .

ففى فبراير (١٨٩٧) أسس يهودى يدعى ماركو باروخ أول رابطة صهيونية فى مصر ، باسم « جمعية بركوخبا الصهيونية » نسبة إلى « بروكوخبا » الذى يعده اليهود بطلاً قوميا ، قاد أول ثورة على الرومان فى فلسطين سنة (١٣٢) . وكان باروخ هذا مهاجرا وفد على مصر قبل عام ، ولكنه كان صهيونيا متحمسا ، قال عنه هرتزل إنه « الفوضوى الذى روضته الصهيونية »[٩٧] وعن طريق هذا الفوضوى السابق ، واثنين آخرين من المهاجرين الجدد (رئيس الجمعية وسكرتيرها) ، بدأ النشاط الصهيونى فى مصر ، وبعثت الجمعية إلى هرتزل تطلب نسخة من كتابه « الدولة اليهودية » ، ثم راحت تجند أنصاراً من اليهود الإشكنازية ، بعد أن فشلت مع اليهود السفاردية الذين لم يكونوا – حتى ذلك الحين – مقتنعين بالحل الصهيونى للمشكلة اليهودية ، كما تقول سهام نصار[٩٨] .

ومع أن هذه الجمعية أسست لنفسها فروعا فى المدن الكبرى ، ومدرسة فى القاهرة لتعليم الأطفال بالمجان ، فقد ظلت محدودة الأثر خلال سنواتها الأولى .

وتقول سهام نصار أيضا :

وخلال الفترة التى سبقت نشوب الحرب العالمية الأولى ، تأسس عدد كبير من الجمعيات الصهيونية . ففى القاهرة تأسست جمعية أبناء صهيون عام (١٩٠٠) ، وكانت تضم الأطفال تحت (١٥) سنة ، وجمعية الأدب العبرى عام (١٩٠٥) ، وجمعية أحباء صهيون عام (١٩٠٦) ، ولجنة التنسيق الصهيونية عام (١٩٠٩) ، وجمعية أبناء صهيون إلى الأمام عام (١٩١٠) ، واتحاد أطفال صهيون عام (١٩١١) ، والدائرة القومية اليهودية ودائرة هرتزل عام (١٩١٢) . وفى الإسكندرية أسس شارل بغدادلى أول جمعية صهيونية عام(١٨٩٨)، حاول أن يجمع فيها صفوة الإشكنازيم والسفارديم ، ولكن هذه الجمعية تحولت إلى فرع لجمعية بركوخبا عام (١٩٠١) . كما تأسست إلى جانبها جمعيات أخرى

مثل جمعية أمل صهيون عام (١٩٠٤) ، وجمعية عمال صهيون ، وجمعية أبناء صهيون عام (١٩٠٦) ، وجمعية شبان صهيون عام (١٩٠٧) ، ثم اندمجت جمعية أبناء صهيون مع جمعية زئير صهيون عام (١٩٠٩)[٩٩] »

من الواضح أن نحو ١٤ جمعية صهيونية فى مدينتين عدد كبير يثير التساؤل . ومع ذلك اتحد هذا العدد الكبير فى سنة (١٩١٧) ، وتمخض عن « الاتحاد الصهيونى » . ثم تأسس أول فرع للمنظمة الصهيونية العالمية فى مصر ، وتولى رئاسته جاك موصيرى ، وشغل ليون كاسترو منصب سكرتير لجنته المركزية . وأصدر الفرع بعد عام صحيفة اسمها « المجلة الصهيونية » باللغة الفرنسية . وبدأ زعماؤه فى توحيد الجمعيات والمنظمات الأخرى تحت مظلته ، وإنشاء فروع له فى المدن الكبرى ، والتركيز على ترويج المبادىء الصهيونية فى أوساط اليهود[١٠٠] . وكان اليهود الغربيون (الإشكنازية) يسيطرون على نشاطه . وعن طريقهم تكونت فرقة البغالة ، التى شاركت فى الحرب العالمية الأولى ، تحت لواء الإنجليز كما سبق أن أشرنا ، بل تكون ماسمى باسم « الفيلق اليهودى » فى الجيش البريطانى ، وأرسلت كتيبتان منه إلى مصر فى فبراير وأبريل عام (١٩١٨) على التوالى ، حيث تلقتا تدريباتهما . ثم تكونت فى مصر الكتيبة رقم (٤٠) من يهود مصر وفلسطين ، وتم إرسالها إلى القدس للانضمام إلى الجيش البريطانى الذى فتح المدينة بقيادة الجنرال ألنبى .

وفى تلك الأثناء صدر وعد (بالفور) أو تصريحه كما يسميه الإنجليز ، وكان سببا فى تصاعد الحماس بين يهود مصر ، ولاسيما الصهاينة منهم،الذين احتفلوا به فى الإسكندرية والقاهرة ، أكثر مما احتفلوا بالمؤتمر الصهيونى الأول الذى نظمه هرتزل . وجاء فى البرقية التى أرسلها جاك موصيرى ، رئيس المنظمة الصهيونية بمصر ، عقب احتفال (١١ نوفمبر عام ١٩١٧) إلى لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا : « أبدى اجتماع حاشد ضم (٨٠٠٠) يهودى عقد بمدينة الإسكندرية

حماسا منقطع النظير ، فى أثناء تلاوة تصريح (بالفور) ، وأعرب عن امتنانه العظيم لحكومة صاحب الجلالة »[١٠١] وأعرب موصيرى فى برقية أخرى إلى حاييم وايزمان عن أمله ، فى أن تصبح فلسطين دولة يهودية ؛ وأن يقل سكانها العرب ، وأكد أن مصر أصبحت تربة مناسبة للصهيونية[١٠٢] ، وكان وايزمان (١٨٧٤ - ١٩٥٢) أول رئيس لإسرائيل قد قام بدور بارز فى حملة إصدار الوعد .

لم يكن وعد (بالفور) نهاية المطاف كما نعرف . ولم يكتف الصهاينة بصدوره ، وإنما اتخذوه كضوء أخضر من أجل تكثيف النشاط وموالاته . ولم تمض أشهر قلائل حتى وصلت إلى مصر لجنة صهيونية خاصة فى طريقها إلى فلسطين ، لدراسة الوضع هناك . وكان يرأس اللجنة وايزمان الذى وصل مع رفقائه إلى الإسكندرية فى (٢٠ مارس عام ١٩١٨) . وتوقع وايزمان ألا يكون فى استقبال اللجنة أحد من اليهود ، لأنه - كما روى لزوجته فى رسالة مطولة وقتها - لم يخبر أحدا عن مجيئها،ولكن الصهاينة فى الإسكندرية استطاعوا أن يتوصلوا إلى موعد وصولها ، فاستقبلوها فى الميناء بمظاهرة ترحيب بالغ ، لدرجة أن وايزمان شعر بالحرج . ثم تكررت حكاية الترحيب البالغ فى القاهرة . وكان على رأس المرحبين فى الإسكندرية إدجار سوارس رئيس الطائفة بالمدينة ، والبارون فيلكس دى منشه كبير أعيانها . وكان على رأس المرحبين فى القاهرة موسى قطاوى ، رئيس الطائفة بالعاصمة ، فضلا عن الحاخامات وكبار الصهاينة وغير الصهاينة ، وطلبت اللجنة الاجتماع بزعماء اليهود فى القاهرة حتى تقربهم من الصهيونية ، وتكتسب تأييدهم لعملها وأهدافها .

ولنعد إلى رسالة وايزمان المطولة إلى زوجته ، التى تركها فى لندن ، وهى مؤرخة فى (٢٤ - ٢٦ مارس ١٩١٨) . ففى هذه الرسالة كشف وايزمان عن نشاط الصهيونية فى مصر ، وسجل بنفسه وثيقة خطيرة لهذا النشاط ، فضلا عن تصويره لحياة اليهود وقتها .

يقول وايزمان بعد تحية قصيرة وإشارة إلى مظاهرات الترحيب وحسن تفهم السير ريجنالد وينجت المندوب السامى البريطانى وقتها :

« يعد موقف السلطات رائعا وصادقا وصريحا ، بالرغم من افتقارها إلى إدراك الأمور ، ولكن كل شىء سيكون على خير مايرام مادام التعامل مع الإنجليز . أما اليهود المحليون فحكاياتهم جد مختلفة . ومن سوء الحظ أنهم منقسمون إلى شيع عديدة متباينة . وسوف أبدأ بخصومنا فأقول : إنه لايوجد أعداء علنيون للصهيونية هنا ، أو لايوجد شىء من ذلك على أى نحو منذ صدور التصريح . ولكن من المبالغة فى التفاؤل القول بأنهم تعمقوا الموضوع ، وأدركوا معنى الأحداث الراهنة . ويوجد هنا العديد من الأسر اليهودية العريقة التى يشكل أفرادها أقطاب المال فى الإسكندرية وفى مصر كلها . ولهؤلاء نفوذ كبير فى جميع المجالات ، ولاسيما المالية بالطبع . وهم جميعا أقرباء ، يشكلون شبه أسرة كبيرة . ومنهم اثنان أو ثلاثة على قدر بالغ من الذكاء والمقدرة . وأحدهم هو هرارى باشا الذى يشغل منصبا مرموقا فى حكومة البلاد ، والآخر هو فيكتور موصيرى (يوجد هنا عدد لايحصى من أسرة موصيرى من مختلف الأنواع) ، وهو مهندس زراعى بارز ، وخبير من الطبقة العالية . وهؤلاء جميعا مليونيرات ، يتزايد ثراؤهم يوما بعد يوم».

« لا أريد أن أدين هؤلاء الناس ، ولكن مجرد النظر إلى هذه الحفنة ، يشعرنى بالبرودة والخوف . فهم لايبالون ، وسيظلون غير مبالين . وقد يصبح بعضهم (مهتما) بفلسطين . ولكنى أعتقد أن هذا الاهتمام سيكون بشرط واحد أساسى ، هو أن تصبح فلسطين امتداداً لمصر ، حتى يستطيعوا أن يمدوا نفوذهم إلى هناك ، ويطبقوا تجربتهم فى مصر ، وما توصلوا إليه هنا من أساليب».

« إن فرائصى ترتعد حين تخطر لى فكرة هذا الاحتمال . ولكن هؤلاء الرجال مهذبون للغاية ، ويستقبلوننا بحرارة شرقية ، ويقدمون لنا جميع أنواع المجاملات ،

التى لابد أن نرد عليها بأدب مناسب . ولكن الموضوع كله تمثيل فى تمثيل ، ولايزيد على ذلك !»

ويستطرد وايزمان فى هذه الرسالة المعبرة ، فيتحدث عن الصهاينة فى مصر بقوله :

« أما الصهاينة المحليون ، فينقسمون إلى فئتين : الفلسطينيون – اللاجئون – وهؤلاء يتميزون بالحيوية والطرافة والتعقيد ، وربما يتميزون أيضا بصعوبة التعامل معهم ، ولكنهم ممن يعتمد عليهم . وعدا هؤلاء نجد الصهاينة المصريين الذين يتصفون بالخفة ، وقلة الخبرة ، والسطحية . وباستثناء موصيرى واثنين أو ثلاثة آخرين ، لم أقابل هنا أناسا يستحقون الذكر ، وإنما على العكس وجدت كثيرا من الكلام الطنان ، والتظاهر بالوطنية والضجيج والصياح . ولكن الفلسطينيين جاءوا معهم بروح جديدة ، روح نقدية وواقعية ، وموقف شريف مخلص » .

ـ(والمقصود بالفلسطينيين هنا اليهود الذين اضطهدهم الأتراك ، ومنعوهم من النشاط الصهيونى ، واضطروهم إلى الهجرة نحو مصر فى سنة (١٩١٥) . وكان معظمهم – إن لم يكن جميعهم – من يهود شرق أوربا الذين ينتمى إليهم وايزمان نفسه) ـ

يستطرد وايزمان مرة أخرى ، فيتحدث عن دور مصر فى الحركة الصهيونية قائلا :

« ومن سوء الحظ أن مصر مازال عليها دور تلعبه فى قضيتنا . هذا أمر لامفر منه . فالصلة بين البلدين (يقصد مصر وفلسطين) وثيقة جدا . وقد أدت الحرب إلى شدة تقاربهما . ولكن لايوجد هنا من يعتمد عليه سوى عدد محدود جدا . فلاشك أن اللاجئين يحاولون الرحيل من هنا فى أسرع وقت ممكن . ومع أنه من الصعب التنبؤ بمدى السرعة التى سيتمكن بها هؤلاء من الهجرة إلى فلسطين ،

فهم لايريدون المشاركة فى الصهيونية المحلية ، بل يعجزون عن هذه المشاركة . ويبدو أن علينا إنشاء صحيفة هنا . فالعمل كله فى الوقت الحاضر يتراكم على موصيرى الذى يعمل بأمانة ، ولكنه لايقدر على تدبير كل شىء[١٠٣] » .

وتكشف هذه الرسالة عن بعض النقاط المهمة فى علاقة يهود مصر بالصهيونية .

أولها تفهم سلطات الاحتلال البريطانى للقضية بالرغم مما يأخذه عليها وايزمان من افتقار إلى الإدراك . وسبب ذلك كما أشارت الرسالة ، فى الجزء الذى لم نقتطفه ، أن الدعاية الصهيونية وصلت إلى السير وينجت محرفة . فهو يقول : « إن السلطات هنا مقتنعة تمام الاقتناع بشىء واحد هو أن اليهود يستعدون لإنشاء دولة فلسطين على الفور ، وأن أول شىء سيفعلونه هو المطالبة بالأرض (الفلسطينية) كلها ، واستبعاد العرب » وقد عد وايزمان هذا من الشائعات التى لايدرى من روجها ، وأضاف أنه أقنع وينجت بعدم صحتها ، وأفهمه أن مراد الصهاينة ، هو إنشاء محمية إنجليزية فى فلسطين ، يكون لليهود فيها حق الإقامة[١٠٤] . كما تكشف الرسالة عن أن يهود مصر لم يكونوا – حتى فى ذلك الوقت المبكر – يعادون الصهيونية عاطفيا على الأقل ، وأن المتحمسين منهم كانوا من المهاجرين الإشكنازية ، أو اللاجئين من فلسطين ، وأن تحميس غير المتحمسين هو واجب المستقبل .

غير أن أخطر ماتكشف عنه هذه الرسالة ، هو أن مصر لها يد طولى فى تحقيق أحلام الصهيونية ، بحكم قربها من فلسطين ؛ وإن كان هذا من سوء حظ اليهود ، كما ذكر وايزمان ، لا للعداوة التاريخية التى يحملها الصهاينة لمصر ، وكل بلد اضطهدهم ، وإنما لأن مصر عربية ، ولأن عرب فلسطين سيستنجدون بها ، إذا ألم بهم مكروه . ومع ذلك كان أحرى بوايزمان أن يستخدم صيغة « من حسن الحظ » ، لأن مصر وقتها ، كان يصرف أمورها الإنجليز ، وكان الإنجليز أصحاب الوعد وحماته .

ومع ذلك فإذا كانت الرسالة السابقة ، قد كتبت فى وقت مبكر من رحلة وايزمان إلى مصر وفلسطين ، فهناك تقرير كتبه إلى ناحوم سوكولوف رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، روى فيها ماسبق مع بعض التأملات ، والنتائج والتوصيات . وقد كتب وايزمان هذا التقرير فى تل أبيب ويافا على التوالى بتاريخ (١٨ إبريل ١٩١٨) . وفيه أطلع رئيسه سوكولوف المقيم بلندن على نشاط اللجنة منذ بداية رحلتها . وكان مما أضافه إلى مضمون الرسالة السابقة ، قوله : إن حضور يهود مصر غير الصهاينة احتفالات تكريم اللجنة يعد حدثا فى حد ذاته ، ولاسيما بالنسبة « لليهود ، غير الصهاينة ، أصحاب النفوذ مثل إدجار سوارس وبيشيوتو وقطاوى باشا وغيرهم ، الذين شاركوا لأول مرة فى نشاط صهيونى . »[١٠٥] ، ثم شرح وايزمان عمل اللجنة كما يأتى :

« لقد سار عمل اللجنة خلال وجودها بمصر فى ثلاث قنوات :

١ – إثارة اهتمام الطائفة اليهودية المصرية بالحركة الصهيونية .

٢ – تحقيق الإشراف على لجنة الغوث الخاصة التى تمارس نشاطها من القاهرة ، والتنسيق بين مختلف صناديق الإغاثة الموجهة لسكان فلسطين اليهود .

٣ – الاتصال بالزعماء العرب .

واستطرد وايزمان قائلا عن القناة الأولى :

« الحق أنه إذا لم يكن زعماء الطائفة اليهودية المصرية ذوو النفوذ معادين للصهيونية على نحو عملى ، فقد كانوا على الأقل معادين من الناحية النظرية ، ولم يبدوا من الناحية العملية اهتماما كبيراً بها » .

ثم ذكر وايزمان أن اللجنة فشلت تقريبا فى إثارة اهتمام هؤلاء بالصهيونية ، وعقدت اجتماعين بممثليهم فى الإسكندرية والقاهرة . وتقرر فى هذين الاجتماعين

مساعدة اللجنة فى مهمتها ، والوعد بدعم إنشاء الجامعة اليهودية فى القدس . كما توصلت اللجنة فى لقاءات خاصة مع هرارى باشا والبارون منشه وسوارس وموصيرى وقطاوى وغيرهم إلى إقناع هؤلاء بأن « الصهيونية قوة سياسية بالغة الأهمية ، تسندها الحكومة البريطانية بكل نفوذها وسلطتها » ومع ذلك فنجاح اللجنة فى هذه النقطة مازال سطحيا . وأضاف وايزمان أن زعماء اليهود الذين ذكر أسماءهم « ليسوا أسخياء فى التبرع للصناديق الصهيونية أو اليهودية ماداموا لايحصلون من وراء التبرع على جزاء علنى فى صورة ألقاب وخلافه . » ، وأن اليهود فى مصر منقسمون على أنفسهم . وأوصى وايزمان بأن يتولى فرع المنظمة الصهيونية فى مصر رأب الصدع فى الجبهة اليهودية وتوحيدها حول هدف واحد .

وفيما يتعلق بالقناة الثانية التى سار فيها عمل اللجنة ، أوضح وايزمان فى تقريره أن فى مصر لجنة خاصة للغوث برئاسة جاك موصيرى ، وأن المصلحة العامة اقتضت أن تتحد هذه اللجنة فى اللجنة الأخرى الجديدة ، التى تقرر أن تكون باسم « قسم الإغاثة التابع للجنة الصهيونية » . ومركزه القاهرة . أما فيما يتعلق بالقناة الأخيرة ، فقد أشار وايزمان فى تقريره إلى أن اللجنة سعت إلى مقابلة زعماء العرب المسئولين للتعرف على وجهات نظرهم ونواياهم تجاه اللجنة . وبالرغم من صعوبة ترتيب لقاءات مع هذه النوعية المسئولة من الزعماء العرب ، فقد قابلت اللجنة فارس نمر ، وسعيد شقير باشا ، وسليمان بك ناصف ، والدكتور شهبندر ، والشيخ كامل أفندى أبو كاسب . « كما قامت اللجنة بزيارة رسمية لجامعة الأزهر (لم تكن جامعة فى ذلك الوقت وإنما كانت تسمى « الجامع الأزهر ») وقابلت شيخ الأزهر « وقدمت له تبرعا بمبلغ مائة جنيه » (أبدى شيخ الأزهر اهتمامه بمشروع الجامعة العبرية ، كما ذكرت التقارير الإنجليزية فى ذلك الوقت) وأضاف وايزمان أن الزعماء العرب السابقين أبدوا اهتمامهم بفلسطين ، وماينتظرها من مستقبل فى ظل الانتداب البريطانى ، وهو مستقبل مالى أو اقتصادى ، كما فهم منهم . ولكنهم أبدوا تخوفهم من أن يستغل الصهاينة الفلاحين هناك ،

ويستولوا على أراضيهم . ولما طمأنهم وايزمان وعدوه بالمساعدة والتأييد ، وإن كان هو نفسه تشكك فى نواياهم بسبب ماوجده عندهم من شائعات معادية للصهيونية ، مثل طرد عرب فلسطين والانفراد بالأرض والبلاد . ولكنه لم يعدهم - فى النهاية - قوة لها نفوذها[١٠٦] .

لم تنقطع صلة وايزمان بمصر بعد ذلك على أى حال فأوراقه ورسائله التى طبعتها ونشرتها جامعة رتجرز الأمريكية بالاشتراك مع الجامعات الإسرائيلية فى(٢٥) مجلدا سنة(١٩٧٧)كثيرة الذكر لزياراته المتكررة لمصر وهو فى طريقه إلى فلسطين أو عودته منها إلى أوربا ، حتى تنصيبه رئيسا لإسرائيل . بل إن هذه الأوراق والرسائل تضم نصوص رسائله العديدة ، إلى زعماء الطائفة وقادة الصهيونية فى مصر .

ولنتوقف قليلا ، مرة أخرى ، عند بعض هذه الأوراق والرسائل ، لنرى الوجه الحقيقى للصهيونية ونشاطها فى مصر على لسان المسئول الأكبر عنها .

لقد جاء وايزمان إلى مصر فى (٢٢ نوفمبر ١٩٢٢) . وفى اليوم التالى كتب رسالة إلى زوجته فى لندن يقول فيها :

« رأيت ملايين الناس هنا - كالعادة - عربا ويهودا ، ولكن لاأحد من الإنجليز تقريبا . ولايوجد هنا مايشد الانتباه . فالمرء يخرج بانطباع عام هو أن المزاج العربى يتغير ، وأن الفترة الحرجة قد انتهت ... اليهود هنا كما هم ، أنت تعرفينهم ، لاشىء تغير ، وربما لن يتغير فيهم شىء أبدا . ومع ذلك فهم يقابلوننى دائما بترحاب حار وودى . وبعض الناس،مثل شيكوريل ومنشه،يصنعون شيئا من أجل فلسطين ، ولكنهم بشكل عام ليسوا نشطين أو متحمسين جدا ، ولاينفقون بسخاء . أما الذين يقومون بالعمل هنا ، كما فى كل مكان آخر ، فهم اليهود الروس »[١٠٧] .

ومن الواضح فى هذا النص أن وايزمان كان لايزال - بعد أربع سنوات من زيارة سنة (١٩١٨) - غير متحمس للنشاط الصهيونى على أيدى يهود مصر ، ويراه بطىء الإيقاع ، كسولا . كما أنه تحيز هنا صراحة لمواطنيه السابقين من اليهود الروس المهاجرين إلى مصر . فقد كانوا أنشط وأكثر تحمسا من زملائهم المستوطنين فى مصر منذ قرون .

عند عودة وايزمان من فلسطين ، فى هذه الرحلة مر بمصر ، وتوقف فى القاهرة فى (٢٦ ديسمبر ١٩٢٢) ، حيث ألقى - كما يقول محقق الأوراق - خطابا فى اجتماع صهيونى حضره (٢٠٠٠) من اليهود ، وشهد مأدبة كبيرة أقامها هؤلاء تكريما له[١٠٨] . وفى تلك الفترة كان قد توصل إلى تخفيض عدد اللجان والأشخاص المسئولين عن النشاط الصهيونى فى مصر وفلسطين فيما يتعلق بالاتصال بالعرب وزعمائهم . ورأى أن تقوم بهذه المهمة لجنتان ؛ إحداهما فى فلسطين تحت رئاسة الكولونيل اليهودى الإنجليزى فردريك كيش ، والأخرى فى مصر تحت رئاسة يوسف قطاوى . وقد ذكر فى رسالة له إلى جاستون ورمسر فى باريس فى فبراير (١٩٢٣) ، أنه قرر لهذا الغرض تأسيس صحيفتين بالعربية ، واحدة فى فلسطين يحررها المسيحيون العرب والأخرى فى مصر يحررها المسلمون الفلسطينيون المعتدلون ، بحيث يكون الهدف من الصحيفتين تجميع الرأى العام ، على مستوى المسيحيين والمسلمين الفلسطينيين ، حول التعاون مع الصهاينة . ثم أضاف أن الطائفة اليهودية فى مصر ، أبدت اهتماما جديا بهذا العمل ، « وشكل أصلان قطاوى باشا لجنة صغيرة مهمتها تحقيق الصلة بالزعماء العرب فى فلسطين ، ومصر ، وسوريا،الموجودين حاليا فى مصر . وقد وعدت اللجنة برصد (٢٠٠٠) جنيه فى السنة ، ووضعت بالفعل مبلغ (٧٠٠) جنيه استرلينى تحت تصرف الكولونيل كيش » مسئول المنظمة الصهيونية فى فلسطين[١٠٩] .

وفى (١٤ أغسطس ١٩٣٣) ، ذكر وايزمان فى رسالة إلى أوزموند جولد سميد ، أن حصيلة المنظمة الصهيونية فى مصر من التبرعات الخاصة بفلسطين ، بلغت (٣٠) ألف جنيه استرلينى .

وفى (٢٠ ديسمبر ١٩٣٣) ، ذكر فى رسالة إلى الفيكونت تشيلوود ، أن اليهود فى مصر أعدوا أماكن لإيواء اليهود الألمان الفارين من بطش النازية ، وأنهم توصلوا إلى اتفاق مع الحكومة المصرية ، حول السماح بدخول (٥٠) شخصا من هؤلاء الفارين ، بحيث يختارون من أصحاب المهن (أطباء ومدرسين ، الخ) ولايؤدى إيواؤهم إلى زيادة مشكلة البطالة المحلية ، وإن كانت الحكومة المصرية قد غيرت رأيها فجأة بسبب تدخل ممثل الحزب النازى فى القاهرة[١١١] . ومع ذلك فيبدو أن تغيير الرأى لم يدم طويلا على أى حال .

وفى (٢٧ ابريل ١٩٣٤) ، ذكر فى رسالة إلى هارون ألك فى القاهرة ، عقب إحدى زياراته ، أنه يرفق بالرسالة خريطة ، توضح مكان المستوطنة التى أسسها يهود القاهرة ، لليهود الألمان فى فلسطين .(وكان يهود مصر قد تبرعوا بالمال لإنشاء هذه المستوطنة فى ذلك العام ، وأصبح اسمها « كفار بيديديا »)[١١٢] .

وفى (٢٠ يوليو ١٩٣٤) ، ذكر فى رسالة إلى فيلكس واربورج فى نيويورك ، أن أصدقاءه من يهود مصر عبر السنوات الست عشرة الماضية ، قد جمعوا مبلغا كبيرا ، تبرعوا به للمعهد العلمى الذى يحمل اسمه فى فلسطين[١١٣] .

ومعنى هذا أن وايزمان أصبح – مع مرور الزمن – راضيا عن مساهمات يهود مصر الذين لم يكن يهمه ، كمسئول ، إلا أن يزيد نشاطهم الصهيونى ، وأن يزداد إنفاقهم على أهداف هذا النشاط . فقد أصبح هو نفسه رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية سنة (١٩٢١) . وفى أعقاب زيارته الأولى سنة (١٩١٨) ، ازدادت صلة أثرياء اليهود المصريين بالعمل الصهيونى . وبدأت أسماؤهم فى اللمعان على

مستوى التنظيمات الصهيونية ، ولاسيما يوسف أصلان قطاوى (١٨٦١ – ١٩٤٢) ، وفيلكس منشه (١٨٦٥ – ١٩٤٣) وجوزيف شيكوريل (١٨٩٠ – ١٩٣٧) . وقد تولى الأخير رئاسة فرع المنظمة فى مصر سنة (١٩٢١) . وفى تلك السنة ذاتها بلغ عدد الجمعيات الصهيونية فى القاهرة وحدها (٥) جمعيات ، وبلغ عدد دافعى رسوم العضوية فى الفرع الرئيسى (٢٠٠٠) عضو . ثم ارتفع العدد إلى (٦٧٢٤) نسمة فى الفترة من عام (١٩٢٢ إلى ١٩٣٣) ، واستمر ارتفاعه حتى بلغ العدد (٧٥٤١ نسمة ١٩٤٦) ،[١١٤]وهو رقم محدود بالطبع ، بالقياس إلى عدد اليهود فى ذلك العام .

وإذا كان وايزمان قد شكا فى رسالته الأولى إلى زوجته سنة (١٩١٨) من انقسام اليهود فى مصر ، فقد كان الصهاينة فى أوربا منقسمين أيضا . وقد انعكس هذا الانقسام على صهاينة مصر . ففى سنة (١٩٢٥) انشق على المنظمة الصهيونية العالمية أحد زعمائها البارزين ، وهو فلاديمير جابوتنسكى (١٨٨٠ – ١٩٤٠) الذى أسس فى باريس ماسماه « المنظمة الصهيونية التصحيحية » ، ثم أعقبها بعد عشر سنوات بالانسحاب نهائيا من الحركة الصهيونية الرسمية ، وتأسيس ماسماه « المنظمة الصهيونية الجديدة » ، وكانت هاتان المنظمتان متطرفتين فى مطالبهما الصهيونية وأساليب الكفاح الصهيونى[١١٥] . وكان جابوتنسكى نفسه ، قد أقام فى مصر فترة ، زمن الحرب الأولى ، قادما من تركيا التى بعثته بعض صحفها للكتابة عن الأحوال فى أوربا والشرق الأوسط . ولكن اليهود المهاجرين من فلسطين إلى الإسكندرية فى ذلك الوقت ، شجعوه على البقاء ، فساهم فى إنشاء البغالة الصهيونية التى شاركت فى القتال . ثم ساهم بعد ذلك – فى إنجلترا – فى إنشاء الفرقة اليهودية بالجيش البريطانى . غير أنه سرعان مارحل إلى باريس بعد الحرب ، حيث اجتذب إليه بعض شباب اليهود المتحمسين ، وكان منهم شاب جاء من مصر للدراسة ، يدعى ألبير ستراسلسكى . ولما عاد الأخير إلى مصر سنة (١٩٢٩) ، أسس فرعا للمنظمة التصحيحية ،

وجمع الكثير من شباب اليهود حوله ، ونجح فى الحصول على الدعم المادى من بعض الأسر اليهودية الثرية ، وإصدار صحيفة بالفرنسية اسمها « الصوت اليهودى » La vois Juive التى ظهرت أسبوعية فى الإسكندرية سنة (١٩٣١) وفى تلك السنة انتخب أعضاء المنظمة المنشقة فى مصر رئيسها جابوتنسكى ، ليمثل يهود مصر فى المؤتمر الصهيونى السابع عشر فى زيوريخ .

وفى سنة (١٩٣٣) ، انتخب ستراسلسكى ممثلا للمنظمة فى المؤتمر الصهيونى الثامن عشر فى براغ . ولحق بجابوتنسكى فى باريس حيث أصدر معه صحيفة باسم « صوتنا » . وعند انفصال جابوتنسكى النهائى من الصهيونية الرسمية ، وتأسيسه المنظمة غير الرسمية ، عاد ستراسلسكى إلى مصر مرة أخرى ، فأسس فرعا للمنظمة الجديدة محل فرع المنظمة التصحيحية ، وراح يبذل نشاطا كبيرا للترويج لها ، عن طريق المحاضرات والندوات والنشرات . ثم أسس لها فرعا فى الإسكندرية سنة (١٩٣٦) ، وآخر فى بورسعيد . وفى السنة التالية (١٩٣٧) ، جاء إلى الإسكندرية جابوتنسكى ، واجتمع بأعضاء المنظمة فى مصر ، وعقد مؤتمرا صحفيا فى (٥) يوليو ، بفندق سيسيل ، أعلن فيه استنكاره لفكرة تقسيم فلسطين ، التى أوصى بها تقرير لجنة بيل Peel الإنجليزية سنة (١٩٣٧) ، وإصراره على إقامة الدولة اليهودية على الأرض المحددة فى التوراة ، وضرورة فتح باب الهجرة إلى فلسطين . وبدأ فيلكس بن زاقين المحامى ، ورئيس فرع المنظمة فى الإسكندرية بالترويج لهذه المبادىء . كما شاركه فى ذلك ستراسلسكى ، رئيس فرع القاهرة .

يقول أحمد غنيم وأحمد أبو كف :

« ولعب فرع المنظمة فى مصر دورا هاما فى دعم السياسة الصهيونية ، التى كانت ترى أن تزويد الوطن القومى بالمال هو السبيل الوحيد لتحقيق حلم الصهيونية »[116] .

وعندما مات جابوتنسكى فى نيويورك سنة (١٩٤٠) قضى التنظيم الجديد للمنظمة أن يتبع فرع مصر مكتب القدس ، برئاسة أريبه ألتمان ، الذى بدأ فى التردد على مصر بعدها للإشراف على نشاط المنظمة . واضطر ستراسلسكى إلى الهروب إلى فلسطين عند اقتراب الألمان من مصر سنة (١٩٤٢) ، وساعدته على ذلك القوات البريطانية . ولكنه سرعان ماعاد بعد اندحار روميل فى « العلمين » ، وساعد ألتمان على جمع ألوف الجنيهات من أثرياء اليهود فى القاهرة والإسكندرية ، فضلا عن بيع العديد من قطع الأرض فى فلسطين لمن يرغب من يهود مصر . وفى سنة (١٩٤٤) ، بدأت خطب ألتمان فى الإسكندرية فى الحديث عن العنف واستخدام السلاح ، لتحقيق الأهداف الصهيونية إذا فشلت الوسائل السلمية . وعند ذلك – ولأول مرة – تنبهت سلطات الأمن إلى خطورة النشاط الصهيونى ، فاستدعى وكيلُ حكمدارية الإسكندرية الإنجليزى المسئول الصهيونى ، ونبهه – برغم إصراره على استخدام السلاح ومحاربة الإنجليز – إلى أنه « كموظف فى الحكومة المصرية ، لايعنيه إلا الابتعاد بيهود مصر عن التورط فى مشاكل اليهود الفلسطينيين ، حتى لايؤثر ذلك على علاقتهم بالشعب المصرى وحكومته »[117] .

غير أن ألتمان لم يهتز لكلمات المسئول الإنجليزى ، وإنما قام بتدعيم موقف ستراسلسكى ووظيفته ، فعينه ممثلا للمكتب السياسى لرئاسة المنظمة فى القاهرة ، مع كافة السلطات التى تخوله إدارة شئون المنظمة ونشاطها فى مصر . وأعاد « ستراسلسكى » تشكيل هيئة الفرع ، وبعث إلى الحاكم العسكرى ، يطلب الموافقة على التأسيس فى أواخر يونيو (١٩٤٤) . ولكن الحكومة المصرية لم توافق على إنشاء فرع لهذه المنظمة فى مصر ، وطلبت – على لسان وكيل الداخلية – إيقاف نشاط الفرع فى البلاد . ومع ذلك استمرت المنظمة فى نشاطها الذى تطور يوما بعد يوم ، حتى صدر أمر بطرد ستراسلسكى من البلاد فى (٢٨

مايو ١٩٤٥) ، بعد أن تكشفت صلات المنظمة بحادثة اغتيال اللورد موين ، وزير الدولة الإنجليزى لشئون الشرق الأوسط فى القاهرة فى (٦ نوفمبر ١٩٤٤) ، ومحاولة نسف مؤتمر الجامعة العربية فى الإسكندرية ، وتهريب الأسلحة والمفرقعات من المعسكرات الإنجليزية فى مصر إلى مركز عصابة شتيرن فى فلسطين .

ومع هذا كله لم يهدد وجود هذه المنظمة ونشاطها العنيف فى مصر وجود المنظمة الرسمية . فقد ظل رئيسها وايزمان على علاقات طيبة بأثرياء اليهود وعقلائهم من ناحية ، وبعض الساسة المصريين ، ولاسيما محمد محمود وعلى ماهر ، من ناحية أخرى ، فضلا عن علاقته الطيبة بولى عهد البلاد الأمير محمد على ، وبعض رجال الإنجليز فى مصر . وهذا ماتكشف عنه رسائله وأوراقه فى الفترة من (١٩٢٢ إلى ١٩٤٥) . وقد كان نشاطه ونشاط المنظمة الرسمية يركزان فى تلك الفترة على جمع الأموال من يهود مصر ، لمشروع الدولة ومستوطناتها فى فلسطين ، وتخفيف حدة المتطرفين الفلسطينيين والشوام الذين يعيشون فى القاهرة ، ومواجهة الدعاية المضادة والنشاط المستمر لأمين الحسينى ورجاله فى مصر .

فى سنة (١٩٢٢) توقع اليهود فى فلسطين أن يواجههم العرب بشىء من العنف فى أثناء احتفالاتهم بمولد نبيهم موسى . ويبدو أن وايزمان كان قد فاتح ممثل المنظمة فى القاهرة ، جاك هويفلر ، حول توجيه بيان من بعض أهل الثقة فى مصر إلى عرب فلسطين ؛ لحثهم على التزام الهدوء فى أثناء تلك الاحتفالات التى يشهدها اليهود من جميع أنحاء العالم . ويبدو – كما هو واضح من تعليق محقق أوراق وايزمان – أن هويفلر توصل إلى بعض أهل الثقة هؤلاء ، فبعث إلى وايزمان فى لندن فى أوائل العام يخبره عن عرض قدمه له أحمد زكى باشا ، مدير دار الكتب ، وصاحب لقب « شيخ العروبة » فيما بعد . ويتلخص العرض فى

إصدار نداء بدون توقيع إلى عرب فلسطين . وفى (٣٠ مارس ١٩٢٢) ، بعث هويفلر مرة أخرى إلى وايزمان ، يبلغه أن النداء أصبح ممكنا ، وأنه سيصدر عن رئاسة الماسونية فى مصر ، وأن الأمر يحتاج إلى ألف جنيه ، مقابل الحصول على توقيعات بعض الشخصيات على النداء . ورد وايزمان على الفور ببرقية فى (٣١) مارس هذا نصها : « ردا على برقيتيك فى الثالث والعشرين والرابع والعشرين أقول : إذا وافق إدر Eder على قبول العرض ، الذى اقترحه زكى ، دون التزام مالى فإنى أوافق . أما طلبك الخاص بالألف جنيه فيحتاج إلى إعادة نظر »[١١٨] .

أما إدر ، الذى ورد اسمه هنا ، فهو دافيد مونتاجيو إدر ، رئيس القسم السياسى بمكتب المنظمة فى القدس . وأما النداء الذى أشير إليه ، فقد صدر بالفعل فى القاهرة ، فى (٢ ابريل ١٩٢٢) بعنوان « نداء إلى أهالى فلسطين » موجها من « المحفل الأكبر الوطنى المصرى للبنائين الأحرار القدماء المقبولين » ، ووقعه إدريس راغب الأستاذ الأكبر للمحفل ، وهيئة مكتبه الماسونى . وقد أشارت إليه جريدة الأهرام والإيچبشيان جازيت وقتها ، واحتج عليه الفلسطينيون الماسونيون أنفسهم ، وكذلك بعض الماسونيين المصريين ، واضطر موقعوه إلى إصدار تصحيح واعتذار ، عما جاء فيه من عبارات تشير إلى أحقية اليهود فى فلسطين ، وإمكان مساهمتهم فى إنهاضها[١١٩] .

ولاندرى هل تم دفع مبلغ الألف جنيه المشار إليه ، إلى المحفل الماسونى الأكبر أم لا ؟، ولكن الذى ندريه فى هذا الموضوع ، أن الصهيونية استطاعت أن تمارس ضغوطها بالمال ، وبغيره ، فى سبيل أغراضها . وكانت النتيجة أنها أخرجت الماسونية عن مبدئها الذى تتشبث بإعلانه حول عدم التدخل فى شئون السياسة أو الدين .

لقد أشار وايزمان بعد ذلك،فى رسالة له إلى السير ألفرد موند فى (١٢يوليو ١٩٢٢) ، إلى المساهمات الإنجليزية فى القضية الفلسطينية ، وذكر له عبارة جاء

فيها : « إن زكى باشا ، وهو أديب مصرى مرموق ، قد وعد بالكتابة عن القضية العربية »[١٢٠] ، ولم يشر وايزمان إلى أنه على علاقة بأحمد زكى ، ولكن يبدو أن زكى كان على علاقة شخصية بالدكتور إدر ، الذى أشرنا إليه قبل قليل ، وأنه بعث إلى إدر برسالة فى (٢ أغسطس ١٩٢٢) أبدى له فيها عطفه على اليهود فى فلسطين ، ورجاءه أن يتم التفاهم بينهم وبين العرب[١٢١] . ومع ذلك غير أحمد زكى رأيه حول هذا الموضوع ، بعد أحداث حائط المبكى سنة (١٩٢٩) ، وأصبح من غلاة أنصار عرب فلسطين وأعداء الصهيونية . وليست هذه الواقعة التى ورد فيها اسمه هنا ، سوى دليل على محاولة الصهيونية تأسيس قوة ضغط ، أو « لوبى » لها فى مصر من المثقفين والسياسيين . وقد حاول وايزمان ورجاله – فيما يبدو – أن يؤسسوا هذه القوة ، ولكنهم – فيما يبدو أيضا – عجزوا عن التحكم الدائم فيها . فهناك إشارات كثيرة فى رسائل وايزمان إلى فارس نمر ، صاحب « المقطم » ، ومحرره على سبيل المثال . ولكن وايزمان كان يخشى صلاته وقربه من الإنجليز ، ويعده مصدر معلومات السفير البريطانى فى مصر بسبب مصاهرته للسكرتير الشرقى للسفارة[١٢٢] .

ومن جهة أخرى كان يهود مصر حريصين – فيما يبدو – على علاقاتهم بوايزمان ، وكانوا يطلعونه على سير الأمور أولا بأول ، ويتلقون طلباته باحترام . ومن ذلك أنه أرسل برقية فى (٢ يوليو ١٩٣٧) ، إلى ڤيلكس منشه بالإسكندرية ، ردا على برقية من الأخير حول زيارة جابوتنسكى للمدينة . وخطابته بها ، ثم سفره إلى القاهرة . وتقول البرقية : « إنه لايكف عن إحداث مشاكل كثيرة ، ولاسيما الآن . أشكرك . مع حبى »[١٢٣] وكتب إلى ألبرت سموحة وألفرد كوهين ورالف هرارى وابرامينو منشه و ا . موصيرى فى أوائل أبريل (١٩٣٨) ، يوصيهم بصديقه جيرشون أجرونسكى ، محرر صحيفة Palestine Post ، التى تصدر بالإنجليزية فى فلسطين . وكان قد اعتزم المجىء إلى القاهرة والإسكندرية بنية الحصول على دعم مالى لصحيفته[١٢٤] . وأرسل إلى يوسف قطاوى برقية فى (٥

مايو ١٩٣٨) مطمئنا إياه على سياسة المنظمة . وكان قطاوى قد أبدى له قلقه ، وقلق أبناء الطائفة إزاء مشكلة تقسيم فلسطين ، ومايكتب فى الصحف المصرية حول نية اليهود فى فلسطين الاستيلاء على الأماكن المقدسة ، وبناء معبد سليمان على أنقاض المسجد الأقصى . وكان نص برقية وايزمان : « أشكرك على برقيتك .

إننا نبحث ، بأسرع وقت ، عن أفضل السبل لتحقيق رغبتك . وسنوافيك فى الحال . التصريحات الرسمية تمت دراستها فى وقت كاف . أنت تعرف أن جميع الأماكن المقدسة ستكون تحت مظلة قانون الانتداب . تحياتى »[١٢٥] .

يبدو أن قلق الطائفة اليهودية المصرية ، كان مصدر إزعاج لوايزمان على أى حال . فقد كتب إلى مالكولم ماكدونالد ، أحد أفراد قوة الضغط الصهيونية فى لندن ، وشرح له الاضطرابات فى مصر وسوريا فى صيف (١٩٣٨) ، وعزاها إلى الفلسطينيين ومايشيعونه فى مصر عن مستقبل فلسطين . وكانت هذه الرسالة فى (١٢ يوليو ١٩٣٨) . وفيها قال : « لقد أصبحت الطائفة اليهودية فى مصر مهددة . وقد طلبت إلىَّ تصريحا أنكر فيه أى رغبة من جانب الزعماء الصهاينة فى المساس بالأماكن المقدسة ، المسلمة والمسيحية . وقد فعلنا – بالطبع – كل مافى استطاعتنا لدحض هذه الأكاذيب »[١٢٦] .

قبل أشهر من ذلك التاريخ ، أو على التحديد فى (٧ فبراير ١٩٣٨) ، قابل وايزمان الأمير محمد على – ولى العهد – فى القاهرة ، وشرح له الموقف فى فلسطين ، ووجد منه تفهما للصلح بين العرب والصهاينة ، وموافقة على تقسيم فلسطين . واتفق الاثنان فى هذا اللقاء على ضرورة زيادة نسبة المعتدلين فى فلسطين والعمل من خلال الإنجليز . ووعده وايزمان بنقل آرائه إلى المسئولين فى لندن . وقد أشار وايزمان إلى هذه المقابلة فى رسالة له وجهها إلى اللورد هاليفاكس فى (١٤ مارس ١٩٣٨) ، بقوله : « أجريت محادثة طويلة فى أثناء وجودى بالقاهرة مع الأمير محمد على ، ووجدته معتدلا وحكيما فى وجهة نظره حول المشاكل

الفلسطينية »[١٢٧] ، كما أشار فى الرسالة ذاتها إلى عدم تعاون مايلز لامبسون (اللورد كيلرن) ، السفير البريطانى فى مصر ، واتهمه بأنه « يتلقى معلوماته من سكرتيره الشرقى ، المستر سمارت ، زوج ابنة السيد نمر العربى السورى ، محرر المقطم ، وصهر جورج أنطونيوس الصديق الشخصى للمفتى »[١٢٨] ، كما أخذ عليه تشجيعه للعرب .

وقد كانت السنوات من (١٩٣٦ إلى ١٩٣٩) ، من أصعب مراحل الصهيونية ونشاطها فى مصر . فقد شهدت هذه السنوات ذروة العداء النازى لليهود فى ألمانيا ، وغليان الوضع العربى فى فلسطين . كما شهدت تحركات دائمة من جانب أمين الحسينى – مفتى القدس – ، ورجاله فى مصر ، وتطور اهتمام بعض الساسة والمثقفين المصريين بالقضية الفلسطينية ، ولاسيما مكرم عبيد ، ومحمد على علوبة من الساسة ، وأحمد زكى (شيخ العروبة) وأحمد حسن الزيات ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، من المثقفين . وكان لهذين العاملين الأخيرين – بصفة خاصة – أثرهما فى الصحافة المصرية ، التى أبدت تعاطفا واضحا مع عرب فلسطين – إلى حد مهاجمة اليهود والصهيونية ، على الرغم من الانشغال العام لهذه الصحافة بالقضية الوطنية المحلية ، والمعاهدة مع الإنجليز .

وكان من الطبيعى ، فى ظل هذه الظروف ، أن يزداد تحرك المنظمة الصهيونية العالمية الرسمية – وعلى رأسها وايزمان – لمواجهة آثار هذه التطورات فى بريطانيا من ناحية ، وفى مصر من ناحية أخرى . وهذا ماتصوره أوراق وايزمان ورسائله فى تلك الفترة . فقد كان يتلقى المعلومات بنفسه من خلال زياراته المتكررة ، أو من خلال رجاله النشطين ، ثم يبلغها ، أولا بأول ، إلى المسئولين فى لندن ورجال « اللوبى » الصهيونى مشفوعة برأيه ، والإصرار على مطالبه . ونجح فى سنة (١٩٣٨) ، فى مقابلة محمد محمود رئيس الوزراء (١٩٣٨ – ١٩٣٩) ، وعلى ماهر رئيس الديوان الملكى ، ورئيس الوزراء بعدها (١٩٣٩ – ١٩٤٠) ،

واستطاع أن يحصل منهما على وعد بالعمل على تخفيف حدة التطرف الفلسطينى ، وزيادة فرص الاعتدال هناك . ولكن الوعد كان مشروطا بالحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين ، وهذا مالم يوافق عليه « وايزمان » . ومع ذلك ترك باب العلاقة مع الساسة المصريين مفتوحا ، منذ ذلك التاريخ حتى صدور قرار التقسيم سنة (١٩٤٧) .

كان وايزمان – من جهة أخرى – حريصا على تتبع نشاط محمدعلى علوبة ، أحد أقطاب حزب الأحرار الدستوريين ، الذى ارتبط بالقضية الفلسطينية ، منذ بداية الثلاثينيات ، وشارك فى بعض نشاط أمين الحسينى ومؤتمراته الإسلامية ، وحملة التبرعات من أجل إنشاء جامعة إسلامية فى القدس . وكان علوبة قد دعا إلى عقد مؤتمر إسلامى عربى ، لنصرة القضية الفلسطينية فى (٧ اكتوبر ١٩٣٨) . ووجه الدعوة إلى عدد كبير من الدول العربية والإسلامية أو ذات الأقليات الإسلامية ، ووافقت على الاشتراك عشر دول ، منها : الهند ، ويوغوسلافيا ، واليمن ، ومراكش ؛ والصين . وقد حاولت المنظمة إيقاف المؤتمر بكل الطرق ، وأهمها الضغط على المسئولين الإنجليز ، وأعضاء « اللوبى » الصهيونى . وكان وايزمان شديد الانفعال والغضب فى مخاطبة هؤلاء ، حتى إنه استعدى الإنجليز على المؤتمر ، بدعوى أنه « يحظى – طبقا لمعلوماتنا – بالمساندة الإيجابية من عملاء النازية المعروفين » ، وأن علوبة « مغامر معروف ، يحاول الاستعراض فى سبيل العودة إلى المسرح السياسى ، عن طريق المنبر الذى قد يتيحه له هذا التجمع »[١٢٩] .

وقد أدى ذلك النشاط الصهيونى المضاد للنشاط الفلسطينى فى مصر ، إلى نوع من الضغط النفسى على اليهود المصريين ، من غير الصهاينة المتحمسين ، مثل قطاوى رئيس الطائفة اليهودية فى ذلك الوقت . فقد أبرق إلى وايزمان فى (٢٧

يناير ١٩٣٩) ، يطلب إليه عدم التشدد فى موقفه وإيجاد روح ودية أكثر مرونة ؛ خوفا – فى الغالب – من انعكاس هذا التشدد على وضع اليهود فى مصر . ومع ذلك رد عليه وايزمان برسالة فى (٣٠ يناير ١٩٣٩) هذا نصها :

« عزيزى قطاوى باشا :

أشكرك على برقيتك . وأحب قبل كل شىء أن أؤكد لك ، أننا لسنا الذين نخلق المشاكل ، وإنما – على العكس – يخلقها العرب الذين يبغون تدمير وضعنا فى فلسطين . وأنت تعلم جيدا أن العرب يتمتعون بالتأييدين المعنوى والعملى من الدول ذات الأنظمة الشمولية (يقصد ألمانيا وإيطاليا) ، وأيا كان مصير الموقف الراهن فهم يتوقعون حدوث تغييرات جذرية من جانب الحكومة البريطانية ، فى الانتداب والسياسة الإنجليزية فى فلسطين على السواء . أما كل مانريده نحن فهو أن نستمر فى مشروعنا ، وليس لنا مطلب آخر عداه ، ولايوجد فى الحقيقة أى مطلب ذو طبيعة متطرفة . ونحن على استعداد للتعاون مع العرب – على قدر المستطاع – ومع الإنجليز سواء بسواء من أجل إعادة ميلاد فلسطين .

مع رجاء قبول أحر تحياتى[١٣٠]» .

ومن الواضح فى مضمون هذه الرسالة وصياغتها أنها توحى بالمراوغة والغموض ، فوايزمان كان يعرف مقدما أن رسالته مطلوبة لتهدئة القلق اليهودى فى مصر ، ولهذا لجأ إلى العبارات العمومية المطاطة المخدرة . فقد سبق أن أشرنا ، قبل قليل ، إلى أنه رفض فكرة الحد من الهجرة اليهودية إلى فلسطين . فضلا عن أنه كان يتمسك بفكرة الوطن الواحد المستقل لليهود ، ولامانع بعد ذلك أن يتعاون مع العرب أو الإنجليز .

كانت هذه الرسالة هى آخر رسائل وايزمان إلى قطاوى على أى حال . فقد مات الأخير سنة (١٩٤٢) ، فى الوقت الذى انشغل فيه وايزمان وبريطانيا بالحرب . ومع ذلك تكشف رسائل وايزمان عن أن صلته بالساسة المصريين ممن

سماهم بالمعتدلين ، ولاسيما على ماهر ، لم تنقطع حتى سنة (١٩٤٦) . ولم يكن رأى على ماهر يخرج – كما صوره وايزمان نفسه – عن « صعوبة التفاوض على أساس قيام الدولة اليهودية ، فوق جميع أراضى فلسطين » ، وإمكانه على أساس فكرة التقسيم التى طرحتها بريطانيا منذ صدور تقرير لجنة بيل فى سنة (١٩٣٧)[١٣١] .

نعود بعد هذا إلى إشارات وايزمان السابقة إلى النشاط النازى فى مصر خلال تلك السنوات (١٩٣٦ – ١٩٣٩) ، فنلاحظ أنه كان نشاطا محدودا بكل المقاييس بحكم الوجود الإنجليزى فى مصر . ومع ذلك كان الصهاينة يضخمونه ، ويشكون منه على الدوام . ولم يتوقف أنصارهم فى مصر عن محاربته بشتى الطرق . ففى تلك السنوات كونوا فرعا للعصبة الدولية المعادية للعنصرية والعداء للسامية (LCIA) ، وكان من أعضائها إميل نجار سفير إسرائيل فى روما فيما بعد ، وبيلبول سفيرها فى أديس أبابا ، وموريس مزراحى ، مؤلف كتاب « مصر ويهودها »[١٣٢] ، الذى أشار إلى واقعة من وقائع محاربة النازية على أيدى الصهاينة . وتتلخص هذه الواقعة فى أن الصحفى الشاب موريس فرجون ، قام فى تلك الفترة بطبع وتوزيع منشور عن هتلر وأصله ، وكيف كانت أمه ساقطة محترفة ونما الخبر ، ووصل المنشور إلى علم السفارة الألمانية فى القاهرة ، فطلبت إلى السلطات المصرية محاكمته وقدم فرجون بالفعل إلى المحاكمة ، وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر[١٣٣] .

وفوق هذا كله نجحت الصهيونية فى مصر فى استغلال عاملين من أخطر عوامل الدعاية ، وهما الدين والإعلام .

أما الدين فقد حرصت الصهيونية الحديثة منذ ظهورها فى أوربا على التمسح بالدين ، ورد فكرة الوطن القومى إليه . وساهم كثيرون من حاخامات اليهود فى أوربا فى التنظير لها . فلما بدأت فى العمل المبكر بمصر سعت إلى اكتساب عطف

الحاخامات ، ولاسيما بعد صدور وعد (بالفور سنة ١٩١٧) . فمنذ ذلك التاريخ بدأ الحاخامات اليهود فى الإسكندرية والقاهرة يتصدرون احتفالات الصهاينة واجتماعاتهم ويباركونها . وكانوا يتنقلون بحرية بين مصر وفلسطين . بل إن بعضهم ترك منصبه فى مصر ليعمل فى فلسطين . ففى سنة (١٩٢٦) غادر الإسكندرية الحاخام أبيكزير ، حيث عمل قاضيا بمحكمة الاستئناف الملية فى القدس . وبعدها ترك اثنان من زملائه فى الإسكندرية عملهما وهاجرا إلى إسرائيل بعد قيامها ، وهما توليدانو وفنتورا . وأصبح الأخير وزيرا للديانات والطوائف فى أول وزارة إسرائيلية[١٣٤] .

وقد كان حاييم ناحوم ، أطول الحاخامات عهدا فى مصر ، وأكثرهم نشاطا حتى وفاته سنة (١٩٦٠) عن (٨٨) سنة . وقد عمل حاخاما أكبر ليهود تركيا فى الفترة من (١٩٠٨ إلى ١٩٢٠) . واشترك فى الوفد التركى الذى حضر مؤتمر لوزان سنة (١٩٢٢) . ووكلت إليه الحكومة التركية فى ذلك العام مهمة تحقيق التفاهم مع بريطانيا ، وتحسين العلاقات بين البلدين ، وهى مهمة شجعها الصهاينة ووجدوا فيها فرصة للحصول على موافقة تركيا على الخطة الصهيونية إزاء فلسطين . وقد ساعده وايزمان فى هذه المهمة ، لهذا الهدف ، وأرسل إليه فى باريس – حيث وصل من تركيا – تأشيرة دخول للندن فى نوفمبر (١٩٢٢)[١٣٥] . ولما انتهت المهمة غادر ناحوم تركيا (التى حصل فيها على لقب « افندى ») ، وجاء مصر فأصبح حاخاما لليهود ابتداء من سنة (١٩٢٥) . وكان – فى موقعه الجديد – كثير التردد على فلسطين . وكانت الصحف المصرية تشير إلى زياراته فى كثير من الأحيان ، ومنها « السياسة الأسبوعية » التى نشرت لمراسلها فى القدس فى (١٤ يوليو ١٩٢٨) بعنوان « حاخام مصر الأكبر فى القدس » خبرا جاء فيه : إن ناحوم زار « مركز اللجنة الصهيونية ، وجمعية رأس المال القومى ، وغيرها من الجمعيات الصهيونية » ، وخطب فى حفل أقيم له فحث اليهود على « بث الدعاية لتوحيد جميع الفرق اليهودية ... واقترح أن ينشأ فى

الجامعة العبرية فرع لتعليم الربابين الذين يتشرّبون مدة وجودهم هنا حب أرض إسرائيل . وهكذا فإنهم عند عودتهم إلى بلادهم ، يبثون الدعوة لإنشاء الوطن القومى اليهودى . وقد وعد فى نهاية خطبته أن يحبب يهود مصر بفلسطين »[١٣٦]

على الرغم من تعيين ناحوم عضوا بمجمع اللغة العربية بعد ذلك ، واشتغاله بالنشاط الفكرى والثقافى ، لم يتخل عن دوره السياسى فى تشجيع الصهيونية ونشاطها فى مصر .

وأما الإعلام ، فقد حرصت الصهيونية الحديثة أيضا على تجنيده فى خدمة أهدافها . وإذا كانت الصحافة هى أبرز وسائل الإعلام فى ذلك العصر ، فقد حرصت الصهيونية فى مصر منذ البداية على أن يكون لها صوتها المعبر عنها ، فأنشأت فى القاهرة والإسكندرية صحفا بالعربية والفرنسية . وكان من أوائل هذه الصحف صحيفة « الرسول الصهيونى » Le Messager Sioniste التى ظهرت فى الإسكندرية سنة (١٩٠١) ، وصحيفة « مصر » بالعربية ، التى ظهرت فى القاهرة سنة (١٩٠٤) . وكان أهم هذه الصحف صحيفة « إسرائيل » التى ظهرت بالعربية فى القاهرة سنة (١٩٢٠) ، وكان صاحب امتيازها ، موسى قطاوى ، ومحررها ألبرت موصيرى . ومن الواضح أن ظهور اسم قطاوى هنا ، كان يرجع إلى صدور الصحيفة عن الطائفة اليهودية التى كان يرأسها هو فى ذلك الوقت . وقد ظلت هذه الصحيفة توالى الصدور ، حتى توقفت بعد أشهر من وفاة محررها فى مارس (١٩٣٣) . وبعدها ظهرت صحيفة « الشمس » سنة (١٩٣٤) ، وتولاها سعد يعقوب مالكى ، مدير مدارس جرين اليهودية ، وكان يحمل جنسية إيطالية . وقد واصلت رسالة زميلتها السابقة حتى عطلتها الحكومة فى (١١ يونيو ١٩٤٨) ، بعد شكوى رسمية من الجامعة العربية فى القاهرة[١٣٧] .

في هذه الصحف وغيرها انصرفت الدعاية الصهيونية إلى تصوير أهدافها ، فى صورة تعاون بين اليهود والعرب ، من أجل النهوض بالوطن المشترك ، وتجديد التعاون القديم بين العنصرين . كما ذكرت صحيفة « إسرائيل »[١٣٨] ، التى كانت تنشر أخبار الصهيونية العالمية ، وإعلانات الشركات الصهيونية فى فلسطين لبيع الأراضى . ولكن هذه الأهداف غير المحددة ، مالبثت أن تحددت بعد ذلك ، حتى استطاعت باحثة فى هذه الصحف أن تلخص رسالتها فى توحيد اليهود ولم شملهم ، والدعوة للوطن القومى بين يهود الشرق ، وحثهم على ضرورة تأييده ودعمه بشتى الوسائل ، والتأثير فى الرأى العام المصرى والعربى ، بغية إقناعه بأهمية التفاهم والتعاون مع اليهود ، من أجل تحقيق الحلم وإنشاء الدولة اليهودية[١٣٩] .

ومن الملاحظ أن الصحف التى أنشأها اليهود فى مصر ، (منذ ١٨٧٧ حتى ١٩٤٨) ، تصل إلى نحو (٥٠) صحيفة ، معظمها بالعربية ، وأن من بينها نحو (١٠) صحف على الأقل تناصر الصهيونية وتدعو إليها صراحة ، وإن كان معظم هذه الصحف العشر قد صدر بالفرنسية . ومن الملاحظ أيضا أن هذه الصحف مجتمعة ، كانت تتابع الصحف المصرية بالتلخيص والمناقشة والتسجيل ، لما يدور على صفحاتها من أمور ، تخص اليهود عامة وحلمهم القومى خاصة .

تقول صحيفة « الشمس » فى فترة (١٩٣٦ - ١٩٣٩) التى سبق أن أشرنا إليها : « ليس من مصلحة المصريين ، أن تكون المسألة الفلسطينية موضع مناقشات حزبية ، حيث إن لدى مصر كثيرا من المسائل ، التى تتطلب بذل الجهود لتجعل من استقلالها المسطور فى معاهدة (١٩٣٦) حقيقة ملموسة ... وأنه بمقدور مصر أن تعطف على فلسطين بالطرق السياسية . أما أن تغدو مسألة فلسطين سببا من أسباب النضال الحزبى فليس فى ذلك مصلحة مصر ، لأن مصلحة البلاد تقتضى إبعاد المسائل الخارجية عن الشهوات الحزبية ؛ حتى لاتظهر مصر أمام الدول متفرقة الكلمة ، لاتعرف الاتحاد على مسألة بعيدة عنها »[١٤٠] .

هذا النص ذاته دليل آخر على اهتمام يهود مصر بالسياسة التى تخصهم ، وهذا أمر طبيعى .

وتقول سهام نصار :

« وفى ميدان تشجيع العلاقات الثقافية ، قام لوسيان شوتو ، نائب رئيس الجمعية الصهيونية بالقاهرة ومارك أوبنهايم ، مدير بنك الكيرن كايمت ، (الصندوق القومى الإسرائيلى) ، بتوجيه دعوة إلى أحمد زيور باشا ، (رئيس الوزراء فى سنة ١٩٢٥) ، نيابة عن اللجنة الصهيونية التنفيذية بلندرة ، لحضور حفل افتتاح الجامعة العبرية (سنة ١٩٢٥) . وقد لبت الحكومة المصرية الدعوة وأوفدت أحمد لطفى السيد ، مدير الجامعة المصرية ممثلا عنها . وقد أشادت مجلة الاتحاد الإسرائيلى بهذه الخطوة ، واعتبرتها أفضل وسيلة لتعزيز التعاون الثقافى بين البلدين »[١٤١] .

لقد كان تعزيز التعاون بين البلدين ، مصر وفلسطين ، فى جميع المجالات من المطالب الأساسية ، التى سعت إليها الحركة الصهيونية العالمية والمحلية ، لأن فى هذا التعاون ردعا للتطرف الفلسطينى فى ذلك الوقت ، ودليلا على حسن نية الصهيونية من ناحية ، ومصر بصفتها أكبر البلاد العربية من ناحية أخرى .

ولم يكن الإعلام الصهيونى يقتصر على صحفه الخاصة ، أو التى يصدرها يهود مصريون ، وإنما كان يسعى فى المحل الأول إلى اكتساب عطف الصحافة المصرية .

تقول سهام نصار أيضا :

« كشفت لنا صحيفة مصر الفتاة عن أن اليهود أنشأوا مكتبا فى الثلاثينيات من هذا القرن مهمته ، فى بادىء الأمر ، أن يراجع جميع الصحف والمجلات المصرية ، حتى إذا وجد فيها كلمة واحدة تمس اليهود ، أو صالح اليهود ؛ فمثل

هذه الجريدة يلفت نظرها ، فإن عادت إلى انتقاد اليهود ، قطعوا عنها جميع إعلانات المتاجر اليهودية . وبهذا الأسلوب ضمن اليهود ألا تقال كلمة ضدهم . ولكن لم يقف المكتب اليهودى عند هذا الحد . فقد ذهب إلى أبعد من ذلك . إذ راح يطلب إلى الجرائد ، أن تكتب بما يتفق مع سياستهم . وفى مقابل ذلك يزيدون فى كمية الإعلانات للجريدة ، ويقدمون لها إعانات مالية ؛ كلما زادت فى مناصرتهم »[١٤٢] .

ومهما كانت المبالغة فى هذه الرواية ، فقد أيد مضمونها بعض ثقاة الكتاب والصحفيين المصريين ، مثل المازنى[١٤٣] ، ومحمد حسين هيكل [١٤٤] وهو مضمون يتلخص فى استخدام الإعلان والمصروفات السرية ، كسلاح فى توجيه الدعاية . وهذا السلاح ذاته ، اعترف به وايزمان فى رسالة بعث بها من لندن ، فى (١٣ مارس ١٩٣٨) ، إلى صحفى لبنانى يدعى نجيب صفير ، كان يعيش فى باريس ويدعو للقضية الصهيونية . ويبدو أنه طلب إلى وايزمان مبلغا أكبر مما اتفقا عليه ، فرد عليه الأخير بلهجة محذرة من طلب المزيد[١٤٥] .

نستطيع ، مما سبق ، أن نخرج بنتيجة مؤداها ، أن الصهيونية العالمية قد حولت مصر ، فى الفترة من (١٩١٧ إلى ١٩٤٨) ، إلى مركز من أخطر مراكزها ، إن لم يكن أخطرها ، بعد المركز الذى صنعته من فلسطين فى تلك الفترة .

لقد كانت مصر – دون أن تدرى أو تريد – معسكر الانتقال للصهيونية العالمية ، والمحطة الرئيسية على الطريق إلى فلسطين . ولولا جهود الصهيونية على أيدى زعمائها وأعوانها فى مصر ، لما استطاعت الصهيونية العالمية تأمين ظهر المستوطنين اليهود فى فلسطين ، وضمان حركة الهجرة إليها ، وتخفيف حدة التوتر العربى ، داخل فلسطين وخارجها ، وأخيرا إعلان قيام دولة إسرائيل .

إذا كانت الصهيونية قد استأثرت بالجانب اليمينى فى النشاط السياسى لليهود فى مصر ، فقد استأثرت الشيوعية بالجانب اليسارى فى هذا النشاط . وإذا كان النشاط الصهيونى قد بدأه وطوره اليهود المهاجرون من أوربا ، أى الغربيون ، أو الإشكنازية ، فإن النشاط الشيوعى قد بدأه وطوره هؤلاء أيضا ، على الرغم من تناقض النشاطين ، وتعارض الفكرتين اللتين يستندان إليهما . فالصهيونية فكرة قومية ، والشيوعية فكرة معادية للقومية . وإذا كان النشاط الصهيونى قد بدأ قبل ظهور الفكرة الصهيونية السياسية فى أوربا ، فإن هذا النشاط فى مصر بدأ فور ظهور الفكرة السياسية ، فى حين لم يظهر النشاط الشيوعى فى مصر قبل عشرينيات هذا القرن ، أى أنه لم يظهر مع ، أو بعد ظهور ، الماركسية فى أوربا .

وإذا كنا ندرى أسباب قيام النشاط الصهيونى ، وازدهاره على أيدى اليهود فى مصر ، فلسنا ندرى – على وجه اليقين – أسباب قيام النشاط الشيوعى على أيديهم أيضا . فلم يعتن أحد من الباحثين ببحث هذه النقطة أو توضيحها . وليس أمامنا سوى التكهن من واقع المادة التاريخية المتاحة .

هل كان اليهود الذين نقلوا هذا النشاط من أوربا يريدون صرف أنظار جماهير اليهود فى مصر عن الصهيونية ؟

هل كان هؤلاء شديدى الاندماج فى المجتمع المصرى ، بحيث أدركوا أن حل مشكلة الفقر لاسبيل له إلا الشيوعية ؟

هل كان التفكير فى الشيوعية عندهم نوعا من الترف النظرى ؟ أو بمعنى أوضح : هل كان مجاراة لموضة التفكير فى الشيوعية ، التى سادت بين المثقفين فى أوربا الغربية فى فترة مابين الحربين ؟

هل أراد هؤلاء أن يجعلوا مصر حقل تجربة بالنسبة للشيوعية مختلفا عن الحقول الأوربية ؟

الجواب : لاندرى على وجه اليقين ، ولكن الذى ندريه أن هذه الأسئلة ليس من المستبعد أن تكون قد دارت ، كلها أو بعضها ، فى أذهان اليهود ، الذين نقلوا النشاط الشيوعى إلى مصر . وندرى أيضا أن هؤلاء لم يكونوا مندمجين فى المجتمع المصرى ، ولاسيما الأوائل منهم ، ولاكانوا يجيدون لغة المجتمع الذى خاطبوه . بل ندرى أن النشاط الشيوعى كان محظورا تماما ، على عكس النشاط الصهيونى ، ومع ذلك خاطر أصحابه بممارسته .

ولكن كيف بدأت تجربة اليهود فى مصر مع الشيوعية ؟

لعل أقدم تنظيم من هذا النوع فى مصر ، هو ماسمى باسم « الحزب الاشتراكى » ، الذى ألفه « جوزيف روزنتال » ، فى الاسكندرية ، وقصر عضويته على اليهود والأجانب فى المدينة . وكان تأسيسه فى أوائل العشرينيات . ولكنه لم يبدأ فى الاحتكاك بالمصريين إلا بعد عام . وكان قد سمع به فريق من الشباب المصريين فى القاهرة ، وهم حسنى العرابى ، ومحمد عبدالله عنان ، وسلامة موسى ، وعلى العنانى . وكان هؤلاء الأربعة يتراوحون فى التفكير بين الماركسية ، والفابية على طريقة برناردشو ، والاشتراكيين الإنجليز (سلامة موسى) ويبدو أن الأربعة لفت انتباههم حزب روزنتال ، فاتصلوا وتوصلوا إلى المشاركة معه فى تنظيم جديد ، فوافق روزنتال ، وتألف من هؤلاء وفريقه من اليهود والأجانب « الحزب الاشتراكى المصرى » فى أغسطس (١٩٢١) . ولكن هذا الحزب الاشتراكى كان ماركسى المضمون والشكل ، وإن كان برنامجه مزجا « بين شيوعية النظرة والتحليل والأهداف ، وفابية الوسائل » على حد قول عبد العظيم رمضان[١٤٦] . ومع ذلك لم يعش الحزب طويلا . فقد أصابه الانشقاق بسرعة ، وخرج منه المعتدلون مثل سلامة موسى ، الذى قال : « لم يتسع صدر روزنتال لاعتدالنا »[١٤٧] ، ثم تغير اسم الحزب بعد نحوعام إلى « الشعبة المصرية للدولية الشيوعية » ، وظل تحت قبضة روزنتال ورفاقه .

ومع ذلك لم يكد ينتهى عام (١٩٢٢) ؛ حتى أصاب الحزب انشقاق آخر راح ضحيته روزنتال نفسه ، بسبب معارضته للانضمام إلى الكومنترن الشيوعى . واستولت عليه العناصر الشيوعية الموالية للاتحاد السوفييتى بعد ذلك . وبدأت الحكومة فى مطاردته حتى اعتقلت معظم أعضائه فى (٥ مارس ١٩٢٤) . وبعدها مال اليهود إلى عدم الاحتكاك بالمصريين حتى لايقعوا تحت طائلة المطاردة ، حتى إن حكومة الوفد قبضت على التنظيم الجديد ، المتبقى من الفلول القديمة فى (٨ مايو ١٩٢٨) ، ولم يكن من بينهم عضو مصرى واحد .

فى سنة (١٩٣٤) ، أسس بول جاكو دى كوب « رابطة أنصار السلام » ، وكانت تضم عددا من اليهود ، من بينهم هنرى كورييل ومارسيل إسرائيل ؛ فضلا عن بعض المصريين . وفى سنة (١٩٣٨) ، انشق كورييل عن الرابطة ، وكون « النادى الديموقراطى » . كما انشق آخرون من النادى الأخير ذاته ، مثل إسرائيل الذى كون « منظمة تحرير الشعب » ، ومن هذه المنظمة تفرعت بعض الجماعات الصغيرة ، مثل جماعة « الفن والحرية » ، وجماعة « الخبز والحرية » اللتين تكونتا فى سنة (١٩٣٩) . وكانت الجماعة الأولى واقعة تحت تأثير التيار التروتسكى ، نسبة إلى ليون تروتسكى ، الذى انشق على ستالين وهرب من الاتحاد السوفييتى سنة (١٩٢٩) . كما كانت تضم بعض المصريين الشباب ، وعلى رأسهم جورج حنين ، ورمسيس يونان وأنور كامل ، الذين أصدروا فى يناير (١٩٤٠) مجلة باسم « التطور » لم تعش أكثر من خمسة أعداد ، وقد نشر سلامة موسى فى مجلته « المجلة الجديدة » أسماء جماعة « الفن والحرية » . ومنها يتبين أن أغلبية أعضائها من اليهود[١٤٨] .

وبعد الحرب الثانية نشأت بعض التنظيمات الشيوعية التى حركها اليهود ، وأهمها « جماعة الفجر الجديد » ، التى أصدرت مجلة بهذا الاسم رأس تحريرها أحمد رشدى صالح ، وضمت من اليهود صادق سعد ، وريمون دويك ، ويوسف

درويش . وصدرت فى (١٦ مايو ١٩٤٥) ، واستمرت فى الصدور حتى أوقفها إسماعيل صدقى فى يوليو (١٩٤٦) . وفى سبتمبر (١٩٤٦) ، تحولت هذه الجماعة إلى تنظيم « الطليعة الشعبية للتحرر » ، ثم تغير اسمها إلى « طليعة العمل » ، وأخيرا « حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى » سنة (١٩٥٧) .

غير أن النادى الديموقراطى الذى كونه كورييل ، كان قد انقسم بدوره سنة (١٩٤٢) إلى تنظيمين :

الحركة المصرية للتحرر الوطنى بقيادة هنرى كورييل ، وإيسكرا (كلمة روسية معناها الشرارة) ، بقيادة هليل شوارتز . ولكن هذين التنظيمين مالبثا أن اتحدا بعد الحرب ، فى سنة (١٩٤٧) ، وأصبح اسمها الجديد : « الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى » ، أو « حدتو » كما كان يرمز لها . وظل كورييل مسيطرا على هذه الحركة ومموِلا لها ، حتى قبض عليه مع زميله شوارتز فى صيف سنة (١٩٥١) ، وتم ترحيلهما إلى الخارج[١٤٩] .

وليس من السهل فى الحقيقة أن نستشف أشياء واضحة عن طبيعة دور اليهود فى هذا النشاط الشيوعى ، لأن النشاط ذاته كان سريا فى معظم مراحله من ناحية ، ولأن العناصر المصرية فيه كانت غير قيادية من ناحية أخرى ، فضلا عن أن هؤلاء وأولئك لم يسجلوا هذه التجربة تسجيلا دقيقا حتى الآن . وقد يتبادر إلى الذهن سؤال مثل : هل كانت هناك صلة بين الشيوعية والصهيونية على أيدى اليهود ؟

على أى حال ، لم يهتم بمثل هذا السؤال ، سوى رجال الأمن فى مصر . وقد ظهرت لهؤلاء محاولتان للإجابة ، إحداهما لأحمد مرتضى المراغى وزير الداخلية – ومحافظ القاهرة قبلها – فى أواخر عهد فاروق ، والأخرى لحسن المصيلحى رئيس قسم مكافحة الشيوعية حتى نهاية الستينيات . فقد ذكر المراغى

أن هنرى كورييل كان « ينفق بسخاء على منظمته ، ويعمل تحت ستار التجارة مع إسرائيليين هما أرنولد ريشفيلد ، واسمه الأصلى هارون ريشفيلد ، وسيمون سيتون . وقد قدما من تل أبيب ، حيث كانا يعملان عام (١٩٤٦) سائقى سيارة . ولهما زميل ثالث هو روبرت روبنسون . وكان حضور الثلاثة إلى مصر بتكليف من متزعمى الحركة الصهيونية فى فلسطين ، لإمدادهم بما يحتاجون إليه من معلومات فى مصر »[١٥٠] ، ولكن هذا الكلام لايفهم منه سوى أن الحركة الشيوعية فى مصر كانت على صلة بالحركة الشيوعية فى فلسطين قبل قيام إسرائيل ، وهذا أمر طبيعى . وقد تقتضى هذه الصلة تبادل المعلومات ، وهذا أمر طبيعى أيضا . ومع ذلك تظل علاقة الحركة الصهيونية بالموضوع فى حاجة إلى أدلة أقوى وأكبر . ويبدو أن المراغى كان يكتب هذا الكلام من الذاكرة ، دون تثبت ، لأنه يذكر أن كورييل كان « مليونيرا » ، فى حين أن المصيلحى ينفى ذلك تماما ، ويضيف أنه كان يملك مكتبة صغيرة فى ميدان مصطفى كامل (سوارس سابقا) ، ويشيع عن نفسه أنه مليونير حتى يبعد الشبهة عن إنفاقه السخى على النشاط الشيوعى[١٥١] ، وهذا أقرب إلى المعقول .

ويضيف المصيلحى إلى ذلك معلومات جديرة بالتأمل حول الموضوع كله ، بالرغم من أنه لم يشفع كلامه بوثائق أو نماذج من المضبوطات . فهو يعود إلى الحزب الشيوعى المصرى الذى كونه روزنتال فى الإسكندرية عام (١٩٢١) باسم الحزب الاشتراكى فى البداية ، ويضيف أن ابنة روزنتال شاركت فى هذا الحزب ، ثم هربت إلى روسيا ثم عادت نحو عام (١٩٢٥) ، وراحت تنفق على قضية الشيوعية التى ضبطت فى ذلك العام وأبعد على أثرها (٢٢) يهوديا روسيا إلى الخارج . ونتيجة لذلك انتقل مركز الحركة الشيوعية من مصر إلى فلسطين[١٥٢] . وهدأ نشاط اليهود الشيوعى حتى عام (١٩٣٦) . وعند ذاك كون راءول كورييل وشقيقه الأصغر هنرى أول حلقة شيوعية من اليهود ، كانت تضم مارسيل إسرائيل ، وريمون دويك ، وشوارتز ، وسلامون سدنى ، فضلا عن

جاكو دى كومب من غير اليهود . وقد أطلق على هذه الحلقة اسم « نادى السلم » وأغرى زعماؤها بعض المثقفين المصريين بالانضمام إليها ، مثل عبد الرزاق السنهورى وزهيرجرانه . ولكن سرعان ماانفض عنها هؤلاء فاستقل بها اليهود ، وتغير اسمها إلى « جمعية أنصار السلم » التى انقسمت بعدها إلى شعبتين ، إحداهما بزعامة هنرى كورييل ، والأخرى بزعامة دى كومب « الصهيونى » على حد تعبير المصيلحى[١٥٣] .

لقد قدر المصيلحى عدد التنظيمات ، ذات الطابع الشيوعى فى مصر من (١٩٣٩ إلى ١٩٤٧) بنحو (٣٠) منظمة ، أسسها اليهود ، وحاولوا إدخال بعض المصريين فيها باستثناء واحدة استقلوا بها ، وهى جمعية الفورم **Forum** التى ضبطت سنة (١٩٤٦) وأبعد زعيمها ألبير هاويل .

ويقول المصيلحى :

« يستبين من تاريخ هذه المنظمات ، أنه كان لدى اليهود غرض آخر خفى على الشباب المصرى ، الذين وقعوا فى حبائلهم ، وهو تفتيت جهود المصريين ، التى يمكن أن تجتمع لخدمة الوطن ، وإضاعة هذه الجهود فى معارك مفتعلة ، والانحراف عن الطريق السوى للنضال الوطنى ، وذلك بافتعال معارك وهمية وخلافات نظرية تدار بمهارة . وفوق ذلك فقد أرادت الصهيونية خدمة الشيوعية الدولية ، حتى تقف بجوارها فى المحافل الدولية ، تساعدها على تحقيق أحلامها »[١٥٤] .

ويضيف أن التحقيقات التى أجرتها النيابة مع أفراد هذه التنظيمات ، كانت تكشف دائما عن اتهامات متبادلة بين المنظمات حول العمل لحساب الصهيونية . وظل هذا التبادل قائما حتى نهاية الخمسينيات . ولم ينج منه كورييل ، الذى شهد أحد أعضاء منظمته بأنه كان على علاقة بعناصرصهيونية[١٥٥] كما ثبت من نشرات المنظمة ، أنها طالبت بالصلح مع إسرائيل وأيدت - من قبل - قيام الوطن القومى

لليهود ، وضمت كثيرين من المصريين ، من بينهم عبد الناصر الذى اتخذ اسما حركياً هو « موريس » .

مهما كان الرأى فى هذه المعلومات التى يسوقها رجل أمن عاصر هذه التنظيمات ، فإنها لاتجيب عن سؤالنا السابق بالأدلة والمستندات ، ولكنها - فى الوقت ذاته - تدعم الشك فى براءة الشيوعية من التعاون مع الصهيونية فى تلك الفترة ، قبل (١٩٤٨) بصفة خاصة ، حيث كانت الحركة الشيوعية كلها واقعة فى قبضة اليهود ، دون أى تقدم أحرزته العناصر المصرية فيها . غير أن النشاط الصهيونى ، يظل - برغم هذا كله - أوسع أنشطة اليهود السياسية فى مصر ، وأقدمها وأصرحها وأخطرها ، بل وأنفعها لأصحابه[١٥٦] .

والآن ...

إذا كنا أطلنا الوقوف عند النشاط السياسى لليهود فى مصر ، فذلك لأنه لم يكن نشاطا عاديا ، فضلا عن أنه لم يدرس من قبل كما يجب . ومع هذا فنحن لم ندرسه هنا كما يجب أيضا ، وإنما اكتفينا بدراسة أهم معالمه ، أو بمعنى أصح قدمناه فى أهم معالمه .

ولكن ماذا عن بقية الأنشطة ، اقتصادية واجتماعية وثقافية ؟

إذا كان الازدهار يعرف فى عصرنا أحيانا بأنه التقدم الاقتصادى والمالى ، فقد استطاع اليهود فى مصر أن يحققوا هذا التقدم فى فترة وجيزة من الزمن ، تبدأ بافتتاح قناة السويس عام (١٨٦٩) ، وتنتهى مع نهاية القرن الماضى ، أى نحو ثلاثين سنة . أما ماتلا ذلك فكان ازدهاراً اقتصاديا بكل المعانى ، أو بمعنى آخر كان جنيا لثمار التقدم ، الذى حققوه خلال تلك الفترة الوجيزة .

وقد اقتطف لانداو فى دراسته لوضع اليهود خلال ذلك القرن ، عبارة لأحد الرحالة اليهود كان قد زار مصر سنة (١٨٧٩) ، أى بعد عشر سنوات من افتتاح

جاكو دى كومب من غير اليهود . وقد أطلق على هذه الحلقة اسم « نادى السلم » وأغرى زعماؤها بعض المثقفين المصريين بالانضمام إليها ، مثل عبد الرزاق السنهورى وزهيرجرانه . ولكن سرعان ماانفض عنها هؤلاء فاستقل بها اليهود ، وتغير اسمها إلى « جمعية أنصار السلم » التى انقسمت بعدها إلى شعبتين ، إحداهما بزعامة هنرى كوريبل ، والأخرى بزعامة دى كومب « الصهيونى » على حد تعبير المصيلحى[١٥٣] .

لقد قدر المصيلحى عدد التنظيمات ، ذات الطابع الشيوعى فى مصر من (١٩٣٩ إلى ١٩٤٧) بنحو (٣٠) منظمة ، أسسها اليهود ، وحاولوا إدخال بعض المصريين فيها باستثناء واحدة استقلوا بها ، وهى جمعية الفورم Forum التى ضبطت سنة (١٩٤٦) وأبعد زعيمها ألبير هاويل .

ويقول المصيلحى :

« يستبين من تاريخ هذه المنظمات ، أنه كان لدى اليهود غرض آخر خفى على الشباب المصرى ، الذين وقعوا فى حبائلهم ، وهو تفتيت جهود المصريين ، التى يمكن أن تجتمع لخدمة الوطن ، وإضاعة هذه الجهود فى معارك مفتعلة ، والانحراف عن الطريق السوى للنضال الوطنى ، وذلك بافتعال معارك وهمية وخلافات نظرية تدار بمهارة . وفوق ذلك فقد أرادت الصهيونية خدمة الشيوعية الدولية ، حتى تقف بجوارها فى المحافل الدولية ، تساعدها على تحقيق أحلامها »[١٥٤] .

ويضيف أن التحقيقات التى أجرتها النيابة مع أفراد هذه التنظيمات ، كانت تكشف دائما عن اتهامات متبادلة بين المنظمات حول العمل لحساب الصهيونية . وظل هذا التبادل قائما حتى نهاية الخمسينيات . ولم ينج منه كوريبل ، الذى شهد أحد أعضاء منظمته بأنه كان على علاقة بعناصرصهيونية[١٥٥] كما ثبت من نشرات المنظمة ، أنها طالبت بالصلح مع إسرائيل وأيدت - من قبل - قيام الوطن القومى

لليهود ، وضمت كثيرين من المصريين ، من بينهم عبد الناصر الذى اتخذ اسما حركياً هو « موريس » .

مهما كان الرأى فى هذه المعلومات التى يسوقها رجل أمن عاصر هذه التنظيمات ، فإنها لاتجيب عن سؤالنا السابق بالأدلة والمستندات ، ولكنها - فى الوقت ذاته - تدعم الشك فى براءة الشيوعية من التعاون مع الصهيونية فى تلك الفترة ، قبل (١٩٤٨) بصفة خاصة ، حيث كانت الحركة الشيوعية كلها واقعة فى قبضة اليهود ، دون أى تقدم أحرزته العناصر المصرية فيها . غير أن النشاط الصهيونى ، يظل - برغم هذا كله - أوسع أنشطة اليهود السياسية فى مصر ، وأقدمها وأصرحها وأخطرها ، بل وأنفعها لأصحابه[١٥٦] .

والآن ...

إذا كنا أطلنا الوقوف عند النشاط السياسى لليهود فى مصر ، فذلك لأنه لم يكن نشاطا عاديا ، فضلا عن أنه لم يدرس من قبل كما يجب . ومع هذا فنحن لم ندرسه هنا كما يجب أيضا ، وإنما اكتفينا بدراسة أهم معالمه ، أو بمعنى أصح قدمناه فى أهم معالمه .

ولكن ماذا عن بقية الأنشطة ، اقتصادية واجتماعية وثقافية ؟

إذا كان الازدهار يعرف فى عصرنا أحيانا بأنه التقدم الاقتصادى والمالى ، فقد استطاع اليهود فى مصر أن يحققوا هذا التقدم فى فترة وجيزة من الزمن ، تبدأ بافتتاح قناة السويس عام (١٨٦٩) ، وتنتهى مع نهاية القرن الماضى ، أى نحو ثلاثين سنة . أما ماتلا ذلك فكان ازدهاراً اقتصاديا بكل المعانى ، أو بمعنى آخر كان جنيا لثمار التقدم ، الذى حققوه خلال تلك الفترة الوجيزة .

وقد اقتطف لانداو فى دراسته لوضع اليهود خلال ذلك القرن ، عبارة لأحد الرحالة اليهود كان قد زار مصر سنة (١٨٧٩) ، أى بعد عشر سنوات من افتتاح

القناة . وفى هذه العبارة ذات الدلالة قال الرحالة (س . م صامويل) : إنه « لايوجد فى مصر خادم أو عامل يهودى » وإن اليهود « يفضلون أن يكسبوا عيشهم برؤوسهم لابأيديهم »[١٥٧] .

لقد كان اليهود معروفين فى مصر طوال القرن الماضى فى مجالات اقتصادية معينة ، أهمها التجارة وتغيير العملات والتسليف والسمسرة . وكانت التجارة تشمل قطاعات متعددة ، أهمها تجارة الجملة ، وتجارة التصدير والاستيراد . ولكنهم أضافوا إلى ذلك ، مع بداية القرن الحالى ، تجارة المال ، أى البنوك ، وهى فرع من النشاط الاقتصادى كانوا قد وضعوا أقدامهم فيه فى ثمانينيات القرن الماضى ، ثم ازدهروا فيه بعد ذلك على طول سنوات النصف الأول من هذا القرن .

وفى عهد الخديو إسماعيل ، ولاسيما بعد افتتاح القناة ، بدأت أموال اليهود فى الحركة النشطة ، نحو تمويل بعض مشروعات الخديو المبذر . وفى عهد خلفه وابنه توفيق تطور هذا التمويل ، فشمل بعض البنوك الجديدة التى أسسوها ، ومنها البنك العقارى المصرى الذى أسسته أموال أسر سوارس ورولو وقطاوى فى أول يناير (١٨٨٠) . وبلغ رأسمال البنك عند تأسيسه نحو (٤٠) مليون فرنك (فرنسى) . وقد زيد هذا المبلغ بعد ذلك إلى (٢٠٠) مليون فرنك . وفى سنة (١٩٤٢) ، أى بعد نحو (٦٢) سنة من تأسيسه بلغ رأسماله نحو (٨) ملايين جنيه ، وبلغت أرباحه نحو مليون جنيه فى تلك السنة . كما بلغت قيمة القروض التى قدمها للملاك الزراعيين المصريين منذ إنشائه حتى سنة (١٩١٠) نحو (١٤٦٥٣) قرضا قيمتها نحو (٥٢,٥) مليون جنيه . وفى سنة (١٩١٠) ذاتها بلغت أرباح البنك نحو مليون ونصف المليون جنيه ، أى أكثر من أرباحه فى سنة (١٩٤٢) .

لقد لعب هذا البنك ، بصفة خاصة ، دورا خطيرا فى الاقتصاد الزراعى المصرى منذ إنشائه . ويكفى للتدليل على خطورة هذا الدور ، أن نحو مليون فدان كانت

تحت تصرفه سنة (١٩١٠) ، بحكم القروض التى أشرنا إليها ، وأن روبير رولو موجه سياسته ، ونائب رئيس مجلس إدارته منح لقب « سير » من الحكومة البريطانية تقديرا لجهوده وخدماته .

ومن هذه البنوك أيضا البنك الأهلى المصرى الذى تأسس فى (٢٥ يونيو سنة ١٨٩٨) بمساهمات من أسرتى هرارى ورولو . وكان من حقه إصدار أوراق النقد المتداولة فى البلاد . وقد اشترك فى مجلس إدارته فيكتور هرارى (باشا) و (السير) روبير رولو .

كان هناك عدا هذين البنكين الكبيرين بعض البنوك الأخرى ، مثل البنك البلجيكى الدولى ، والبنك التجارى المصرى ، وبنك موصيرى ، وبنك سوارس . والبنك الإنجليزى المصرى (باركليز فيما بعد) ، والبنك الزراعى ، وبنك الرهونات الوطنى ، وبنك مصر ، وغيرها من البنوك التى ظهرت فى هذا القرن .

لقد بلغ من قوة نفوذ أموال اليهود فى هذه البنوك ، أن طلعت حرب فكر فى إنشاء بنك مصرى فى فلسطين ، خلال الثلاثينيات فهدده اليهود بسحب أموالهم فى بنك مصر ، واضطر إلى العدول عن المشروع[١٥٨] .

ونتج عن هذا النشاط المالى الكبير ، وماصاحبه من تأسيس الشركات والمصانع اليهودية ، أن الفترة من سنة (١٨٦٣ إلى ١٩٢٠) ، أى منذ تولى الخديو إسماعيل الحكم ، شهدت - كما يقول حاييم كوهين - نمو الطبقة الوسطى اليهودية ؛ وازدياد نفوذها فى تجارة القطن ، وتجارة الاستيراد والتصدير ، حتى أصبحت أغنى طبقة يهودية فى الشرق الأوسط[١٥٩] ، ولم تتمكن القيود التى ظهرت بعد ذلك من الحد من غناها ، مثل إلغاء الامتيازات الأجنبية سنة (١٩٣٧) ، وانخفاض معدل الهجرة اليهودية إلى مصر ، وصدور قانون الشركات سنة (١٩٤٧) .

من بين هذين التاريخين (١٩٣٧ - ١٩٤٧) اختار أحمد غنيم ، وأحمد أبو كف سنة واحدة ، وحاولا أن يدرسا خلالها وضع اليهود فى الشركات المساهمة فى مصر ، بما فيها البنوك . وكان سبب اختيارهما لتلك السنة ، أن اليهود تعرضوا خلالها ، خارج مصر ، للاضطهاد النازى والعداء فى أوربا . ومع ذلك وجد الباحثان أن اليهود فى مصر ، كانوا فى تلك السنة يساهمون فى إدارة وتوجيه (١٠٣) شركات ، من مجموع الشركات المسجلة فى مصر وقتها وهو(٣٠٨) شركات[١٦٠] ، أى بما يوازى الثلث تقريبا . فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه الشركات الثلاث بعد المائة ، كانت تعمل فى أهم ميادين الاقتصاد فلنا أن نتخيل وضعها الحقيقى فى المشهد الاقتصادى ، ومدى ماتجنيه من أرباح . ومن هذه الشركات شركة عموم مصانع السكر والتكرير المصرية . وقد تأسست سنة (١٨٩٧) . وبلغ رأسمالها سنة (١٩٤١) نحو (١,٣٤١,٥٣٤) جنيها ، كما بلغت أرباحها فى السنة ذاتها نحو (٩٢٠٧٧) جنيها[١٦١] .

وقد لمع فى خضم هذا النشاط الاقتصادى الغامر عدد كبير من أفراد الأسر اليهودية ، التى لعبت دورا بارزا فى ازدهار الطائفة الاقتصادى ، والدعوة إلى الصهيونية . ومن أبرز هؤلاء أبناء(قطاوى، ومنشه وعاداه وسوارس وهرارى وموصيرى)، الذين تردد ذكرهم كثيرا فى هذه الدراسة ، فضلا عن أبناء شيكوريل: (سالمون ، الذى تزوجت ابنته منديس فرانس ، رئيس وزراء فرنسا الأسبق ، وجوزيف أحد مؤسسى بنك مصر ، ورئيس المنظمة الصهيونية فى القاهرة سنة (١٩٢٠) ، وسلفاتور الذى طور المحلات المعروفة باسم الأسرة ، وأسس محلات « أوركو » ، وأبناء رولو ودره وبلوم وجرين وشملا وبوندى وغيرهم ، وقد كان من النادر أن تخلو قائمة أعضاء مجالس إدارات الشركات اليهودية ، من أحد أسماء هذه الأسر . بل كان بعضهم عضوا فى أكثر من عشر شركات ، وكان بعضهم الآخر يبذل الجهد والمال فى سبيل الدعوة الصهيونية ، ولاسيما شيكوريل وجاتينيو وجرين .

ليس من الغريب بعد هذا كله أن يقول حاييم كوهين : إن يهود مصر كانوا فى منتصف القرن العشرين ، أغنى الطوائف اليهودية فى الشرق الأوسط ، وأكثرها استقرارا[١٦٢] .

هناك شبه اتفاق بين الباحثين فى تاريخ اليهود الحديث فى مصر ، حول التركيب الاجتماعى للطائفة ، وكيف أنها تكونت من ثلاث طبقات محددة ومتميزة : طبقة عليا أو أرستوقراطية ، تتألف من الأسر الغنية ، وترتبط بالأرستوقراطية المصرية الحاكمة ، وطبقة وسطى تتألف من التجار والمهنيين الذين كانوا فى معظمهم من المهاجرين الجدد ، وطبقة دنيا تتألف فى معظمها من اليهود المصريين ، ولاسيما سكان حارة اليهود ، ويعمل معظم أفرادها فى الحرف والصناعات الصغيرة .

ولاغبار على هذا التقسيم من ناحية المبدأ ، ولكن المشكلة أنه يتصف بالعمومية الشديدة ، فمن الملاحظ أن اليهود فى مصر عبر التاريخ الحديث ، لم يعملوا بفلاحة الأرض ، وإن كان كثير من أغنيائهم قد تملكوا الأرض الزراعية والعقارية . ومن الملاحظ أيضا أن اليهود لم يعيشوا فى القرى أو الريف بوجه عام ، وإنما تركز وجودهم فى المدن الكبيرة بصفة خاصة ، حتى من كان منهم يملك الأراضى والضياع فى الريف . ومن الملاحظ أخيرا أنهم لم يكونوا عمالاً زراعيين أو صناعيين ، وإن كان عدد قليل منهم قد عمل فى المصانع . ومعنى هذا أنه لم توجد بينهم طبقة عمال أو طبقة فلاحين . بل إن كلمة « طبقة » ذاتها لاتنطبق بدقة على تركيبهم الاجتماعى فى النهاية ، لأنهم كانوا - من ناحية - أقلية ، وكانوا من ناحية أخرى ، يحرصون باستمرار على تماسك الطائفة ، وتكافل أفرادها ، فضلا عن أن أسلوب المضاربات الذى عاشوا عليه فى المال والاقتصاد ، كان يرفع ويخفض بغير منطق أو حساب اجتماعى أو طبقى . ولهذا كله نميل إلى الاعتقاد بأن تركيبهم الاجتماعى ، كان أقرب إلى أساس الأسرة ، أو العشيرة بمعنى آخر . ولهذا برزت قوتهم الاجتماعية كأسرة واحدة ، على الرغم من تعدد الأسر والعشائر ، بل تعدد الخلافات والنزاعات الطائفية بينهم .

لقد كانوا ينقسمون من الناحية الطائفية إلى طائفتين : القراءون والربانيون . وكان القراءون أقلية صغيرة ، تخصصت تقريبا فى صناعة وتجارة الذهب والمصوغات . وعاش معظمها فى حارة اليهود بالقرب من حى الصاغة فى القاهرة . وكان الربانيون أو الحاخاميون ينقسمون بدورهم إلى إشكنازية وسفاردية ، ثم ينقسمون بعد ذلك إلى طائفة القاهرة ، وطائفة الإسكندرية . وكان لكل طائفة من هاتين الأخيرتين حاخام أكبر خاص ، ومجلس ملى خاص أيضا . بل إن طائفة الربانيين فى القاهرة ، انقسمت إلى إشكنازية وسفاردية ، لكل منها نظامها الخاص فى الحاخامية ، والمجلس الملى . ولم تتحد هاتان الطائفتان الربانيتان ، إلا فى سنة (١٩٤٧) .

وعلى الرغم من وجود حارة اليهود فى القاهرة ، فلم يكن معنى ذلك أن اليهود عاشوا فى معزل أو « جيتو » ، كما عاشوا فى أوربا من قبل . ويبدو أن نشأة « الحارة » كانت عفوية ، ومن نصيب الفقراء بصفة خاصة . أما الأغنياء فقد عاشوا فى أرقى أحياء القاهرة والإسكندرية ، بغير تمييز أو حدود . ومع ذلك ظل سكان حارة اليهود هؤلاء ، أقرب إلى المجتمع المصرى الحقيقى فى اللغة والتعليم والعادات ، فى حين كانت الأسر الكبيرة والمتوسطة ، تنفصل شيئا فشيئا عن ذلك المجتمع ؛ مع زيادة استقرار الاحتلال البريطانى ، والنفوذ والاستثمار الأجنبيين . بل إن سكان حارة اليهود هؤلاء ظلوا ، طوال القرن الماضى والثلث الأول من القرن الحالى ، يوردون سكانا جددا إلى الأحياء الراقية ، مع نمو الفرص الاقتصادية وزيادة الثراء .

لم يكن بين اليهود – بوجه عام – فقراء كثيرون . فقد بلغ آخر إحصاء لهؤلاء الفقراء (٤٠٠٠) شخص . ومع ذلك لم تعرضهم الطائفة للشحاذة فى الشوارع ، وإنما ساندتهم بالمال والمساعدات على الدوام .

وإذا كنا قد تحدثنا من قبل عن حرية العبادة والتعليم والتعبير ، فيجب أن نضيف هنا أن أثرياء اليهود قاموا بدور فعال ، فى رعاية الطائفة تعليميا ودينيا وصحيا ورياضيا . فعدا المدارس والمعابد ، التى سبق أن أشرنا إليها ، كانت توجد بضعة مستشفيات لهم فى القاهرة والإسكندرية . وقد أسس البارون منشه بوجه خاص أول مستشفى للطائفة فى الإسكندرية ، فى أوائل هذا القرن ، ثم أنشأ مدارس منشه المجانية فى الاسكندرية ، وكذلك المعبد الكبير هناك . وتابع أولاده عمله فمولوا إنشاء المستشفى الإسرائيلى ، الموجود حاليا بشارع جمال عبد الناصر . وأسس ابراهام عاداه فى الإسكندرية أيضا مستشفى لأمراض العيون وبيتا للمسنين ، وكان فيلكس سوارس يسمى عند اليهود « أبو الحسنة » لأنه درج على مساعدة سكان حارة اليهود الفقراء فى القاهرة ، فضلا عن عشرات الملاجىء والجمعيات الخيرية والمستوصفات ، وأندية الشباب والرياضة التى ساهم أثرياء اليهود الآخرون فى تأسيسها ، وكذلك المحافل اليهودية مثل محفل ابن ميمون الذى تأسس فى القاهرة سنة (١٨٨٧) ، ومحفل إلياهو حنابى الذى تأسس فى الإسكندرية سنة (١٨٩٢) ، ومحفل بنى بريت الذى تأسس فى القاهرة سنة (١٩١١) . وكانت هذه المحافل تنشأ لرعاية الشئون العامة للطائفة ، وقد اشتهرت إلى جوارها بعض المدارس والجمعيات الخيرية ، مثل « جمعية نقطة اللبن » ، و « مدرسة جرين » فى حارة اليهود ، ومركز تدريب شيكوريل الذى أوصى به سالمون شيكوريل عند وفاته سنة (١٩١٩) ، وجمعية ماتان باستير فى القاهرة . وكان من أشهر الأندية الرياضية جمعية المكابى الرياضية ، التى تأسست فى الإسكندرية سنة (١٩١٠) ، ثم تحولت إلى « الاتحاد اليهودى الرياضى والأدبى المكابى » وكذلك نادى المكابى بالقاهرة ، الذى رأسه عند تأسيسه فى العشرينيات سلفاتور شيكوريل .

كانت هذه الجمعيات والأندية هدفا للصهيونية فى مصر ، وصيدا ثمينا لدعاتها[١٦٣] . فقد ضمت عددا كبيرا من الشباب اليهودى ، الذى تحمس بسرعة

للصهيونية ، كما تحمست بطلة رواية « الخروج الثانى » وزميلاتها وزملاؤها . وقد نجحت الصهيونية فى تجنيد معظم أعضاء هذه الجمعيات والأندية ، وحولتها من النشاط الاجتماعى إلى النشاط السياسى . ومع ذلك تفوق فى الأندية الرياضية عدد من الشباب ، مثل بعضهم مصر فى بعض الدورات والبطولات الأوليمبية . ففى سنة (١٩٢٨) ، ضمتهم الفرق المصرية المشتركة فى دورة ذلك العام فى ألمانيا . وكان بين هؤلاء سالفاتور شيكوريل ، الذى تفوق فى لعبة الشيش ، كما تفوق فى لعبة التنس شابان يهوديان ، هما نجار وكوهين ، اللذان مثلا مصر فى بضع مسابقات دولية ، فضلا عن إيزاك أميل ، الذى كان بطل الملاكمة فى مصر ، سنوات طويلة ، خلال العشرينيات والثلاثينيات . وكان هؤلاء جميعا من الصهاينة المتحمسين .

إذا كان اليهود قد حققوا فى مصر ازدهاراً على المستويات السياسية والاجتماعية ، فقد حققوا ذلك الازدهار على المستوى الثقافى أيضا . وقد مر بنا كيف أتيحت لهم حرية التعبير فأنشأوا نحو (٥٠) صحيفة فى الفترة من (١٨٧٧ إلى ١٩٤٧) ، كان معظمها بالعربية .

يقول حاييم كوهين : إن معظم يهود مصر كانوا يتكلمون العربية بالرغم من ميلهم إلى النفور منها . ومع ذلك كان موقفهم من الكتابة بالعربية والعبرية سلبيا ، باستثناء صنوع ومراد فرج وسعد يعقوب مالكى ، الذين أسسوا صحفا وكتبوا شعرا ، ومقالات بالعربية . ويضيف كوهين : « إن جميع الصحف التى امتلكها يهود مصريون ، وهى كثيرة ، كانت تصدر باللغة الفرنسية » ، باستثناء الصحف التى أصدرها صنوع وفرج ومالكى[١٦٤] . وفى هذا الحكم خان التوفيق كوهين . فقد درست سهام نصار كما ذكرنا صحف اليهود العربية فى مصر . ومن دراستها هذه ، يتبين أن الصحف التى أصدرها يهود بالعربية منذ عام (١٨٧٧) إلى (١٩٥٠) ، تبلغ (٣١) صحيفة ، وهذا فى حد ذاته عدد كبير كما ذكرنا من قبل .

أما الصحف التى أصدروها بالفرنسية فتبلغ (١٠) صحف ، وإن كنا نعتقد أن العدد الحقيقى أكبر من ذلك ، ولكنه لايصل إلى عدد الصحف العربية ، ومع ذلك فكوهين على حق ، فى أن هذا الازدهار لم يؤد إلى أى نشاط يذكر فى التأليف بالعبرية ، عند اليهود المصريين . فقد أخرج من حساب هذا التأليف الأعمال التى ألفها يهود غير مصريين ، أى ولدوا خارج مصر ، مثل « شلومو حزان ، ورافاييل أهارون بن شمعون ، ومسعود حى بن شمعون » . وقد ألف الأخير كتابا بالعربية ، نشره فى القاهرة سنة (١٩١٢) ، بعنوان « أبواب العدل » . ومع ذلك أشار كوهين إلى بعض الباحثين والكتاب اليهود ، الذين نشروا كتبا ودراسات بالفرنسية ، مثل موريس فرجون ، ونورى فارحى ، ورينيه ، ويوسف قطاوى .

ولعل أبرز كاتب يهودى مصرى بالعربية ، هو مراد فرج ليشع (١٨٦٦ - ١٩٥٦) الذى كان محاميا ، من طائفة القرائين ، وينتمى لأسرة يرجع تاريخها فى مصر إلى (٢٥٠) سنة . وقد أسس فى القاهرة صحيفة « التهذيب » سنة (١٩٠١) وتولى تحريرها بناء على قرار من اللجنة الملية لطائفة القرائين . وظلت تهتم بشئون الطائفة ، حتى توقفت سنة (١٩٠٣) . ثم أصدر فرج بعدها صحيفة « الإرشاد» سنة (١٩٠٨) ، ولكنها لم تستمر طويلا ، فقد توقفت بعد عشرة أشهر . وقد ألف فرج مجموعة من الكتب القانونية والأدبية ، منها : الشعراء العرب اليهود ، ملتقى اللغتين العبرية والعربية ، مقالات مراد ، ديوان مراد . ويقع « ديوان مراد » هذا فى أربعة أجزاء صدرت بالقاهرة فى الفترة من (١٩١٢ إلى ١٩٣٨) ، وهو أول ديوان شعر لشاعر يهودى بالعربية فى العصر الحديث .

يأتى بعد مراد فرج عدد من أدباء اليهود ، الذين كتبوا بالعربية ، وأبرزهم سعد ليتو مالكى الذى نشر مجموعة قصصية ، بعنوان « يراعى الأول » سنة (١٩٣٦) ، وهارون زكى حداد ، الذى نشر مجموعة أخرى سنة (١٩٥٠) ، بعنوان « مائة قصة وقصة مصرية وغربية » . كما يأتى بعد هؤلاء عدد آخر من

الكتاب والباحثين ، والصحفيين اليهود كتبوا بالعربية ، أبرزهم سعد يعقوب مالكى رئيس تحرير صحيفة « الشمس » ، التى صدرت سنة (١٩٣٤) ، وناصرت الصهيونية ، حتى عطلتها الرقابة العامة فى يونيو (١٩٤٨) ، والدكتور هلال فارحى الذى ترجم الكثير من الصلوات من العبرية إلى العربية ، والدكتور ألفرد يلوز ، الذى تخصص فى الأدب والترجمة ، وألبرت مزراحى الذى أصدر ثلاث صحف فى الفترة من (١٩٤٤ إلى ١٩٥٤) ، وصادق سعد الكاتب السياسى .

ومعنى هذا أن الكتاب اليهود بالعربية ، لم يكونوا قلة قليلة أو استثناء كما يقول كوهين ، ومعناه أيضا أن مشكلة اليهود فى مصر من هذه الناحية ، كانت ندرة الكتابة بالعبرية ، مما يؤكد مرة أخرى مقدرة العربية على اجتذاب اليهود ، كما حدث زمن حكم العرب فى أسبانيا .

وإذا كان اليهود فى مصر قد برعوا طوال تاريخهم الحديث ، فى إنشاء الجمعيات والأندية ، ذات الطابع الاجتماعى ، فقد برعوا أيضا فى إنشاء الجمعيات ذات الطابع الثقافى أو الفكرى . وأبرز جمعية من هذا النوع هى « جمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية » ، وقد أسسها فى سنة (١٩٢٥) ، عدد من المثقفين اليهود ، بهدف دراسة التاريخ والأدب اليهوديين فى مصر . وكان رئيسها الشرفى الحاخام حاييم ناحوم ، ورئيسها الفعلى يوسف قطاوى باشا . وكان نشاطها يتوزع بين المحاضرات ونشرها ، وتحقيق المخطوطات القديمة المتصلة باليهود . كما نشرت كتابا فى ذكرى الاحتفال بموسى بن ميمون سنة (١٩٣٥) جمعت فيه بعض الأبحاث عنه . وكان ألفرد يلوز سكرتيرا عاما لها منذ سنة (١٩٣٦) . وكان من أعضائها ، مراد فرج ، وإسرائيل ولفنسون تلميذ طه حسين ، والمدرس بدار العلوم وقتها .

ولم يقتصر النشاط الثقافى لليهود على الأدب والبحث والفكر ، وإنما تعداه إلى الفنون ولاسيما الموسيقى والمسرح والسينما . وكان أبرز من برعوا فى

الموسيقى والغناء خلال هذا القرن داود حسنى (دافيد حاييم ليفى) وأخوه يوسف حسنى وتلميذه زكى مراد . ثم برع ابن مراد وابنته ، منير وليلى ، فى الغناء والتمثيل السينمائى . ومازالت أغانى وأفلام ليلى مراد وأخيها منير ، تحظى بالمستمعين والمشاهدين حتى اليوم . كما برع فى المسرح عدد من الممثلين من بينهم إميلى ديان ، التى اشتركت فى فرقة سلامة حجازى ، وفيكتوريا كوهين التى اشتركت فى فرقة يوسف وهبى ، ونجوى سالم التى اشتركت فى فرقة الريحانى ، وبرع فى السينما عدد آخر أهمهم كاميليا ممثلة أدوار الإغراء فى الأربعينيات التى راحت ضحية سقوط طائرة ، وتوجو مزراحى الذى أخرج العديد من الأفلام التجارية فى الثلاثينيات والأربعينيات ، وإن كان موريس مزراحى قد بالغ فى مجاملته فقال عنه : إنه « أدخل صناعة السينما فى مصر »[١٦٥] ، والصواب أنه أدخل التجارة على السينما فى مصر وساندته فى ذلك شركة « جوزى فيلم » ، التى أسسها جوزيف موصيرى سنة (١٩١٥) . وكانت هذه الشركة تدير عشر دور سينمائية فى القاهرة ، والإسكندرية ، والسويس ، وبورسعيد ، وتحتكر استيراد الأفلام الخام وبيعها . ثم توسعت بعد ذلك وأقامت ستوديو للإنتاج .

والحقيقة أن هذا النشاط الثقافى لليهود فى مصر الحديثة ، لم يدرس بعد الدراسة الواجبة . وأعتقد أن دراسته سوف تكشف عن أشياء مهمة ، فى تفسير الاندماج اليهودى فى مصر . على عكس مانجد عند الكتاب الإسرائيليين ، من أمثال حاييم كوهين ، الذين يقللون من قيمة هذا النشاط ، ويرون أن اليهود فى مصر كانوا يشعرون بالغربة من ناحية ، وينفرون من التعبير بالعربية من ناحية أخرى . وإذا صح ذلك على اليهود الإشكنازية الغربيين فيجب ألا يصح على السفاردية الشرقيين . فمن اللافت للانتباه أن معظم الأسماء التى برزت فى هذا النشاط الثقافى ، كانت من السفاردية الذين استقروا فى مصر منذ قرون ، واندمجوا - أوكادوا - فى المجتمع المصرى ، مما يدل على عدم صحة افتراض

الإسرائيليين ، أن يهود مصر لم يندمجوا ، ولم يستجيبوا لتيار الحياة فيها ، وهذه هى وجهة النظر الصهيونية على أى حال .

الخلاصة :

نستطيع ، مما مر بنا حتى الآن ، أن نستخلص نتيجتين مركزيتين :

النتيجة الأولى أن اليهود فى مصر الحديثة ، لم يفتقروا حتى سنة (١٩٤٨) إلى الموقف الرسمى المتسامح ، المشجع لهم على الانطلاق والازدهار فى كل المجالات ، ولا إلى الموقف الشعبى المماثل . ولم يكونوا ضيوفا ولاغرباء كما تميل وجهة النظر الصهيونية إلى تصويرهم .

النتيجة الأخرى أن هذين الموقفين ، الرسمى والشعبى ، قد فتحا لليهود أبواب الانطلاق والازدهار ، دون قيد أو شرط ، فتزايد عددهم ، وتطور نشاطهم ، وازدهر سياسيا واقتصاديا واجتماعيا وثقافيا . وكان من الممكن أن يستمر هذا الازدهار لولا التيار الصهيونى ، الذى ضحى بهم بعد أن استغلهم إلى أبعد درجة .

ولهذا نعود فنذكر عبارة مزراحى ، التى لخص فيها تاريخ اليهود الحديث فى مصر فقال : « لم تظهر مشكلة يهودية فى مصر ابتداء من عهد محمد على ، إلى الحرب فى فلسطين . » .

ثم نعود مرة أخرى إلى عبارة أبا إيبان ، حول ازدهار اليهود فى الأندلس وشمال إفريقيا فى العصور القديمة ، وازدهارهم بعد ذلك فى ألمانيا والنمسا وأمريكا فى العصر الحديث ، ونتساءل مرة أخرى :

ألم تكن تجربة اليهود فى مصر الحديثة ، كما عرضناها هنا ، تجربة ازدهار مماثل لما حدث ، فى الأندلس وشمال إفريقيا قديما ، وبعض بلدان أوربا وأمريكا حديثا ؟

الجواب – كما رأينا – هو : بلى . وهذه هى إجابة سؤالينا اللذين طرحناهما فى البداية ولكن ماذا عن الحاضر ؟

هذا الحاضر يمتد من سنة (١٩٤٨) حتى الآن ، أى منذ قيام إسرائيل داخل الوطن العربى ، وهو حاضر يفيض بالأحداث وتعقيدات السياسة الدولية . وحكايته تختلف تماما عن حكاية الماضى التى رويناها .

يعتز اليهود فى تاريخهم الحديث بثلاث علامات بارزة هى : انعقاد أول مؤتمر للصهيونية عام (١٨٩٧) ، وإعلان وعد بالفور عام (١٩١٧) ، ثم إعلان قيام إسرائيل عام (١٩٤٨) .

ولكن هذه العلامة الأخيرة ، لم تكن نهاية المطاف ، لا فى تاريخ اليهود الحديث ، ولا فى علاقتهم بالعرب عامة أو مصر بوجه خاص . فمن الملاحظ أن وضع اليهود فى مصر – كما هى الحال فى البلاد العربية الأخرى – أخذ فى التدهور المستمر ، منذ إعلان قيام إسرائيل حتى اليوم ، على الرغم من اتفاقات كامب ديفيد ، التى عقدها بيجين والسادات عام (١٩٧٧) ، وماترتب عليها من تبادل التمثيل الدبلوماسى بين البلدين .

لعل أبرز مظاهر التدهور فى وضع اليهود بمصر ، منذ الحرب فى فلسطين عام (١٩٤٨) هو الهجرة اليهودية المستمرة منذ ذلك التاريخ . ومن المفارقات اللافتة للنظر أن هذه الهجرة لم تتجه إلى إسرائيل كما كان متوقعا . ففى الفترة من (١٩٤٨ إلى ١٩٥٠) ، أى نحو ثلاثة أعوام ، غادر مصر نحو (٢٥) ألف يهودى ، لم يستقر منهم فى إسرائيل سوى (١٤) ألفا ، كما تقول دائرة المعارف اليهودية[١٦٦] ، التى تضيف أن عدد اليهود المصريين الذين يعيشون اليوم فى إسرائيل ، بعد الهجرات المستمرة ، يبلغ (٣٥) ألفا ، فى حين يعيش منهم فى البرازيل (١٥) ألفا ، وفى أمريكا والأرجنتين (٩) آلاف ، وفى بريطانيا (٤) آلاف[١٦٧] . ويبلغ مجموع هذه الأعداد (٦٣) ألفا ، وهو يساوى – تقريبا – عددهم فى إحصاء (١٩٤٧) (٦٥٦٣٩) مع طرح من تبقى منهم فى مصر ، ومن تسرب إلى بلدان أخرى . ومعنى هذا أن اليهود المصريين لم يهاجروا جميعا إلى إسرائيل ، وأنهم فضلوا عليها بلدانا أخرى ، فيما عدا الفقراء ومتوسطى الحال والصهاينة المتحمسين بالطبع .

كيف خرج هؤلاء من مصر ؟

لنعد إلى الرواية الإسرائيلية فى الموضوع ، كما يرويها حاييم كوهين الأستاذ بالجامعة العبرية . يقول :

« منذ (١٩٤٨) استهدفتهم الإجراءات الحكومية المصرية المعادية لليهود ، وعدتهم صهاينة بغض النظر عن جنسياتهم . ففى (١٥ مايو ١٩٤٨) ، أعلن الملك فاروق حالة الطوارىء فى البلاد . وخلال الشهر ذاته صدر عدد من الأوامر ، التى أثرت فيهم على وجه الخصوص ، بالرغم من خلوها من أى قيود قانونية عليهم . ففى (٢٥) مايو منع جميع المواطنين من مغادرة مصر ، دون تصريح خاص . ولم يسمح لليهود بالحصول على هذه التصاريح . (أما الذين غادروا منهم البلاد ، بالرغم من ذلك فى يوليو وأغسطس ١٩٤٨ ، فكانوا يحملون جنسيات أجنبية قامت قنصلياتها بضغوط ، حتى حصلت لهم على تصاريح خروج) وبعد بضعة أيام ، فى (٣٠) مايو ، صدر أمر يخول للحكومة حق مصادرة أملاك الأشخاص الذين ترى أنهم يقومون بنشاط معاد لها ، ووضع هذه الأملاك تحت حراسة موظف خاص ، وتمكين أصحاب الأعمال التى تعولهم من فصلهم »[١٦٨] .

ثم يضيف كوهين :

« لم تكن هذه الإجراءات ، من الناحية النظرية ، موجهة ضد اليهود بوجه خاص . ومع ذلك فقد كان اليهود يشكلون الأغلبية العظمى فى عدد الأفراد والشركات – أكثر من مائة – الذين صودرت أملاكهم خلال فترة قصيرة بعد ذلك . وفى أغسطس (١٩٤٨) ، صدرت تعليمات بعدم السماح لغير المصريين بممارسة السمسرة فى بورصة الأوراق المالية المصرية . وفى سبتمبر صدرت تعليمات أخرى بقصر الاشتغال بالطب على حاملى الجنسية المصرية . وبهذه الطريقة تزايد بسرعة عدد الذين أضيروا ضررا بالغا من الناحية الاقتصادية .

وخلال هذه الفترة ألقى القبض على المئات من اليهود المتهمين بالصهيونية أو الشيوعية ، وتم حجزهم فى المعتقلات ، بالرغم من حقيقة أن الصهيونية لم تكن ممنوعة فى مصر وقتها . وخلال الأشهر من يونيو إلى نوفمبر (١٩٤٨) ، ارتكب عدد من الأعمال الإرهابية ضد اليهود . ففى (٢٠) يونيو وضعت قنابل فى الحى اليهودى بالقاهرة ، فدمرت (١٢) بيتا عند انفجارها ، وقتلت (٣٤) يهوديا ، وجرحت أكثر من (٨٠) ، ردا على قصف السلاح الجوى الإسرائيلى للقاهرة فى (١٦) يوليو (الذى ضربت فيه منطقة مدنية خطأ بدلا من قصر عابدين) هاجمت الجماهير اليهود فى الشوارع وأنزلتهم عنوة من الأوتوبيسات ، واعتدت عليهم بالضرب ، دون أى تدخل من جانب الشرطة . ولما مارست البعثات الدبلوماسية ضغوطها ، قامت الشرطة بتفريق الجماهير . وخلال الأيام الأربعة من (١٧ إلى ٢٠) يوليو وضعت قنابل مرة أخرى فى الحى اليهودى ، فقتلت وجرحت (٢٥٠) شخصا . وتعرض نحو (٥٠٠) محل تجارى للنهب . وفى (٢٢ سبتمبر ١٩٤٨) ، قتل (١٩ يهوديا وجرح ٦٢) إثر انفجارات أخرى . وفى أكتوبر تعرض اليهود للقتل والسرقة فى القاهرة والإسكندرية . وفى (١١) نوفمبر وضعت قنبلة أخرى فى الحى اليهودى بالقاهرة .

« وفضلا عن ذلك أجبر اليهود على التبرع بألوف الجنيهات للجيش المصرى ، واضطر الحاخام الأكبر فى مصر ، حاييم ناحوم – عشية إعلان دولة إسرائيل – إلى التصريح بأن واجب اليهود المصريين ، يقتضى بأن يدافعوا عن بلدهم ضد الصهيونية »[١٦٩] .

كان هذا هو ماحدث لليهود فى مصر فى سنة (١٩٤٨) وحدها ، فى أعقاب إعلان قيام إسرائيل . وهذا الذى حدث يأتى من الوجهة الإسرائيلية كما رأينا . ولكن هذه الوجهة ليست موضوعية كما رأينا أيضا ، بالرغم من أن صاحبها أستاذ جامعى . ففيها الكثير من المبالغة والتعميم ، حتى فى الصياغة إذا قارناها بما سبق

أن نقلناه عن عبد الرحمن الرافعى ، الذى نقل الحقيقة من الصحف بلا زيادة ولانقصان . ونكتفى هنا بمثل واحد للمقارنة . فحاييم يقول : إن (٥٠٠) محل تجارى ، تعرضت للنهب فى يوليو (١٩٤٨) وقتل وجرح ٢٥٠ يهوديا . والرافعى يقول : إن محلات شيكوريل وأوركو ، وداود عدس ، وبنزايون ، وجاتينيو ، وقعت أمامها ، أو فيها ، انفجارات ، ولكن لم يحدث أن قتل أو جرح ذلك العدد الكبير ، فضلا عن أن اليهود لم يكن لديهم فى القاهرة وقتها (٥٠٠) محل تجارى . ومع ذلك فما يرويه كوهين يكشف عن بعض الأمور ، التى خفيت على مؤرخينا ، مثل تفكير إسرائيل فى قصف قصر عابدين ، وشروعها فى ذلك ، لولا خطأ فى التقدير أنزل العقاب بمنطقة مدنية . ونقول : « العقاب » ، لأن السائد فى الكتابات الإسرائيلية ، أن الملك فاروق هو السبب فى دخول الجيش المصرى إلى فلسطين . وكذلك مايرويه كوهين عن اضطرار ناحوم إلى الكذب ، وإبداء التعاطف مع مصر ، مما كشفنا عن أصوله عند الحديث عن دور الحاخامات فى الدعوة الصهيونية .

ويتبقى بعد هذا أن ماحدث فى ذلك العام ، سواء رواه إسرائيلى أو مصرى ، لم يكن عاديا بالطبع . فهو محصلة الغياب الطويل عن الوعى بالصهيونية من جانب الساسة ، والعجز عن التصرف من جانب الجماهير ، بعد إعلان قيام إسرائيل ، الذى لم يحل المشكلة فى فلسطين . ومثل هذا التكامل ، بين غياب الوعى والعجز عن التصرف ، يحدث عادة مالا تحمد عقباه .

سنمضى على أية حال مع كوهين ، فى عرضه لما جرى لليهود بعد ذلك . وهو هنا يقسم الفترة التالية إلى فترتين : (١٩٤٩ – ١٩٥٤ ، ١٩٥٤ – ١٩٧٢) . وسنتابعه كما شاء فترة بعد أخرى :

١٩٤٩ – ١٩٥٤

« فى أغسطس (١٩٤٩) ، حدث تغير مفاجىء فى السياسة المصرية إزاء اليهود . فقد ألغى فى ذلك الشهر وجوب الحصول على تصريح خروج خاص لمغادرة مصر . وأطلق سراح العشرات ممن سجنوا فى مايو (١٩٤٨) ، وأعيدت إليهم ممتلكاتهم ، وصرح لهم بالسفر . وحين جاءت حكومة الوفد إلى السلطة فى بداية سنة (١٩٥٠) ، أطلق سراح اليهود . وفى أوائل (١٩٥١) ، أفرغت المعتقلات من اليهود ، فيما عدا الشيوعيين منهم . وجدد اليهود الباقون فى مصر نشاطهم الاقتصادى ، وأعادوا فتح مدارسهم ، بالرغم من خوفهم عليها من الإخوان المسلمين . ولكن لم يلحق بهم أو بها أى أذى ، سوى حادثة قنبلة وحيدة اكتشفت فى حى الرمل بالإسكندرية ، ولم يترتب عليها أى ضرر . وفى سنة (١٩٥١) استؤنف إصدار صحيفة ناطقة باسم اليهود ، وتبارت مجموعة أندية المكابى فى كرة القدم .

« ولم يحدث أى تغيير بنشوب ثورة يوليو (١٩٥٢) ، وخلع الملك فاروق . بل على العكس كان اللواء نجيب ودودا مع اليهود . ومع أنهم كانوا أحرارا فى السفر ، لم يغادر البلاد إلا قلة قليلة فى السنوات (١٩٥١ – ١٩٥٣) . وإذا كان قد ألقى القبض فى نوفمبر (١٩٥٣) على عدد من الشبان اليهود ، واتهموا بترويج الدعاية الشيوعية والصهيونية ، وحكم على ثمانية منهم بالسجن من ثلاث إلى سبع سنوات ، فإن هذا فى الحقيقة لم يكن يشير إلى تدهور فى وضع اليهود »[١٧٠] .

وليس لنا هنا أى تعليق ، سوى أن ماحدث كان دليلا على بداية تعقل الأمور بعد الصدمة الشديدة ، التى هزت الساسة والجماهير معا ، عقب قيام إسرائيل ، وفشل عملية التعرض لها .

« فى نوفمبر (١٩٥٤) ، تم إقصاء اللواء نجيب ، وحل محله جمال عبد الناصر ، وكانت هذه بداية الزمن العصيب بالنسبة لليهود . فخلال أشهر قلائل تم اعتقال العشرات ، واتهم كثيرون منهم بالتجسس لحساب إسرائيل : وفى ديسمبر (١٩٥٤) ، صدر حكم بالإعدام على اثنين منهم ؛ وتم شنقهما فى بداية عام (١٩٥٥) ، بالرغم من محاولات التدخل . ومنذ ذلك التاريخ ازداد عدد المطبوعات المعادية لليهود فى مصر . بل قام بتوزيع بعضها الناشرون التابعون للحكومة ، ومن بين هذه المطبوعات الترجمة العربية لكتاب (بروتوكولات حكماء صهيون) . ومع أن السلطات المصرية لم يكن يهمها إيذاء اليهود ، لاهتمامها بالظهور بمظهر القادر على حماية رعايا الدولة ، فلم تسمح لهم مع هذا بإمكان مغادرة البلاد . ومن ثم لقيت الهجرة إلى إسرائيل إهمالا فى سنتى (١٩٥٤ - ١٩٥٥) ، بسبب انعدام تصاريح الخروج .

« وعلى أثر انتهاء حملة سيناء ، صدر فى أول نوفمبر (١٩٥٦) أمر عسكرى يخول للحارس العام على ممتلكات المتغيبين عن البلاد الإشراف على ممتلكات المسجونين السياسيين ، بل وبيعها . وبعد أيام قلائل أعلن أن مئات من اليهود قد اعتقلوا ، وتم تحويل ممتلكاتهم إلى الحارس العام . وكان من بين المعتقلين بعض من أغنى رجال الطائفة اليهودية ، وأكثرهم احتراما . ونتج عن هذا أن ألوفا من اليهود غادروا البلاد فجأة دون مال . فخلال الأيام الأولى من نوفمبر صدرت أوامر لليهود بتحزيم جانب صغير من متعلقاتهم ومغادرة البلاد خلال بضعة أيام . ولم يسمح لكل منهم بأخذ شيء من متعلقاته أكثر من (٣٠) جنيها مصريا نقدا ، ومايساوى (١٤٠) جنيها من المجوهرات ، ومالاحد له من البضائع المصرية (الملابس والأحذية) . وخلال ثلاثة أشهر ونصف الشهر ، أى من (٢٢ نوفمبر ١٩٥٦ إلى ٦ مارس ١٩٥٧) ، تم بهذه الطريقة إبعاد (١٤٠١٢) يهوديا من

مصر . وحتى سبتمبر (١٩٥٧ أبعد ٧٠٠٠) يهودى آخرون . ثم استمر طرد اليهود بعد ذلك . وغادر البلاد كثيرون منهم بناء على رغبتهم ، بعد أن سدت أمامهم سبل العيش .

« حتى بداية الستينيات كان قد غادر مصر نحو (٣٦) ألف يهودى اتجهوا إلى البلدان الأوربية . ثم توجهت غالبيتهم إلى إسرائيل من أوربا ، فى حين هاجرت ألوف منهم إلى الولايات المتحدة أو البرازيل ، أو بقوا فى إيطاليا أو فرنسا أو انجلترا . وهكذا لم يبق فى مصر سنة (١٩٦٠) سوى (٨٥٠٠) يهودى بعد أن كان عددهم (٤٠ ألفا سنة ١٩٥٦) . وضاعت على المهاجرين أملاكهم ، باستثناء حاملى الجنسية البريطانية والفرنسية ، الذين تلقوا تأكيدات بتعويضهم على ضوء الاتفاقيات التى عقدتها مصر مع بريطانيا وفرنسا . وفى سنة (١٩٥٧) ، قدرت الملكيةغير المنقولة التى تركها اليهود فى مصر بمبلغ (٢٤,٢) مليون جنيه مصرى (ثمن ١٠١,٢٥٥ فدانا من الأرض الزراعية ،و٢٨٠٧ بنايات عقارية) ثم استمرت الهجرة . ففى يونيو (١٩٦٧) لم يتبق من الـ (٨٥٠٠) يهودى الذين سجلهم تعداد (١٩٦٠) ، سوى (٣٠٠٠) يهودى . وخلال تلك السنوات ، ولاسيما فى يونيو (١٩٦٧) ، تم اعتقال الكثيرين . ففى ذلك الشهر تم ترحيل المئات منهم إلى المعتقلات ، بمن فيهم حاخامات القاهرة والاسكندرية . ولم يطلق سراحهم إلا بعد ثلاث سنوات ، فى يوليو ١٩٧٠ . وخلال السنوات القليلة السابقة ، لم يصرح لليهود بمغادرة مصر ، إلا من استطاع منهم توسيط البلاد الأجنبية . ومع ذلك غادر مصر معظم اليهود ، وقدر عدد الباقين فى منتصف عام ١٩٧٢ بنحو (٣٠٠) يهودى معظمهم من كبار السن . وفى مارس (١٩٧٢) ، رحل الحاخام الأكبر حاييم دويك إلى فرنسا . ولم يعد فى مصر حاخام لليهود »[١٧١] .

ويستطرد كوهين قائلا فى عرضه التاريخى المختصر هذا :

« لقد ألغيت المحاكم الملية اليهودية مع إلغاء المحاكم الشرعية والملية القبطية . ففى (٢٤ سبتمبر ١٩٥٥) ، صدر قانون بنظر المسائل ذات الطابع الشخصى أمام محاكم الدولة ، طبقا للشرائع الدينية الخاصة للمتقاضين . ومع ذلك اعترف هذا القانون للشريعة الإسلامية بالامتياز . فنص على أنه فى حالة اختلاف ديانة المتقاضين – كأن يكون أحدهم قبطيا أرثوذكسيا والآخر قبطيا كاثوليكيا – يكون الحكم بناء على الشريعة الإسلامية . بل نص بعد ذلك على أنه إذا اعتنق أحد المتقاضين الإسلام يكون الحكم فى القضية بناء على أحكام الشريعة الإسلامية . ولكن إذا اعتنق أحدهم ديانة أخرى غير الإسلام ، يتم النظر فى القضية طبقا لأحكام الديانة التى كان عليها قبل تحوله .»[١٧٢] .

ويختتم كوهين عرضه بقوله :

« ونلاحظ من تتبع التغيرات السياسية التى وقعت فى مصر خلال السنوات المائة الأخيرة ، فيما يتعلق بتأثيرها على اليهود ، أن هؤلاء تمتعوا حتى الأربعينيات بالمساواة التامة تقريبا ، نظريا وعمليا . ولكن وضعهم ساء بظهور المشكلة الفلسطينية ، ومانجم عنها فى نهاية الأربعينيات من الوطنية الكارهة للأجانب . وقد بلغ من سوء وضعهم أن غالبيتهم أبعدت من مصر أو فضلت مغادرتها بإرادتها »[١٧٣] .

لقد وقف كوهين فى عرضه للوجود اليهودى فى مصر عند سنة (١٩٧٢) ، التى ألف فيها كتابه عن « يهود الشرق الأوسط » . وليس لنا على هذه المرحلة تعليق كثير . ولكننا نلاحظ أن المرحلة – (من ١٩٥٦ إلى ١٩٧٢) –، تختلف قليلا فى روايتها المصرية ، ولاسيما رواية صحف المرحلة .

فى (١٨ ديسمبر ١٩٥٦) ، أى بعد انتهاء العدوان الثلاثى (حملة سيناء فى

التعبير الإسرائيلى) نشرت « الأهرام » تصريحا لمحمد عبد القادر حاتم ، رئيس الاستعلامات وقتها ، جاء فيه ، أن عدد اليهود فى مصر يبلغ سبعة آلاف بغير جنسية ، عدا (٣٥) ألفا يحملون الجنسية المصرية ، لم يبعد منهم أحد . ولكن الحكومة طلبت إلى (٢٨٠) شخصا مغادرة البلاد . وقد غادر منهم بالفعل ٢٦ شخصا[١٧٤] ومعنى هذا أن عدد اليهود الإجمالى وقتها كان نحو (٤٢) ألفا ، لم تبعد منهم السلطات – أولم تفكر فى إبعاد – سوى (٢٨٠) شخصا . وإذا أخذنا هنا عدد حاملى الجنسية المصرية فإننا نراه يزيد على (٥٠٪) من إجمالى عدد اليهود فى تعداد سنة (١٩٤٧) ، أى أن دعوى الكتابات الإسرائيلية بأن عدد حاملى الجنسية المصرية من اليهود بلغ (٥٪) تصبح دعوى باطلة ، ولاأساس لها .

وبينما يقول كوهين : إن عدد الراحلين حتى سنة (١٩٦٠) بلغ نحو (٣٦) ألفا ، منذ بداية حرب (١٩٥٦) ، يقول حاتم – أو نفهم من كلامه – : إن عددهم فى أواخر (١٩٥٦) ، بلغ (٤٢) ألفا . ومعنى هذا أننا إذا طرحنا من هذا العدد (٨٥٦١) ، وهو عدد اليهود الرسمى فى تعداد سنة (١٩٦٠) ، يكون عدد الذين خرجوا (٣٣٤٣٩) ، أى أقل مما ذكره كوهين . وكأننا – فى النهاية – أمام حسبة برما ، التى يتحدث عنها الفولكلور المصرى ، ويعدها دليلا على المراوغة والصعوبة !

فى (٣٠ يوليو ١٩٦٢) ، نشرت « الأهرام » – على أى حال – خبرا عن إسقاط جنسية (٢٤٨) يهوديا غادروا البلاد ولم يعودوا منذ عام . وأنذرتهم وزارة الداخلية بعد (٣) أشهر من سفرهم[١٧٥] . ولكنهم – فيما يبدو – لم يأبهوا بالإنذار ، فأسقطت عنهم الجنسية . وهذا إجراء متشدد بالطبع ، لأنهم يحملون الجنسية المصرية . ومع ذلك فمن الواضح أنهم خرجوا ولم يعودوا بمحض رغبتهم .

وفى (٢٤ فبراير ١٩٦٤) ، نشرت « روز اليوسف » مقابلة مع وكيل الحاخام حاييم دويك ، جاء فيها ، أن عدد اليهود وقتها بلغ نحو خمسة آلاف[١٧٦] .

كان هذا هو الموقف قبل حرب يونيو (١٩٦٧). وكان تعداد(١٩٦٦) ، قد سجل أن عدد اليهود فى مصر (٢٤٨٤) شخصا . فماذا حدث لهم فى تلك الحرب ؟ لقد اعترف الرئيس عبد الناصر فى تصريح نشرته « الأهرام » بأن السلطات اعتقلت نحو (٣٠٠ يهودى فى ٥ يونيو ١٩٦٧) ، بسبب التشكك فى عمالتهم لإسرائيل ، وأنه لم يبق منهم فى المعتقل سوى (١٥٠) شخصا حتى تاريخ التصريح فى (٥ مارس ١٩٦٨)[١٧٧] ، ومع ذلك كانت « الأهرام » قد نقلت فى (١٧ أكتوبر ١٩٦٧) خبرا عن « النيويورك تايمز » جاء فيه أن دويك صرح لمندوب الجريدة الأمريكية ، بأن عدد المعتقلين (٤٠٠) فقط من بين (٢٥٠٠) يهودى فى مصر[١٧٨] . وهنا نواجه حسبة برما من جديد . فالأرقام تختلف من مصدر إلى آخر ، لافى عدد المعتقلين فحسب ، وإنما فى العدد الكلى لليهود أيضا ، ويزيد هذا الاختلاف تصريح نشرته (الأهرام) أيضا لوزير الداخلية فى (٢٢) ديسمبر (١٩٦٧) جاء فيه أن عدد المعتقلين اليهود ، بلغ (٢٥٧) شخصا من جملة (٣٥٠٠) شخص ، وأن عدد المفرج عنهم حتى ذلك التاريخ بلغ (٢٣) شخصا[١٧٩] . ومع ذلك بلغ عدد اليهود فى مصر فى تعداد (١٩٦٨) نحو (٢٥٠٠) شخص أى بزيادة (١٦) شخصا خلال سنتين .

ومن الواضح أنه تم ترحيل عدد كبير من المعتقلين اليهود فى تلك الفترة ، ثم أفرج عن الباقين فى سنة (١٩٧٠) . وكان المفرج عنهم من حاملى الجنسية المصرية .

فى (٢١ يوليو ١٩٧٧) ، أى بعد نحو سبع سنوات ، نشرت « الجمهورية » مقابلة مع رئيس مجلس الطائفة فى مصر ، فيلكس سامباتورى ، جاء فيها : أن عدد اليهود قبل (١٩٤٨) بلغ (٢٠) الفا (وهو رقم كاذب تماما !) وأنهم هاجروا على ثلاث دفعات فى أعوام (١٩٤٨ ، ١٩٥٦ ، ١٩٦٧) على التوالى .

ولم يبق منهم سوى (٣٠٠) شخص فى مصر . بل لم يبق فى حارة اليهود بالقاهرة سوى ١٤ يهوديا[١٨٠] . وبعد عامين تقريبا نشرت الصحيفة ذاتها فى (١٧ أغسطس ١٩٧٩) أن حارة اليهود لم يبق بها سوى (٣) يهود[١٨١] .

من الواضح - مرة أخرى - أن هذا التناقص المستمر راجع - كما ذكر كوهين - إلى أن الباقين فى مصر من اليهود معظمهم عجائز . وإذا كان عددهم فى تعداد (١٩٧٢ قد بلغ ٣٠٠ شخص) ، فلابد أنهم أصبحوا اليوم - بمنطق كوهين السابق - نحو (٣٠) شخصا ، أى أنهم فى حالة انقراض مستمر ، مالم تحدث لهم معجزة ، أو يأتهم المدد البشرى من إسرائيل أو غيرها .

ولكن هل كان للموقف الرسمى والموقف الشعبى صلة بهذا التدهور الخطير فى وضع اليهود بمصر بعد (١٩٤٨) إلى الآن ؟

لقد حدثت فى مصر سلسلة من التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، منذ إعلان قيام إسرائيل حتى اليوم . وكان قيامها والدخول فى حرب معها سببا مباشرا من أسباب حدوث هذه السلسلة من التغيرات كما هو معروف . فكيف كان تأثير قيام إسرائيل على الموقفين الرسمى والشعبى فى مصر من اليهود ؟

من الملاحظ أن إعلان الأحكام العرفية فى مصر لمدة سنة ، ابتداء من (١٥ مايو ١٩٤٨) ، بسبب حالة الحرب مع إسرائيل ، لم يكن يعنى تغييرا جذريا فى الموقف الرسمى من يهود البلاد . فقد ظل الملك يحتفظ باليهود فى حاشيته ، وظلت علاقاتهم بالمسئولين ودية بشكل عام . فقد ذكر مزراحى فى كتابه الذى سبقت الإشارة إليه ، أن النقراشى باشا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت ، والحاكم العسكرى بمقتضى قانون الأحكام العرفية ، أعفى ليون كاسترو وبن زاقين من الاعتقال لصلتهما القديمة به ، بالرغم من نشاطهما الصهيونى البارز فى القاهرة والإسكندرية[١٨٢] . ولكن لم يمنعه هذا التدخل الشخصى من اعتقال كل من حامت حوله شبهة الشغب السياسى فى صف إسرائيل . وبالرغم من توقيع اتفاقية

الهدنة الدائمة بين مصر وإسرائيل فى (٢٤ فبراير ١٩٤٩) ، فقد امتدت الأحكام العرفية سنة أخرى ، بسبب تفاقم الإرهاب فى مصر ، وزعزعة الأمن التى أودت بحياة النقراشى نفسه . ولم يكن تفاقم الإرهاب وزعزعة الأمن مجرد ظاهرة عابرة ، وإنما كانا إفرازا طبيعيا لحالة وجود دولة إسرائيل داخل الجسم العربى فجأة . ونقول « فجأة » لأن الجماهير فى مصر ، لم تكن مهيأة لهذا الوجود ، أو تشعر بأنه وشيك ، ولا أحست باقترابه من خلال النشاط الصهيونى المتزايد لليهود فى مصر . وهكذا كان ظهور إسرائيل صدمة للجماهير ومثقفيها على السواء . ومن شأن الصدمة أن تخلق حالة من الإرهاب ، واختلال الأمن فى كثير من الأحيان .

وقد كانت هذه الصدمة مضاعفة أو مركبة فى الحقيقة . فبمقدار ماأصابت المصريين بالحزن ، وأصابت اليهود بالفرح ، سببت للجميع شعورا متزايداً بالقلق وعدم الأمان . وربما كان شعور اليهود فى مصر وقتها أكثر حدة ، بطبيعة وضعهم كأقلية . فلم يعودوا يأمنون على أنفسهم أو على أموالهم ، ولم تشد إسرائيل منهم إلا المتحمسين للصهيونية ، أو ذوى الوضع الاقتصادى المحدود ، الذين تأثروا بالدعاية الصهيونية . ومهما كان تحمس هؤلاء وأولئك لقيام دولة تحمل اسم « إسرائيل » فقد كانت الهجرة المتزايدة منذ ذلك الوقت دليلا على القلق العنيف ، لاعلى الفرح أو التحمس بوجه عام . والدليل على ذلك أن الهجرة لم تتوجه إلى إسرائيل وحدها ، وإنما توزعت على عدد من بلدان أوربا والأمريكتين . ومن الواضح أن المهاجرين إلى غير إسرائيل قد استشعروا نوعا من عدم الاطمئنان إلى المستقبل وسط موجة العداء التى طغت على البلاد العربية ضد إسرائيل .

لم يكن الموقف الرسمى ، مع هذا كله ، معاديا لليهود كيهود ، بالرغم من إجراءات الحراسة أو الاعتقال التى تعرضوا لها عند وقوع الصدام العسكرى مع إسرائيل . ولم تلبث الأمور أن هدأت بعد عام من إعلان إسرائيل . ولكن بدأ هذا الموقف الرسمى – ومعه الموقف الشعبى – فى التمييز على نطاق واسع بين

اليهودية والصهيونية . ولأول مرة تتخذ الدولة إجراءات ضد الصهيونية ، تمثلت أحيانا فى اعتقال دعاتها أو إبعادهم عن البلاد ، وتمثلت أحيانا أخرى فى إغلاق صحفهم كما حدث مع صحيفة « الشمس » ، التى صدر قرار بتعطيلها فى (١١ يونيو ١٩٤٨) ، ولم تصدر بعدها . ومع ذلك لم تمس الدولة الصحف اليهودية العادية ، ولم تقف فى وجه ظهور صحف جديدة . ففى سنة (١٩٥٠) ، أصدر ألبرت مزراحى ملحقا لصحيفة « التسعيرة » بالعربية والفرنسية ، كان ينشر أخبارا عن إسرائيل . وفى الوقت نفسه صرح له بإصدار صحيفة جديدة باسم « الصراحة » ظلت توالى صدورها حتى سنة (١٩٥٤)[١٨٣] .

وفى عام (١٩٥٢) ، شهدت مصر بداية تغيير كبير فى جميع أحوالها . وكان هذا التغيير أحد ردود الفعل لقيام إسرائيل . وشيئا فشيئا لم يعد هناك ملك ولاحزب للأغلبية ، ولاممثل للاحتلال يحكم الحاكم . وبذلك فقد اليهود فى مصر سندا كبيرا ، واهتزت الأرض التى يقفون عليها . ومع ذلك فقد أشار كوهين إلى حسن معاملة محمد نجيب لليهود ومجاملته لهم . وفى (١٣ يناير ١٩٥٣) شكلت لجنة لوضع مشروع دستور جديد للبلاد ، واختير زكى عريبى المحامى ممثلا للطائفة اليهودية فيها . وازداد فى الوقت ذاته تنبه سلطات الأمن للنشاط الصهيونى داخل البلاد . ففى سنة (١٩٥٤) حوكم (١٣) يهوديا بتهمة التخابر مع إسرائيل . ثم نفذ حكم الإعدام فى اثنين منهم هما ليون مرزوق وصامويل عازار .

يقول موريس مزراحى حول هذا الموضوع : إن عبد الناصر كان يدين بالفضل لسيدة يهودية ، تدعى مدام يعقوب فرج شمويل ، سكنت بجوار أسرته وهو طفل صغير بعد فقد أمه . وكانت تعامله كأحد أبنائها . فلما حكم على مرزوق وعازار بالإعدام ذهبت السيدة – التى كانت صديقة لأم الأول – إلى عبد الناصر ، وطلبت إليه تخفيف الحكم بالإعدام ، فوعدها بالتفكير فى ذلك ، ولكن الحكم نفذ فى اليوم التالى[١٨٤] . ومهما كان نصيب هذه الحكاية من الصحة فهى لاتدل على

عدم وفاء عبد الناصر ، كما يوحى بذلك مزراحى ، ولاتدل أيضا على أنه كان يضطهد اليهود . والدليل على ذلك يسوقه مزراحى نفسه ، حين يشير فى كتابه إلى أن ضباط مجلس قيادة الثورة ، كانوا يستشيرون سلفاتور شيكوريل فى الشئون الاقتصادية قبل هجرته سنة (١٩٦٧) ، وأن سفارة مصر فى باريس عرضت على إيزاك فاينا مصدر البصل الذى هاجر بعد وضعه تحت الحراسة عام (١٩٦٥) أن يعود إلى مصر لاستئناف نشاطه مع تعويضه ، بسبب تدهور تصدير البصل بعد رحيله[١٨٥] .

ومع ذلك يبدو من الطبيعى أن يكره اليهود الراحلون عبد الناصر . فقد مسهم حكمه بالكثير من الخسائر ، لا لأنه كان يعاديهم شخصيا ، وإنما لأنهم وقعوا – ضمن من وقع من المصريين الآخرين – فريسة لسياسات التأميم والحراسة التى طبقت فى عهده . ولم تذكر الدوائر الأمريكية ولا اليهودية ، التى ترددت على مصر فى عهده أى حادثة عن اضطهاده لليهود . ولكن من الواضح فى النهاية أن عبد الناصر غير موازين العلاقات بين يهود مصر وسلطاتها تغييرا جذريا . فلم يعودوا قريبين أو مقربين للسلطان مثلما اعتادوا فى الماضى . ولم يعد السلطان يميز بين اليهودى وغيره ، أو يفضله على غيره .

عندما مات عبد الناصر فجأة فى سبتمبر (١٩٧٠) ، تولى أنور السادات الحكم فبدأ عهدا جديدا مختلفا ، استمر حتى اغتياله فى أكتوبر (١٩٨١) . وخلال ذلك العهد كان اليهود فى حالة انقراض عددى مستمر كما أشرنا سابقا . ولكن مناخ سياسة الانفتاح التى استنها العهد ، وماتلاها من تغيير جذرى فى سياسات العهد السابق عليه ، فضلا عن الصلح مع إسرائيل ، خلق نوعا من الأرضية الجديدة لليهود ، مماثلة لما كانوا عليه قبل (١٩٥٢) . ولكن فراغ البلاد منهم قضى على فرصتهم فى الازدهار ، وإن كان لم يقض على ترددهم المستمر ومجيئهم على هيئة رجال أعمال وممولين ، اكتسبوا جنسيات أخرى . بل إن السادات نفسه

دعا بعض الراحلين سابقا إلى العودة . وكان ممن أسرعوا بتلبية الدعوة ألبرت مزراحى الذى جاء من أمريكا فى يناير (١٩٧٩) ، فقضى بعض الوقت فى القاهرة ثم عاد إلى مهجره . ولأول مرة منذ (١٩٤٨) بدأ الموقف الرسمى من اليهود فى التغير تماما ، حتى أن صحيفة « الجمهورية » نشرت فى (١٤ أبريل ١٩٧٧) تحقيقا بعنوان « مصر تدرس عودة اليهود المصريين المهاجرين إلى إسرائيل[١٨٦] » ولكن يبدو أن الدراسة لم تسفر عن شىء ، ولاسيما أن كوهين قد سبق أن حدد ملكية اليهود غير المنقولة فى مصر (عقارات وأراض) بمبلغ (٢٤,٢) مليون جنيه . فإذا علمنا أن هذا التقدير كان على أساس أسعار سنة (١٩٥٧) فلنا أن نتخيل التقدير بعد (٢٠) سنة . ويبدو أن هذا هو ماأسفرت عنه الدراسة ، التى أحيطت فى الوقت ذاته بأفكار عن فك الحراسات عن أملاك اليهود وتعويضهم .

وإذا كان هذا الموقف قد استمر بعد اغتيال السادات فلا شك أنه كان مرتبطا فى الأساس بمبادرته فى عرض الصلح على إسرائيل سنة (١٩٧٧) . ولكن من الملاحظ بشكل عام أن الموقف الرسمى من يهود مصر ، منذ إعلان إسرائيل ، لم يتغير تغيرا جذريا مثلما تغيرت ظروف البلاد وأحوالها السياسية والاقتصادية والاجتماعية . فقد ضمنت لهم الدساتير المتتالية والتشريعات القانونية ، خلال الفترة وضعا آمنا ، يقوم على المساواة فى الحقوق والواجبات ، حتى فيما عده كوهين تمييزا للمسلمين على غيرهم ، عند إلغاء المحاكم الشرعية والملية سنة (١٩٥٥) . فقد كان هذا الإلغاء عاما ، لم يميز بين المسلمين وغيرهم من الأقليات . وعلى الرغم من الموقف الرسمى المعادى لإسرائيل منذ (١٩٤٨ حتى ١٩٧٧) ، لم يمس هذا العداء حقوق اليهود فى مصر . وإذا كان موريس مزراحى قد أورد فى كتابه قائمة بأسماء النازيين الهاربين إلى مصر ، أو الذين عملوا فى مصر خلال عهد عبد الناصر فهذه القائمة لادليل عليها[١٨٧] . والدليل على عدم صحتها ، أن الخبراء الألمان الذين استعان بهم عبد الناصر – ممن سماهم مزراحى

نازيين – لم تظهر أسماؤهم فى القوائم النازية التى يحتفظ بها اليهود . بل إن إشارته إلى ماروجته الصحافة والإعلام – التابعـان للدولة – فى عهد عبد الناصر من عداء للسامية ، لم يكن موجها إلى يهود مصر ، وإنما كان موجها إلى إسرائيل ، وهذه طبيعة أى عداء سياسى بين الدول . وقد شمل العداء فى ذلك الوقت ، أمريكا وسياستها فى الشرق الأوسط .

ولكن من الملاحظ بشكل عام أيضا أن الموقف الرسمى المعادى لإسرائيل ، فى تلك الفترة ، قد أثر إلى حد بالغ فى الموقف الشعبى منها ، لا من اليهود ، فقد ظلت محلات اليهود – على سبيل المثال – تحظى بإقبال الشعب حتى تأميمها . ولعل أبناء الإسكندرية وزائريها يذكرون المطعم الشعبى للفول والفلافل ، الذى أداره يهودى يمنى الأصل يدعى بنيامين حتى رحيله إلى إسرائيل ، عقب حرب (١٩٥٦) . فقد كان هذا المطعم – على سبيل المثال أيضا – مفضلا عند زبائن الأطعمة الشعبية . ولم ينافسه وقتها أى مطعم آخر لمصرى غير بنيامين . ومع ذلك نلاحظ أن موقف المثقفين فى مصر ، قد بدأ فى التغير تجاه إسرائيل منذ (١٩٤٨) ، لا تُجاه يهود مصر . وبدأ التيار الذى يفرق بين اليهودية والصهيونية فى السيادة داخل مجال الفكر والثقافة . ولم يعد العقاد مثلا يكتب عن نوردو الصهيونى ، وإنما ألف وكتب عن الصهيونية وعدائها للإنسانية . وعلى هذا النحو ساد التمييز بين اليهودى والصهيونى ، دون المساس بيهود مصر . ولكننا نلاحظ أيضا أن هذا الموقف قد أصبح – خلال الفترة – شديد الحساسية إزاء قضايا اليهود بوجه عام ، لابمعنى العداء لهم ، وإنما بمعنى التحرج من الحديث عنهم . فلم تظهر قصائد أو مقالات فى العطف على يهود مصر كما ظهرت فى الحقب السابقة . وكف المثقفون المصريون عن التعرض لهم بالخير أو بالشر .

لقد شكلت إسرائيل الموقف الرسمى المعادى لها ، كما أثرت فى الموقف الشعبى من حيث ميله إلى السلبية تجاه يهود البلاد ، دون أن تعنى هذه السلبية

مقاطعتهم . وقد شجع على الموقف الرسمى الحساس تجاه إسرائيل ، والموقف الشعبى السلبى ، تجاه يهود البلاد،أن هؤلاء أنفسهم أخذوا فى التناقص المستمر . فلم يعودوا أكثرية كما كانوا .

كيف انعكس هذان الموقفان ، الرسمى والشعبى ، على نشاط اليهود فى المجالات التى سبق أن لاحظنا ازدهارهم فيها ؟

لقد نتج عن الخروج اليهودى المستمر منذ (١٩٤٨) تقلص مستمر أيضا فى أنشطتهم . وقد تدرج هذا التقلص أو الانكماش ، حتى أصبح نوعا من الغياب فى النهاية . فبالرغم من المحاربة الصريحة التى بدأت فى الظهور من جانب الدولة للنشاط الصهيونى ، نجد أن هذا النشاط قد انكمش تدريجيا . ومع ذلك نجح الصهاينة اليهود عام (١٩٥١) فى توزيع « الشيكل » (العملة الصهيونية) سرا على أعضاء المنظمات الصهيونية ، واتخذ النشاط الصهيونى طابع السرية حتى سنة (١٩٥٦) تقريبا ، حين أبعدت السلطات كثيرين ممن حامت حولهم الشكوك . وظلت السلطات تلاحق النشاط الصهيونى ، والنشاط الشيوعى لليهود حتى يونيو (١٩٦٧) ، وبعدها انكمش النشاطان بحكم الهجرات المتتالية . وهكذا الحال مع بقية الأنشطة العلنية اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا .

ونخلص من هذا ، إلى أن ظهور إسرائيل على مسرح المنطقة العربية ، قد أثر فى وضع اليهود فى مصر – وفى الدول العربية الأخرى أيضا – تأثيرا بعيد المدى ، وخلق قلقا عندهم لحساب إسرائيل بالهجرة إليها ،ولحساب غيرها بترك مصر إلى بلاد أخرى . ولم يكن من السهل على الموقف الرسمى ، والموقف الشعبى منهم أن يعزلا العداء لإسرائيل عن العطف على اليهود .

تعقيبان لا بد منهما

١ – يقول لانداو : إن الطبقتين العليا والوسطى من يهود مصر ، شعرتا بالأمان فى ظل الاحتلال البريطانى ، وقلدتا البريطانيين والفرنسيين فى أساليب حياتهم . ولاشك أن هذا – كما يقول أيضا – ساهم مساهمة فعالة فى تغريب مصر ، أى إلحاقها بركب الحضارة الغربية[١٨٨] .

ومن الصعب – فى الحقيقة – أن يقبل المنطق العلمى مثل هذا الحكم . فإذا كان البريطانيون – والفرنسيون من قبلهم – قد حاولوا إلحاق مصر بالحضارة الغربية ، فلم يكن هذا عملا متعمدا من أجل عيون مصر أو أهلها ، أو خاليا من المصلحة الذاتية على الأقل . وقد سبق أن قال بهذا الرأى كثيرون من دعاة الاستعمار الغربى . ولاحاجة بنا لمناقشته مناقشة تفصيلية ، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى أن شق الطرق ، ومد الخطوط الحديدية ، مثلا ، لم يكونا لإلحاق مصر بركب الحضارة الغربية ، وإنما كان الدافع إليهما تنظيم السيطرة على البلاد وتسهيلها ، فضلا عن أن اتصال مصر بالحضارة الغربية ، وأخذها مايتفق مع ظروفها ، قد تما فى عهد محمد على ، أى قبل الاحتلال البريطانى . ولكن بوصول الإنجليز إلى مصر رسميا عام (١٨٨٢) ، اكتشف اليهود المصريون – كأقلية – أن ثمة سيداً جديدا قويا قد ظهر على المسرح السياسى فى البلاد ، وأن هذا السيد يغريهم بالتعاون معه ، فأقبلوا عليه وكانوا من أعوانه ، مثلما كانوا من أعوان الملك . وبذلك ساهموا مساهمة فعالة فى خدمة أغراضه أولا ، بعد خدمة أنفسهم بالطبع . وهذه مسألة طبيعية تلجأ إليها الأقليات فى كل مكان من أجل حماية نفسها ، ولاتعاب على اليهود . ولكن لم يحدث مثلا – على امتداد الاحتلال البريطانى – أن شكل اليهود المصريون قوة تذكر فى الحركة الوطنية ، مثلما شكل أقباط مصر ، بالرغم من تقربهم إلى حزب الأغلبية ، الذى كان أبرز قواد هذه الحركة . ولم يزد دورهم على مجاملة الحركة الوطنية .

من الصعب أيضا فى مثل هذه الحالة أن نجد دوافع وطنية خالصة ، قادت إلى نقل اليهود لمنجزات الحضارة الغربية إلى مصر ، فهذه الدوافع لاتزيد على مايحمله الوسيط فى علاقته بين البائع والمشترى . وحين أسس اليهود أول بنك معروف فى مصر سنة ١٨٨٠ ؛ وهو البنك العقارى المصرى ، قبل الاحتلال ، فعلوا ذلك لتسهيل نشاطهم الاقتصادى فى البلاد ، وليس لإلحاق مصر بالحضارة الغربية . وحين أنشأ أغنياؤهم المستشفيات الإسرائيلية ، على أرض ممنوحة لهم من الدولة ، لم يكن ذلك إلا لخدمة الطائفة ومرضاها ، لا لإلحاق مصر بالحضارة الغربية أو لأى شىء آخر ، وهكذا الحال مع المدارس والصحف والشركات والمحلات والمصانع التى أسسوها .

وإذا تساءلنا : أى خير عاد على مصر من التجربة اليهودية فيها على مدى قرن ونصف ، فإن الجواب ، كما يظهر لنا ، هو أن هذا الخير كان عاديا عامة ، ولم يكن فيه مايمكن أن تتذكره الأجيال جيلا بعد جيل ، مثل بطولة وطنية معينة أو أثر علمى أو أدبى أو فنى بارز ، بل إن الذين برزوا منهم كأفراد فى الصحافة والمسرح مثل يعقوب صنوع ، أو الموسيقى والغناء مثل داود حسنى وليلى مراد ، كانوا من أشد اليهود بعدا عن اليهود بالمعنى العشائرى أو الأيديولوجى . فهؤلاء — على سبيل التحديد — كانوا أكثر اندماجا فى المجتمع المصرى ، وبعدا عن تفكير العشيرة اليهودية ، وأقل تحمسا للأحلام الصهيونية . وحتى حين تحمس بعضهم — مثل صنوع — فعلوا ذلك فى أواخر حياتهم ، حين كفوا عن العطاء والإبداع ، ناهيك عن عدم التدين الذى أدخل بعضهم — مثل ليلى مراد — فى دين آخر غير اليهودية.

تقودنا هذه الملاحظة إلى ملاحظة أخرى ، تتمثل فى أن هؤلاء الذين برزوا وتألقت أسماؤهم على المستوى الفردى ، نادرا مافكر فيهم المصرى العادى ،

على أساس أنهم يهود ، يختلفون عنه دينا أو حظا . ثم تقودنا إلى ملاحظة ثالثة ، تتمثل فى أن الصهيونية شغلت اليهود فى مصر خلال هذا القرن عن الإبداع المرموق فى غير مجالات الصحافة والمسرح والموسيقى والغناء ، على الرغم من فرص الازدهار التى أتيحت لهم كما لم تتح فى أحيان كثيرة للمصريين غير اليهود . فقد روجت الصهيونية بينهم فكرة الضيف التى عبرت عنها (أدا أهارونى) فى رواياتها ، كما رأينا فى بداية هذه الدراسة . ومن الصعب أن يشعر الضيف بالاستقرار النسبى اللازم فى عملية الإبداع . أما الذين لم يشعروا من اليهود بأنهم ضيوف على مصر ، فهم فى الحقيقة الذين أبدعوا وأجادوا فى إبداعهم . ومع ذلك كله ازدهرت أحوال اليهود وأنشطتهم بشكل عام ، ولم يكن فى هذا الازدهار خير كبير أو عميم لمصر ، بمقدار ماكان فيه من خير للطائفة وأفرادها ككل .

٢ — مامستقبل التجربة اليهودية فى مصر ، بعد أن لاحظنا انكماشها التدريجى عقب (١٩٤٨) إلى حد ينذر بالانقراض ؟

لعلنا لاحظنا على مدى هذه الدراسة أن العامل الأساسى فى ازدهار التجربة اليهودية وتوسعها فى مصر كان السياسة ، أو بمعنى آخر الموقف الرسمى للدولة من اليهود . ولعلنا لاحظنا أيضا أن هذا الموقف لم يتغير جذريا بعد عام (١٩٤٨) ، وإنما الذى تغير هو اليهود ، الذين أشعرهم ظهور إسرائيل بالقلق ، ودفعهم إلى الخروج الثانى من مصر ، كما سمته أهارونى فى رواياتها . فهل معنى هذا أن يعود اليهود إلى مصر كما أشارت جريدة « الجمهورية » فى تحقيقها عن دراسة الدولة لفكرة العودة ؟ الجواب على هذا أن الأمر لم يعد بهذه السهولة ، التى تصورها أصحاب دراسة فكرة العودة ، أو تصورتها الجريدة . فاليهود الذين خرجوا منذ عام (١٩٤٨ حتى ١٩٦٧) ، لم يعودوا بحاجة إلى العودة . فقد استقروا فى مهاجرهم ، وأصبحوا فى سن لاتسمح بالهجرة مرة أخرى ، إلا إذا

واجهوا اضطهادا فى هذه المهاجر ، بما فيها إسرائيل . فالذى هاجر منهم فى سن الشباب سنة (١٩٤٨) ، أصبح اليوم فى سن الشيوخ ، ولاحاجة به للهجرة مرة أخرى ، والبدء من جديد ، إلا إذا أقمنا له ملجأ للمسنين أو المتقاعدين .

وإذا كان هذا حلاً ، فهو حل مستحيل كما رأينا ، وهو فى الوقت ذاته أحد حلين ، أما الحل الآخر فهو أن تنمو البقية الباقية من يهود مصر ، وتتسع عن طريق التكاثر والانجاب ، وهذا يحتاج إلى قرون عدة بالطبع ، فضلا عن أن نمو اليهود فى مصر ، واتساع طائفتهم لم يتما فى العصر الحديث – على الأقل – عن طريق التكاثر والإنجاب ، وإنما تما عن طريق الهجرة المستمرة إلى مصر ، من البلاد ذات العداء لليهود ، بصفة خاصة ، فإذا علمنا أن هذه البلاد ، ولاسيما روسيا وألمانيا ، لم تعد معادية لليهود ، وأن الفارين من روسيا لايتجهون إلى إسرائيل ، ويفضلون عليها أوربا الغربية وأمريكا ، فإن فرصة هجرة يهودية جديدة إلى مصر أصبحت اليوم فى مستوى الانعدام .

سيمضى زمن طويل إذن قبل أن تنتعش التجربة اليهودية فى مصر مرة أخرى ، على الرغم من فرصة الصلح مع إسرائيل التى أتاحتها السياسة قبل الكياسة ، لأن هذا الصلح سيظل حبرا على ورق بالرغم من كل التأكيدات التى يعلنها طرفاه على استمراره والالتزام به ، مالم تغير إسرائيل سياستها فى المنطقة ، وتلتزم بهذا التغيير ، ويبدو أن إسرائيل ضد هذا التغيير ، حاليا على الأقل .

هوامش

1 - Ada Aharoni : **The Second Exodus,** Dorrance & Co., P.A., U.S.A., 1983, P. 63 .

2 - Ibid., P. 64 .

3 - Benjamin Gordon : **New Judea : Jewish Life in Modern Palestine And Egypt** . Arno Press, N.Y., U.S.A., 1977, P. 20 .

4 - Aharoni, op. cit., p. 64 - 65.

5 - Hayyim Cohen : **The Jews of the Middle East,** Israel Universities Press, Jerusalem, 1973, p. 50 .

6 - Marion Woolfson : **Prophets in Babylon : Jews in the Arab World** . Faber & Faber, London, 1980, P. 133 .

7 - Ibid., P. 102 .

8 - Aharoni, op. cit., p. 67.

9 - عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة المصرية ، ج٣ ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٢٧٥

10 - Cohen op. Cit., p. 70.

11 - Aharoni, op. Cit., P. 68.

12 - Op. cit., loc., cit.

13 - Ibid., pp. 69 - 70.

14 - عواطف عبد الرحمن : الصحافة الصهيونية فى مصر . دار الثقافة الجديدة ، القاهرة ، (١٩٨٠ ؛ ص ١٣١) .

15 - أحمد غنيم وأحمد أبو كف : اليهود والحركة الصهيونية فى مصر . كتاب الهلال ، القاهرة ، (١٩٦٩ – ص ٢١) .

16 - Aharoni, op. cit., pp. 70 - 71.

17 - وقد ذكرت المحاضرة أن المعلومة الأخيرة نقلتها عن صحيفة L'Aurore الفرنسية التى نشرت تصريح الملك فؤاد فى افتتاح الاتحاد الصهيونى العام .

18 - Ibid., pp. 71 - 72 .

19 - Abba Eban : **My People,** Weidenfeld and Nicolson, London, 1968, P. 160.

20 - راجع للمؤلف : الماسونية فى مصر .

21 - أعدت الباحثة رسالة للدكتوراه فى موضوع « صحافة اليهود الفرنسية » فى مصر .

22 - J. Landau : (The Jews in the Nineteenth Century Egypt), See, P.M Holt : **Political and Social Change in Modern Egypt,** Oxford University Press, 1968, P. 196 .

23 - Ibid., p. 203 (Footnote).

24 - انظر : سهام نصار : ص (٢٠ ، عواطف عبد الرحمن ، ص ١٧) .

25 - راجع : الرافعى ، فى أعقاب الثورة المصرية ، (ج١ ، مكتبة النهضة ١٩٤٧ ؛ ص ١٤٨) .

26 - انظر : سهام نصار ، ص (٢٠) .

27 - انظـــر : عواطـــف عبـــد الرحمـــن ، ص (١٧) .

28 - Maurice Mizrahi : L'Egypte et ses juifs, Louzanne, 1977, P.42.

29 - حين غزا بونابرت مصر سنة (١٧٩٨) ، كان اليهود أول من اعترف به وتعاون معه . وقد استعان بهم فى الترجمة والتحصيل والصيرفة ، وسمح لهم ببيع الخمور ، مما ساهم بعدها فى ثورة أكتوبر (١٧٩٨) ، ضد الأقليات غير المسلمة . وبعد رحيل بونابرت تغيرت نظرة الأهالى إليهم .

30 - Landau, Op. cit., p. 205.

31 - Cohen, op. cit., pp. 10 - 11 .

32 - Ibid., p. 11.

33 - Ibid., p. 47.

34 - Mizrahi, OP . Cit : P 70

35 - Landau, op. cit., p. 207.

36 - Cohen, op. cit., p. 49.

37 - انظر : غنيم وأبو كف ، مرجع سابق ، ص (٢٨ – ٣٤)

38 - Cohen, op. cit., p. 109.

39 - Ibid., pp. 109 - 112

40 - عندما بدأت كلية فيكتوريا نشاطها فى الإسكندرية سنة (١٩٠١) ، كان عدد التلاميذ من اليهود (١٠ من ٢٥) تلميذا فى الكلية . وفى سنة (١٩٠٦) ، كانوا (١٦٧) تلميذا من (١٩٦) . راجع : جرجس سلامة : تاريخ التعليم الأجنبى فى مصر ، طبعة مجلس الآداب والفنون ، القاهرة ، (١٩٦٣ ؛ ص ١٧٣ – ١٧٦) .

41 - Cohen, op. cit., p. 111.

42 - Mizrahi, op. cit., p. 69

43 - راجع : غنيم وأبو كف ، (ص ٢١ – ٢٧) .

44 - عبـــد الرحمـــن الرافعـــى : مصـــدر سابـــق ص (٢١٣).

45 - أكد مصطفى أمين واقعة غضب الملك على قطاوى بسبب مروره على سعد زغلول للتهنئة بعيد الفطر . كما ذكر أن كاسترو كان يناصر سعد زغلول ، ولم تكن له صلة به سوى أنه نشر مقابلة معه فى صحيفته ، ثم هاجمه عندما أخرجه الإنجليز من الوزارة . الأخبار : (١٩ فبراير ١٩٨٥ ص ٨) .

46 - الرافعى : مصدر سابق ، ص ٢٢٦ .

47 - سهام نصار ، مصد سابق ص (٣٥) . راجع أيضا : عواطف عبد الرحمن :- مصر وفلسطين . سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ، (١٩٨٠ ، ص ١١٠) .

48 - Mizrahi, op. cit p. 34.

49 - لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث ، ج٢ ، القاهرة ، هيئة الكتاب ، (١٩٨٣ ؛ ص ١٥٨) .

50 - غنيم وأبو كف ، مصدر سابق ، (ص ٢٥ – ٢٦) .

51 - راجع تفاصيل الحفلين فى : سهام نصار ، مصدر سابق ، (ص ٢٥ – ٢٦) . ويلاحظ أن بيشيوتو انتخب أول نائب يهودى فى البرلمان الوفدى عام (١٩٢٧) .

52 - Mizrahi, op. cit., pp. 34 - 38 .

53 - سهام نصار ، مصدر سابق ، (ص ٧٠ – ٧١ ، ص ٨٢) .

54 - Mizrahi, op. cit., p. 158.

55 - Landau, op. cit., p. 206.

56 - Woolfson, op. cit., pp. 102 - 103.

57 - Landau, op cit., p. 207.

58 - Ibid., p. 206.

59 - Ibid., p. 207.

60 - Cohen, op. cit., p. 48.

61 - Ibid., pp. 48 - 49.

62 - Ibid., P.49, see also Woolfson, pp. 177.

63 - عبد الرحمن الرافعى ، مصدر سابق ، (ص ٢٦٨ – ٢٦٩) .

64 - Mizrahi, op. cit, p. 34.

65 - Woolfson, op. cit., p. 101.

66 - Gordon, op. cit., pp. 8 - 9

67 - Ibid., p. 21.

68 - Mizrahi, op. cit., pp. 36 - 37.

69 - لويس عوض ، مصدر سابق ، (ص ٧٩) .

70 - عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية ، ط٣ ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، (١٩٦٦ ، ص ٤٣٩ – ٤٤٥) .

71 - Irene Gendzier : **The Practical Visions of Ya'qub Sanu'** Harvard Press, U.S.A., 1966, P. 56.

72 - Ibid., p. 77.

73 - Alexander Scholch : **Egypt for the Egyptians,** Ithaca Press, London, 1981, P. 334.

74 - Mizrahi, op. cit., p. 39.

75 - Theodor Herzl : **Complete Diaries,** Herzel Press, U.S.A., 1960. vol. 11, P. 527.

76 - Mizrahi, op. cit., p. 120.

77 - Ibid., pp. 120 - 121.

78 - جريدة مصر : (٢٤ مايو ١٨٧٩ ، ص ١) .

79 - Gendzier, op. cit., p. 71.

80 - المقتطف : أكتوبر (١٨٨٤ ، ص ١٢٨) .

81 - ديوان حافظ إبراهيم ، ج١ ، هيئة الكتاب ، القاهرة ، (١٩٨٠ ، ص ٢٢١)

82 - المصدر نفسه ، ص ٢٢١ – ٢٢٢ .

83 - عباس محمود العقاد : ساعات بين الكتب ، (ط٣ ، ص ٣٧)

84 - المصدر نفسه ، ص ٣٩ .

85 - غنيم وأبو كف ، مصدر سابق ، (ص ٢٧ – ٢٨) .

86 - الكاتب المصرى : (يونيو ١٩٤٦ ، ص ٣ – ١٢) .

87 - روزاليوسف : (٢١ فبراير ١٩٢٨ ، ص ٢٢) .

88 - الصباح : (٥ نوفمبر ١٩٢٨ ، ص ٢٢) .

89 - Mizrahi, p. 32.

90 - Landau, pp. 197 - 199.

91 - Cohen, pp. 70 - 71.

92 - Ibid., p. 71.

93 - Ibid., p. 72.

94 - Landau, p. 196

95 - Walter Laqueur : **A Hisstory of Zionism,** weidenfeld and Nicholson, London, 1972, P. Xiii.

96 - Herzl, vol. Iv, pp. 1443 - 1465.

97 - Ibid., vol. II, p. 876.

98 - سهام نصار ، مصدر سابق ، (ص ٢١ – ٢٢).

99 - المصدر نفسه ، (ص ٢٢) .

100 - المصدر نفسه ، (ص ٢٣ – ٢٤) .

101 - المصدر نفسه ، (ص ٢٦) .

102 - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

103 - Meyer Weisgal, ed.: **The Letters and papers of chaim Weizman,** First Series, Vol. VIII, Jerusalem, 1977, PP. 106 - 109

104 - Ibid., p. 107.

105 - IBID., P. 135

106 - Ibid., pp. 135 - 138.

107 - Weisgal, Vol. XI, p. 213.

108 - Ibid., p. 226.

109 - Ibid., pp 234 - 235.

110 - Ibid., vol. XVI, p. 26.

111 - Ibid., p. 182.

112 - Ibid., p. 279.

113 - Ibid., p. 356.

114 - **- Encyclopedia Judaica,** Jerusalem, 1977, VOI. 16, C. 1127 - 1128.

115 - Shlomo Avineri: **The Making of Modern Zionism,** Weidenfeld and Nicolson, London, 1981, PP. 159 - 186.

116 - غنيم وأبو كف ، ص (١٠٦ . راجع أيضا ص ٩٦ – ١١٦) ، حول تفاصيل نشاط هذه المنظمة فى مصر .

117 - المصدر نفسه ، (ص ١١١) .

118 - Weisgal, Vol. XI, p. 76.

119 - النظام : (١٩ ابريل ، ٥ مايو ١٩٢٢) .

120 - Weisgal, op. cit., p. 142.

121 - Thomas Mayer, **Egypt and the palestine Question,** Klaus schwarz Verlag, Berlin, 1983, P. 11.

122 - كان المستر وولتر سمارت السكرتير الشرقى للسفارة البريطانية زوجا لابنة فارس نمر وعديلا لجورج انطونيوس ، الذى اهتم بالقضية العربية ، وألف عنها بالإنجليزية .

123 - Weisgal, vol. VIII, P. 138.

124 - Ibid., p. 354.

125 - Ibid., p. 383.

126 - Ibid., p. 421.

127 - Ibid., p 337.

128 - Ibid, p. 338.

129 - Ibid., P. 465.

130 - Ibid., vol. XIX, p. 14.

131 - راجع تصريح على ماهر ، والأمير عبد الله لإلياهو ساسون مبعوث المنظمة فى (١٦ ابريل ١٩٤٦) فى : مذكرات وايزمان ، الطبعة الإنجليزية ، (ج ٢٢ ، ص ١٢٨) .

ويذكر وايزمان فى رسالة منه إلى السير ريجنالد كوبلاند فى (١٩ سبتمبر ١٩٤٦) ، أن ممثله فى مصر « كان على صلة ببعض الشخصيات السياسية المرموقة التى أبدت له استعدادها للمناقشة حول إيجاد حل على أساس التقسيم » — المصدر نفسه ، (ص ١٨٧ — ١٨٨) .

132 - Mizrahi, p. 104.

133 - Ibid., p. 163 .

134 - Ibid., p. 88.

135 - Weisgal, vol. XI, p. 184.

136 - السياسة الأسبوعية : (١٤ يوليو ١٩٢٨ ، ص ١١) .

137 - سهام نصار : (٥٣ — ٦٧) .

138 - المصدر نفسه : (٥٧) .

139 - المصدر نفسه : (٨٤) .

140 - المصدر نفسه : (٣٨) .

141 - المصدر نفسه : الصفحة نفسها .

142 - المصدر نفسه : (٤٠) .

143 - المازنى : فلسطين بين العرب والصهيونية ، مقال فى « الرسالة » فى (٣ ديسمبر ١٩٤٥ ص ١٣٠٤) .

144 - سهام نصار : (٤٢) .

145 - Weisgal, vol. XVIII, p. 336 وهذا نص الرسالة :

« عزيزى السيد صغير

علمت من سكرتيرى أنك تطالبنى بالمزيد من المال ، وهذا طلب يدهشنى ، فقبل بسفرك إلى سورية أرسلت لك مائة جنيه استرلينية بالتلغراف ، وأعطيتك (١٥) جنيها فى فلسطين ، واتفقنا على مبلغ مجموعه (١٥٠) جنيها لهذه الرحلة ، وهو يزيد على تغطية تكاليفها . فالرحلة من القدس إلى لندن والعكس لاتكلفنى أكثر من (١٠٠) جنيه ، ولذلك أحذرك من عبث إزعاجى بهذه الأمور المالية حين أجىء إلى باريس . وسوف أدفع لك مبلغ الـ (٣٥) جنيها المتبقية لك ، ولن أزيد عليها مليما . » .

146 - عبد العظيم رمضان : الفكر الثورى فى مصر ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، (١٩٨١ ، ص ٤٢ — ٤٣) .

147 - المصدر نفسه : ٤٤ .

148 - المجلة الجديدة : يناير (١٩٣٩) .

149 - عبد العظيم رمضان : مصدر سابق ، (ص ٥١ . ٥٣) غير أن تاريخ القبض على كورييل صوابه ماذكره حسن المصيلحى فى كتابه ص (٦٣ ، وهو ١٩٥١ لا ١٩٥٠) .

150 - أحمد مرتضى المراغى : غرائب من عهد فاروق ، دار النهار ، بيروت ، (١٩٧١ ، ص ٢١) .

151 - حسن المصيلحى : قصتى مع الشيوعية ، الشركة المتحدة للنشر ، القاهرة ، ١٩٧٩ ؛ ص ٦٣

152 - المصدر نفسه ، (ص ٣٣ – ٣٤) .

153 - المصدر نفسه ، (ص ٣٨ – ٣٩) .

154 - المصدر نفسه : (٤٩) .

155 - المصدر نفسه (ص ٤٩ – ٦٧) .

156 - لقد ظهرت محاولات صهيونية متعددة للاستفادة من الأفكار الاشتراكية والماركسية ، مثل كتابات ناخمان سيركين (١٨٦٧ – ١٩٢٤) الذى نشر عام ١٨٩٨ كتابا بعنوان « المشكلة اليهودية والدولة اليهودية الاشتراكية » ثم جاء بر بروخوف (١٨٨١ – ١٩١٧) فطور الفكرة وصنع هيكلا فكريا لما سمى باسم « الماركسية الصهيونية ». راجع فى ذلك :

Shlomo Aveniri, op. cit., pp 125 - 150

157 - Landau, 200 - 201.

158 - عبد العظيم رمضان : صراع الطبقات فى مصر ، المؤسسة العربية الحديثة ، بيروت (١٩٧٨ ؛ ص ٤٩) .

159 - Cohen, p. 88.

ومما يذكر أن دائرة المعارف اليهودية ، الطبعة الإنجليزية ، قالت : إن مصر عرفت العديد من المليونيرات اليهود مما لم تعرفه اى طائفة يهودية أخرى فى الشرق الأوسط ، ج٦ عمود ٥٠٠

160 - غنيم وأبو كف : (٦٢ – ٧٦) .

161 - المصدر نفسه : (٧٠) .

162 - Cohen, p. 86.

163 - فى سنة (١٩٣٦) ، قامت أندية المكابى بالإسكندرية برصد (١٣) ألف جنيه لشراء أراضى فى فلسطين لإيواء المهجرين اليهود من ألمانيا فى

ذلك العام – راجع فى ذلك كتاب :

Ali Abdo and K. Kasimieh, **Jews of the Arab Countries,** Palestine liberation Organization, Beirut, 1971, P. 68.

164 - Cohen, p. 112.

165 - Mizrahi, p. 89.

166 - Encyclopedia Judaica, voi. 6, c. 500.

167 - Ibid., C. 501.

168 - Cohen, p. 50.

169 - Ibid., p. 50 - 51.

170 - Ibid., p. 52.

171 - Ibid., pp. 52 - 53.

172 - Ibid., p. 53.

173 - الأهرام : (١٨ ديسمبر ١٩٥٦ ، ص ٦) .

174 - الأهرام : (٣٠ يوليو ٦٢) .

175 - روزاليوسف : (٢٤ فبراير ١٩٦٢ ؛ ص ٢٦) .

176 - الأهرام : (٥ مارس ١٩٦٨) .

177 - الأهرام : (١٧ اكتوبر ١٩٦٧) .

178 - الأهرام : (٢٢ ديسمبر ١٩٦٧) . وهذه الأرقام الواردة هنا صحيحة. وقد تصادف أن كان كاتب هذه السطور معتقلا وقتها وتأكد من صحتها .

179 - الجمهورية : (٢١ يوليو ١٩٧٧) .

180 - الجمهورية : (١٧ أغسطس ١٩٧٩) .

181 - Mizrahi, pp. 41 - 42.

182 - سهام نصار : (٧٢ – ٨١) .

183 - Mizrahi, p. 181.

184 - Ibid., pp. 63 - 73.

185 - الجمهورية : (١٤ ابريل ١٩٧٧) .

186 - Mizrahi, pp. 164 - 166.

ومن الطريف أن مزراحى يقول إن هؤلاء النازيين عملوا فى قطاعات الداخلية والإعلام فى مصر !

187 - Landau, p. 207.

188 - دخلت ليلى مراد الإسلام . ولم تكن الوحيدة بين اليهود . فهناك كثيرون اعتنقوا الإسلام ، ومنهم زكى عريبى المحامى ، وأحمد صادق سعد الكاتب الصحفى . ومع ذلك يقول كوهين فى كتابه السابق الذكر : « تعد حالات اعتناق الإسلام فى مصر بين اليهود نادرة جدا أيضا ، لأنه لاتوجد صلة كبيرة بين اليهود والمسلمين . واليهود يحتقرون المسلمين » . انظر :

Cohen, op. cit., p 167

التجربة الماسونية في مصر

الجزء الثانى

- مدخــل
- مرحلة التأسيس
- مرحلة الاستقرار
- مرحلة الانقراض

مدخل:

يلاحظ المتتبع لظاهرة الماسونية ، أن ماكتب عنها يعد من الغزارة بحيث يصعب حصره فى حيز ضيق ، حتى فى العربية[1] . ولكن هذه الغزارة تكاد تنقسم إلى فئتين من الكتابة متعارضتين كل التعارض : فئة تمدح وأخرى تقدح . وبين الاثنتين يتوه القارىء ، فلا دليل يهديه ولاكتاب واحد يشفي غليله ، ولاسيما فيما يتعلق بصلة الماسونية بالدين . وهذا ماعبر عنه الكاتب الإنجليزى ستيفن نايت بقوله :

« لقد سقط كل ماكتب تقريبا حتى اليوم عن علاقة الماسونية بالدين فى إحدى فئتين : فئة الهجوم على الماسونية من جانب أناس غير ماسونيين أو معادين للماسونية ، وفئة الدفاع عن الماسونية من جانب ماسونيين ملتزمين . ولايوجد،فى الحقيقة،شيء من جانب الأطراف الخارجية المحايدة »[2] .

ويبدو أن السر فى هذه البلبلة التى تثيرها الكتابة عن الماسونية بوجه عام يرجع إلى عنصر السرية فى الماسونية ، فالذين ينتمون إليها يحرصون على الدفاع عنها بالطبع ، لتبرير انتمائهم على الأقل . والذين يخرجون عليها يحرصون على مهاجمتها لتبرير خروجهم عليها . أما الذين لم ينتموا إليها فلا يمكن أن يتوصلوا إلى الحقيقة ، لأنهم لم يعرفوها من الداخل بحواسهم ، ولايملكون إلا الموازنة بين الدفاع والهجوم ، للتوصل إلى نقطة ترضى رغبتهم فى المعرفة، ومع ذلك فقد كشف تراث الماسونية عبر القرون الماضية عن الكثير من الوثائق ومظاهر التورط فى السياسة بصفة خاصة . ومن نقطة الموازنة بين الدفاع والهجوم هذه ، وكذلك من الوثائق والدراسات التاريخية،سنحاول فهم هذه الظاهرة ، وأسبابها ، وآثارها ، وانتقالها إلى البلاد العربية ، مع التركيز على مصر ، بصفتها أول وأكبر بلد عربى عرف نشاطها .

ربما يكون من الأنسب أن نبدأ بعرض لنوع معين من الكتابة عن الماسونية ، يتميز بالتركيز الشديد والإحاطة بالموضوع ، وهو النوع الذى نجده فى دوائر المعارف والموسوعات العامة . وقد اخترنا أربع دوائر من هذه : اثنتان منها تتمتعان

بثقة الكثيرين ، والأخريان جديدتان على هذا الميدان ، ولكنهما تحاولان الاستقلال برؤية معينة للأمور . وتشكل هذه الدوائر أو الموسوعات الأربع – فى الوقت نفسه – نوعا من التباين فى الرأى المطلوب فى مثل هذه الأحوال ، كما تعكس فى مجموعها أهم وجهات النظر المعاصرة فى هذا الموضوع بالذات ، سواء اتفقنا أو اختلفنا معها . وهذه الدوائر الأربع بترتيب اختيارنا لها – على أساس ترتيب ظهورها فى الإنجليزية – هى : البريطانية ، الأمريكية ، اليهودية ، السوفيتية .

يقول محرر مادة « الماسونية » فى « دائرة المعارف البريطانية » (طبعة ١٩٨١) إن الماسونية هى التعاليم والممارسات الخاصة بالطريقة الأخوية السرية للبنائين الأحرار والمقبولين (من غير البنائين) . وهى أكبر جمعية سرية فى العالم ، انتشرت بفضل تقدم الإمبراطورية البريطانية ، وظلت أكثر الجمعيات شعبية فى الجزر البريطانية ، وغيرها من بلدان الإمبراطورية (سابقا) وقد نشأت من النقابات التى ألفها البناءون عندما تولوا بناء القلاع والكاتدرائيات فى العصور الوسطى ، ولما توقف بناء الكاتدرائيات بدأت بعض محافل البنائين العاملين فى قبول أعضاء فخريين بها لتقوية تدهور الإقبال على عضويتها ، نتيجة توقف عمليات البناء ، ومن هذه المحافل نشأت الماسونية الحديثة النظرية أو الرمزية ، وبدأت بممارسات ورموز النقابات العاملة القديمة ، ولكنها مالبثت أن اتخذت فى القرنين السابع عشر والثامن عشر شعائر وتقاليد الطرق الدينية القديمة والأخوة الفروسية . وفى سنة (١٧١٧) تأسس المحفل الأكبر ، وهو رابطة تجمع جميع المحافل فى إنجلترا ، ثم انتقلت فكرة المحفل الأكبر إلى البلدان الأخرى .

ويضيف المحرر : إن الماسونية واجهت – منذ بدايتها تقريبا – معارضة شديدة من الأديان المعروفة ، ولاسيما من الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، ولم تلبث أن منعت فى الاتحاد السوفيتى والمجر وبولندا وأسبانيا والبرتغال وأندونيسيا ومصر وغيرها ، ولكن الماسونية ليست مؤسسة مسيحية كما فهمت خطأ فى كثير من

الأحوال ، فهى تضم كثيرا من عناصر الأديان وتعاليمها ، وتحض على الأخلاق والإحسان وطاعة قانون البلاد . ويشترط فى طالب عضويتها أن يكون ذكرا بالغا مؤمنا بوجود كائن أسمى ، ومؤمنا أيضا بفناء الروح . ومع ذلك اتهمت بعض المحافل بالتحيز ضد اليهود والكاثوليك وغير البيض . وقد اجتذبت فى البلاد اللاتينية المفكرين الأحرار والمعادين للأديان ، على حين اجتذبت فى بريطانيا وشمال أوربا والبلاد الأنجلوسكسونية كثيرين من البروتستانت البيض[٣] .

وفى موضع آخر يذكر المحرر أن المحافل الماسونية ازدادت فى إيطاليا فى نهاية القرن الثامن عشر ، مما أدى إلى ازدياد الرغبة فى النقاش السرى لمشكلات مختلفة . وحين قامت الثورة الفرنسية فى القرن ذاته ، لم يؤيدها جميع الماسونيين . وكانت لهم مطالب ديموقراطية فى بولونيا وميلانو ونابولى فى إيطاليا ، حيث ازداد عدد المفكرين الأحرار المؤيدين للجمهورية فى فرنسا ، وإن كانت الحكومات الإيطالية أجمعت على معارضة فرنسا وثورتها . ولكن لم تلبث محافل نابولى أن أيدت الثورة الفرنسية ، ثم بدأت الأنشطة السرية والمؤامرات السياسية فى الظهور ، حتى راح ضحيتها الكثيرون ، وهاجر بعض أعضاء المحافل إلى فرنسا[٤] .

وفى موضع آخر أيضا يقول المحرر : إن ظهور الجمعيات السرية ، ولاسيما الماسونية ، قد ازداد فى بولندا فى الفترة من (١٨١٩ إلى ١٨٢٥) بسبب اعتداء الملك إسكندر الأول على الدستور أكثر من مرة ، ثم ازداد ظهور هذه الجمعيات فى المدن البولندية الأخرى[٥] . ويقول فى موضع رابع : إن الماسونيين فى روسيا قد شاركو خلال القرن الثامن عشر فى الانفتاح على العلوم والمعارف ، وتبنوا تيارا إصلاحيا واضحا[٦] .

أما « دائرة المعارف الأمريكية » (طبعة ١٩٨٣) فيقول محرر مادة « الماسونية » : إنها اسم ودى لجمعيات تطوعية من الرجال ، تستخدم أدوات البنائين كرموز فى تلقين الحقائق الأخلاقية الأساسية التى تؤكد أبوة الله وأخوة البشر ، ومن قواعدها ألا تدعو أحدا للانضمام إليها ، وإنما يتقدم الطالب عن طريق عضو عامل ، وهدفها الرئيسى أن تخلق رابطة أخوية عالمية بين البشر الخيرين . وهى تعلم أعضاءها الاعتناء بمهاراتهم وتحسينها ، وخدمة الغير وحسن معاملتهم . ومع أنها ليست جمعية دينية ، فهى دينية من حيث إن أفكارها تتضمن أسس كثير من الأديان ، فضلا على أن اجتماعاتها تبدأ وتنتهى بصلاة ، وهى أيضا ليست جمعية سرية كما يزعم البعض أحيانا ، لأنها لاتخفى وجودها وأهدافها وعملها ، وتتوحد محافلها عادة تحت إشراف محفل كبير فى كل بلد أو ولاية أو وحدة سياسية ، ولكن لاتوجد سلطة ماسونية مركزية على مستوى العالم أو فى أمريكا أو كندا ، وإنما يوجد فى العالم كله نحو خمسة ملايين ماسونى معظمهم فى الولايات المتحدة (٣,٥ مليون) وينضم إليها أعضاء من مختلف الأديان والجنسيات . فهى دولية وديموقراطية بالرغم من أنها انتقائية فى عضويتها . وقد انضم إليها (١٤) رئيسا أمريكيا ابتداء من جورج واشنطن إلى جيرالدفورد - (نسى المحرر إضافة رونالد ريجان) .

ويضيف المحرر أن كثيرين من المشاهير فى العالم انضموا إلى الماسونية ، مثل الموسيقار موتسارت ، والممثل جون وين ، والجنرال ماك آرثر ، والمليونير هنرى فورد . وكان أول كتاب فى العالم الغربى عنها من تأليف بنيامين فرانكلين . ومع أنها دخلت الولايات المتحدة سنة (١٧٢٥) فقد تعرضت سنة (١٧٣٠) لأزمة نتيجة اختفاء أحد العمال فى نيويورك واتهام الماسونيين بإخفائه . وبسبب هذه الأزمة تكون حزب معاد للماسونية ، وأغلقت محافل كثيرة ، وانفض كثيرون عن الماسونية ، حتى هزم الحزب المعارض لها فى انتخابات (١٨٣٢) فخفت حدة

العداء ، واستأنفت المحافل نشاطها سنة (١٨٤٠) . ثم ازداد نموها حتى أصبحت اليوم تتصل بمنظمات خاصة للنساء والبنات والأولاد ، بعد أن كانت مقصورة على الرجال ، بل أصبحت تملك مستشفيات ودور رعاية ومؤسسات عيون وبنوك دم ، وتقدم منحا دراسية للطلاب[٧] (من أبناء الماسونيين بالطبع) .

وأما « دائرة المعارف اليهودية » فيقول محرر مادة « الماسونيون » إنهم أعضاء جمعية سرية نشأت من روابط المهنيين التى كانت تتكون أساسا من البنائين . ومنذ القرن السابع عشر ظهرت الجمعية كمؤسسة اجتماعية ، وأسست مبادئها وكلمات سرها ورموزها وشعائرها ، التى يعتقد أنها مستمدة من شعائر بناء أول معبد فى القدس . وقد بدأت الماسونية الحديثة فى إنجلترا سنة (١٧١٧) ثم انتشرت فى القارة الأوربية . وكانت المحافل تعد نفسها مرتبطة بأخوة واحدة ، فإذا أتاها عضو من أى محفل بشهادة عضويته ، وكان يستحق المساعدة ، تلقى مساعداتها على الفور ، وكانت تسمح بالتحاق أى شخص صادق وشريف من أى ملة عن طريق الترشيح والاختيار . وكان دستورها يقضى بأن يلتزم العضو « بذلك الدين الذى يوافق عليه جميع البشر محتفظين لأنفسهم بآرائهم الخاصة » كما يقضى بأن يعلن العضو تسامحه الدينى على أساس الاعتقاد بالله والكائن الأسمى ، وليس من المعروف ماإذا كان اليهود قد أثروا فى تشكيل الدستور وصياغة مواده ، « ومع ذلك فقد صيغ بطريقة تسمح بعضوية اليهود » ، ولذلك تم قبول أحد اليهود سنة (١٧٣٢) فى أحد محافل لندن حين طلب الالتحاق ، « وظلت أبواب المحافل الإنجليزية مفتوحة أمام اليهود من ناحية المبدأ ، بالرغم من وجود تمييز من الناحية العملية » .

ثم يقول المحرر أيضا : إن اليهود انضموا إلى المحافل الماسونية فى منتصف القرن الثامن عشر ، لافى إنجلترا وحدها وإنما فى هولندا ، وفرنسا ، وألمانيا . وفى سنة (١٩٧٣) أسس يهود لندن محفلا يهوديا أطلقوا عليه اسم « محفل

إسرائيل » ، ومع ذلك أصيب التسامح الماسونى بالضعف ، نتيجة هجوم القطاعات التقليدية من جميع الأديان على الماسونية وتشككها فى نواياها النهائية ، فقد حرمتها الكنيسة الكاثوليكية – ومازالت – فى إعلان أصدره البابا كليمنت السابع سنة (١٧٣٨) . وشكك فيها البروتستانت واليهود المحافظون . ورد الماسونيون باعتذار حاولوا فيه البرهنة على أن الماسونية ليست مؤسسة معادية للمسيحية ، وأنها لاتقبل إلا المسيحيين ، أما اليهود والمسلمون والوثنيون فليسوا أهلا لها ، « ومع ذلك لم يحدث أى اعتراض من ناحية المبدأ على طالبى العضوية من اليهود فى انجلترا وهولندا ، أما فى فرنسا فقد أزالت الثورة هذه الاعتراضات . وبذلك أصبحت الماسونية هناك نوعاً من الكنيسة العلمانية يشارك فيها اليهود بحرية . فأدولف كريميو (المحامى والوزير اليهودى الصهيونى الفرنسى) لم يكن ماسونيا منذ شبابه الباكر فحسب ، بل أصبح فى سنة (١٨٦٩) البناء الأعظم للمحفل الأكبر على الطريقة الاسكتلندية فى باريس » .

ويمضى المحرر اليهودى فيقول : إن دخول اليهود المحافل الألمانية ظل أمراً مختلفا عليه طوال أجيال ، وإنهم ظلوا ينضمون للمحافل كلما خرجوا من ألمانيا ، فى سفر إلى هولندا وانجلترا وفرنسا قبل الثورة . وحين غزا نابليون ألمانيا بجيوشه أنشأت هذه الجيوش عددا كبيرا من المحافل فى ألمانيا ، بل تأسس فى فرانكفورت محفل يهودى باسم « الفجر الوليد » واعتمده محفل الشرق الأكبر فى باريس سنة (١٨٠٨) مما أحنق بعض المحافل الأخرى فى ألمانيا ضد اليهود ، فعدلت دساتيرها من أجل استبعادهم من عضويتها ، ثم جاء المثقفون الألمان فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، ممن كانوا ماسونيين فاحتجوا على استبعاد اليهود ، وساندهم فى ذلك ماسونيون من هولندا وإنجلترا وفرنسا ، بل من نيويورك . وفى سنة (١٨٤٨) سمحت بعض المحافل الألمانية بدخول اليهود كزوار على الأقل ، ثم جاءت ثورة (١٨٤٨) ، فأزالت بعض الفقرات التى تستبعد اليهود فى دساتير المحافل ، واعترفت المحافل الألمانية بمحفل الماسونيين اليهود فى فرانكفورت .

وظل موقف اليهود بين الشد والجذب حتى هبت ريح العداء للسامية على رايخ بسمارك ، فاتخذتها المحافل الألمانية سنة (١٨٧٦) سياسة لها نحو اليهود . وظل الصراع قائما بين الطرفين طوال القرن الماضى .

يقول المحرر أيضا فى هذا العرض التاريخى : إن اليهود والماسونيين اتهموا فى ألمانيا خلال ستينيات القرن الماضى بتخريب المجتمع التقليدى وتدميره ، ثم انتقل هذا العداء إلى فرنسا ، فظهرت كتب كثيرة تؤكد « الخطر اليهودى الماسونى » ، ولعبت فكرة التعاون السرى بين اليهود والماسون دورا مشبوها فى قضية دريفوس (الضابط اليهودى الفرنسى ، الذى اتهم بالخيانة فى الحرب مع ألمانيا سنة ١٨٧٠) وأصبحت إحدى بَدهيَّات العداء للسامية ، كماتضمن كتاب « بروتوكولات حكماء صهيون » – الذى نشر فى روسيا لأول مرة سنة (١٩٠٤) فكرة مؤامرة يهودية ماسونية للسيطرة على العالم ، وكانت الماسونية فى ألمانيا حتى ذلك التاريخ تعد عند معظم الدوائر جمعية محافظة ومعادية للسامية إلى حد ما ، فلما ترجمت البروتوكولات إلى الألمانية والانجليزية فى عشرينيات هذا القرن عُدَّ اليهود والماسونيون عملاء سريين تسببوا فى اشتعال الحرب الأولى وهزيمة ألمانيا ، وأصبح شعار « اليهود والماسون » صيحة حرب عند اليمين الألمانى ، استغلها هتلر فى صعوده إلى السلطة . وخلال الحرب الثانية اضطهد النازيون الشيوعيين والماسون واليهود معا .

وينتقل المحرر بعد ذلك إلى الولايات المتحدة الأمريكية فيقول : « إن الأسماء اليهودية تظهر فى قوائم مؤسسى الماسونية هناك . والحق أن اليهود هم فى الغالب أول من أدخل الحركة هناك » ويضرب أمثلة عديدة على ذلك ،[8] من بينها مثال موسى مايكل هيز الذى أدخل الطريقة الإسكتلندية إلى الولايات المتحدة ، وعين سنة (١٧٦٨) نائب مفتش عام على الماسونية فى أمريكا الشمالية كلها ، ونظم محفل الملك داود فى نيويورك ، ثم نقله إلى نيوبورت سنة (١٧٨٠) ثم شغل

درجة البناء الأكبر للمحفل الأكبر فى ماساتشوستس من (١٧٨٨ إلى ١٧٩٢) . وقد بلغ من إيمان اليهود بالماسونية فى ذلك الوقت ، أنهم استخدموا شعائرها فى الاحتفال بوضع حجر الأساس للمعبد الجديد ، الذى أقاموه سنة (١٧٩٣) بمدينة تشارلستون فى ولاية ساوث كارولينا ، أما مابعد ذلك فلا يظهر لليهود أثر كبير كهذا فى أمريكا . ولكنهم حملوا المحفل الأكبر فى نيويورك سنة (١٨٤٣) على توجيه رسالة إلى المحفل الأم فى برلين ، بالشكوى من رفض المحافل الألمانية قبول اليهود المسجلين فى المحفل الأمريكى ، بسبب يهوديتهم . وقد ظلت الماسونية الأمريكية على ولاء لمبدأ العلمانية فى شئون الدين ، ولم يحدث أن استبعدت اليهود فى يوم من الأيام . بل إن طابع السرية والشعائر والملابس الخاصة الذى ميز محفل بناى بريت فى سنواته الأولى كان يعكس تأثير الممارسات الماسونية عند اليهود ، ورغبتهم فى تقديم بديل ماسونى ، داخل الجماعة اليهودية هناك .

يختتم المحرر هذا العرض الذى استطردنا فيه معه لجدة معلوماته على الموسوعات المشابهة ، فيتحدث عن الماسونية فى إسرائيل ، فيقول : إن القدس تعد عند الماسونيين مسقط رأس الماسونية منذ إقامة معبد الملك سليمان ، ولكن المحافل لم تعرف هناك إلا فى منتصف القرن الماضى ، فقد تأسست خلال الحكم العثمانى ستة محافل فى فلسطين كان أولها فى القدس فى مايو (١٨٧٣) على شريعة المحفل الأكبر فى كندا ، ثم ازداد عدد المحافل مع الزمن حتى تشكل المحفل الأكبر المتحد سنة (١٩٥٣) من جميع المحافل العاملة التى بلغ عددها (٦٤) محفلا سنة (١٩٧٠) . وتضم هذه المحافل (٣٥٠٠) عضو عامل من اليهود والمسلمين والمسيحيين والدروز[٩] .

وأخيرا نصل إلى « دائرة المعارف السوفيتية الكبرى » (طبعة ١٩٧٧) . وفيها يقول محرر مادة « الماسونية » : إنها حركة دينية وخلقية ، تدعو إلى وحدة البشر على أساس الإخاء والحب والمساواة والعون المشترك . وعلى هذا الأساس من الأفكار البورجوازية دخلتها عناصر صوفية . ثم ينقل المحرر عن الواعظ اللندنى الماسونى جيمس أندرسن فى كتابه « الدساتير » (صدر سنة ١٧٢٣) قوله : « إن الماسونى كان يُلَقَّنُ ألا يكون كافرا غبيا ، وألا يكون مفكراً حرا غير متدين » ، وأن يحترم السلطات المدنية وألا يشترك فى الحركات السياسية . ولأن الماسونيين رفضوا المعتقدات الكنسية الجامدة ، فهم يحترمون الله كمهندس أعظم للكون ، ويتسامحون مع أى دين ، ويدعو بعضهم بعضا بكلمة « الأخ » ، ولهم درجات رئيسية فى المحافل مثل : التلميذ أو الطالب أو المريد أو الصبى ، زميل الصنعة أو الشريك الأستاذ أو البناء أو « الأسطى » ، الأستاذ الأكبر أو « كبير الأسطوات » إذا شئنا كلمة عامية مرة أخرى . كما أنهم يستخدمون أدوات البناء الرمزية مثل القدوم والفرجار والبوصلة والمزولة والقفافيز (القفازات بالعامية) .

ويضيف المحرر : إن الماسونية كانت تهدف إلى توحيد العالم فى اتحاد أخوى دينى ، ثم اتخذت طابعا أرستوقراطيا فى أوربا ، وازداد إلحاحها على الصوفية بدلا من العقلانية ، ولكن دورها ونشاطها يختلفان من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر ، وكان أنصارها يضمون ملوك روسيا (فردريك الثانى والثالث) وإنجلترا (جورج الرابع وإدوارد السابع والثامن) والسويد (جوستاف الثالث) فضلا عن رؤساء الولايات المتحدة مثل واشنطن وترومان ، والساسة مثل تشرشل ، والفلاسفة والأدباء مثل فولتير وفخته (الألمانى) وجوته وتورجنيف ، والفنانين مثل موتسارت وهايدن . وقد حاول أنصارها فى إيطاليا وبولندا ، منذ مطلع القرن الماضى ، أن ينقلوا نشاطها إلى السياسة والتآمر بعد فترة كان البابوات قد أصدروا خلالها عددا من المنشورات التى تدين الماسونية وترمى أعضاءها بالإلحاد .

يقول المحرر أيضا : إن روسيا لم تعرف المحافل الماسونية قبل ثلاثينيات القرن الثامن عشر ، ومع ذلك قامت هذه المحافل بدور بارز فى المعارضة السياسية ، واستقطبت كثيرا من المثقفين ، وتفاوت فكر أصحابها بين الثورية والإصلاح والمحافظة ، حتى منعت فى روسيا كلها سنة (١٧٩٢) عند قيام الثورة الفرنسية (١٧٨٩) ، ثم عادت إلى الظهور فى عهد القيصر إسكندر الأول ، ولكن تحت رقابة الحكومة . ومع ذلك لم تكف عن التآمر وتشجيع حركة « الديسمبريين » المعارضين للقيصر . ثم انفصل عنها أصحاب هذه الحركة فى بداية عشرينيات القرن الماضى ، وتعرضت للمنع مرة أخرى سنة (١٨٢٢) . وبرغم عودتها مرة أخرى – حتى منعها نهائيا بعد ثورة (١٩١٧) – لم تلعب دورا يذكر فى تاريخ الفكر الروسى[10] .

الخلاصـــة

ماذا نستخلص من هذا العرض الموجز الذى حاولنا فيه تفادى تكرار المعلومات المحتمل فى مثل هذه الحالة ؟

يمكن أن نستخلص أمورا كثيرة فى الحقيقة ، ولكننا نجمل هذا الكثير فى نقاط محددة أهمها :

١ – أن الماسونية نشأت فى إنجلترا متأثرة بالشكل التنظيمى لنقابات البنائين . ويلاحظ أن هذا الشكل التنظيمى ذاته لم يكن مقصورا على إنجلترا أو أوربا ، وإنما كان معروفا فى الشرق ، فقد كانت الحرف فى مصر خلال العصور الوسطى وحتى القرن الحالى – على سبيل المثال – تنتظم فى أشكال وأوعية تنظيمية شبه مغلقة . وكان لكل حرفة كبير أو شيخ يتبعه « أسطوات » وصبيان أو مساعدون ، ينتمون إليه عادة بصلة القرابة حفاظا على سر المهنة من الضياع ، وهكذا انتفعت

الماسونية ، بما كان معروفا عند أصحاب حرفة البناء من التخفى والتعاون والمحافظة على سر المهنة ، ولعلها كانت أمينة فى احتفاظها ببعض رموز البناء ودرجات العاملين فى حرفته . أما مايقال فى كثير من الكتب الماسونية عن قدم الفكرة ، وممارستها قبل ظهورها فى انجلترا فأمر لايوجد عليه أى دليل أو مستند تاريخى ، بالرغم من أن الجمعيات السرية أقدم من التاريخ ذاته فى الغالب ، ومن إنجلترا انتقلت الماسونية إلى البلدان الأخرى فى أوربا ، ثم انتشرت عن طريقها فى مستعمراتها .

٢ – أن الماسونية أكبر جمعية سرية فى العالم ، كما قال محرر الدائرة البريطانية ، وإن كان محرر الدائرة الأمريكية ينكر هذه السرية ، بدعوى أن الماسونية لاتخفى وجودها وأهدافها وعملها . وإذا صح ذلك أيضا فلماذا لاتصبح المحافل مثل الأندية ذات العضوية الخاصة ؟ وإذا صح ذلك مرة أخرى اليوم فلم يكن صحيحا بالأمس ، لافى إنجلترا ولا فى بلدان أوربا والشرق الأوسط . ومن الملاحظ أن الماسونية فى أمريكا بالذات ، قد بدأت فى التحرر فى بعض النواحى . فالمحافل الأمريكية هى الوحيدة فى العالم – تقريبا – التى فتحت بعض أبوابها للنساء والصبيان والبنات ، وبدأت تمارس نشاطا اجتماعيا واضحا ، ومع ذلك تظل اجتماعاتها مغلقة ومناقشاتها سرية . فهل لزمت الماسونية السرية حتى تثير فى طالبيها الفضول لمعرفة الأسرار ؟ لو كان الأمر كذلك لفتحت عضويتها لمن يتقدم لالمن يرشحه عضو عامل أو أكثر ، ومن الملاحظ أيضا أن أى انحراف للماسونية – حتى من وجهة نظر أنصارها – كان ومازال يرجع إلى طابع السرية فيها ، وقد كانت هذه السرية مغرية جدا – فى كثير من الأحوال ، فى ظل الأنظمة الدكتاتورية والشمولية ، بالتآمر والجرائم ، لسبب بسيط ، هو أن المحافل هى الجمعيات السرية الوحيدة المصرح بها فى البلاد التى تحتضنها . وستظل هذه السرية ، سواء كانت صحيحة أو مزعومة ، مكمن الخطر دائما فى الماسونية .

٣ – أن الماسونية تصر على عنصر الدين ، بمعنى أنها تدعو أعضاءها إلى أن يكونوا على دين من جهة ، وأن يتفقوا على أن الكون يسيره مهندس أو بناء أعظم ، ولكنها فى الوقت نفسه تصر على عدم الخوض فى الدين أو السياسة ، فكيف يتفق هذا مع ذاك ؟ وإذا كانت الأديان المعروفة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر فما هو الجديد الذى تقدمه الماسونية ؟ هل فرغ أنصار هذه الأديان من تحقيق المعروف والخير والقضاء على المنكر والبغى حتى يتطلعوا إلى أهداف أخرى ؟ وإذا كانت الماسونية فى الماضى والحاضر قد انتشرت هذا الانتشار ، وأغرت الملوك والرؤساء والقواد وأولى الحل والعقد بالانتماء إليها ، فهل استطاع هؤلاء أن يقدموا من خلالها خدمة واحدة للبشر ؟ هل استطاعت « الأخوة الماسونية » أن تمنع أو تحل مشكلة تمس الوجود البشرى على ظهر الأرض ؟

لاشك أن عمل الخير كثير الأبواب ، ولكن الإنسان العادى حين يقرأ أو يسمع عن تلك الأسماء الرنانة ، داخل المحافل الماسونية ، يتوقع من أصحابها شيئا أكبر من بناء مستشفى ، أو التبرع بمنحة دراسية لطالب ، أو زجاجة دم لجريح . أما ملاحظة محرر الدائرة الأمريكية ، أن الماسونية ليست جمعية دينية ، ولكنها دينية المبادىء ، فلا تحل المشكلة ولاتجيب عن هذه الأسئلة .

٤ – أن الماسونية دخلت أمريكا على أيدى اليهود . ومعنى هذا أن اليهود أدخلوها كأقلية حتى يصنعوا لأنفسهم نوعا من المظلة الواقية ، فمن الواضح من العرض السابق أن الماسونية – فكرة وتطبيقا – نشأت بدافع أساسى ، هو خدمة أقلية معينة تمثل مجموع أعضائها ، حتى حين بدأت كنقابة – أو مايشبه النقابة – للبنائين القدماء . ولايمكن تصورها – حتى اليوم – خارج نطاق الأقلية . فهى تنظيم للأقلية بحكم النشأة والممارسة ، وليس من المستبعد – حتى فى غياب الوثائق – أن يكون لليهود – كأقلية – دور فى نشأتها القديمة أو الحديثة ، ولا

فى توجيه بعض محافلها لخدمة أغراضهم كأقلية ، فهذا كله أمر طبيعى لايستبعد ولايستغرب . بل يوحى به قول محرر الدائرة اليهودية : إن دستور الماسونية قد صيغ بطريقة تسمح بعضوية اليهود ، فلماذا إذن لايحتمل أن يكون لليهود ضلع فى هذا الدستور ؟ لقد واجهوا – عبر تاريخهم الطويل – اضطهاداً مريرا فلماذا لانتوقع منهم أن يعملوا على حماية أنفسهم بمختلف الوسائل ، وأن ينشطوا داخل المحافل ؟

لقد ذكر المحرر اليهودى اسم أدولف كريميو (١٧٩٦ – ١٨٧٤) الذى مر بنا ، وهذا الرجل يحتل عند اليهود والصهاينة مكانة مرموقة ، ولانعتقد أنه كان ليتأخر عن خدمة بنى ملته عن طريق نفوذه ودرجته فى الماسونية . فقد كان أيضا رئيسا للطائفة اليهودية فى باريس ، وهذا أمر طبيعى يتساوى تماما مع استغلال الإيطاليين والبولنديين للمحافل الماسونية فى بلادهم ، ونجاحهم فى تحويلها إلى خلايا سياسية وتآمرية ، لخدمة أهدافهم . فمن حق أى جماعة إذن أن تستغل الماسونية – أو غيرها – مادامت تشكل فيها مركز قوة ، وسوف نرى كيف استطاع اليهود والصهاينة فى مصر أن ينتفعوا بمركز القوة ، الذى حققوه فى المحافل الماسونية .

٥ – أن الماسونية فى النهاية ظاهرة نسبية ، تختلف فى نشأتها وتطورها من بلد إلى بلد ومن عصر إلى عصر ، بل إن سريتها أو علنيتها كانت دائما مسألة نسبية أيضا تحددها التيارات السائدة فى المحافل واتجاهات الريح السياسية فى الدولة .

مرحلة التأسيس

كانت مصر أول بلد عربى تدخله الماسونية قادمة من أوربا .

ولكن يجب أن نفرق بين الماسونية فى أوربا وأمريكا ، والماسونية فى غيرهما ، ولاسيما فى المستعمرات الفرنسية والبريطانية ، والسبب فى هذه التفرقة ، أن الماسونية دخلت المستعمرات فى ظل المستعمرين وعلى أيديهم ، ومهما قيل عن خلو أهدافها من أى نشاط سياسى فى البلدان التى نشأت فيها أصلا - ولاسيما بريطانيا - فقد كان من المستحيل تقريبا أن تخلو من هذا النشاط فى المستعمرات ، معاديا أو متعاطفا ، ومهما تقنعت فى هذه المستعمرات بأقنعة الحرية والإخاء والمساواة ، فهذه الأقنعة تصبح بالضرورة ذات وجهين : وجه مع الأهالى ، أهالى المستعمرة ، ووجه آخر ضدهم ، أو ليس معهم على الأقل .

كيف-إذن - ومتى ، دخلت الماسونية مصر ؟

سنغض النظر عما ذكرته دائرة المعارف الأمريكية ، من أن بعض المصادر ترجع تاريخ الماسونية إلى زمن بناء الأهرامات فى مصر[١١] . وسنغض النظر أيضا عما ذكرته دائرة المعارف اليهودية ، من أن البعض يعتقد أن الماسونية استمدت شعائرها من شعائر بناء هيكل الملك سليمان فى القدس ، ونشأت مع بنائه ، أى أن لليهود ضلعا عريقا فى تأسيسها . وسنغض النظر مرة أخرى عما ذكرته دائرة المعارف البريطانية ، من أن بعض المصادر ترجع شعائر الماسونية إلى طائفة الدروز فى الشام[١٢] . فهذه وغيرها دعاوٍ أقرب إلى التمحك فى التاريخ القديم حتى تظهر الماسونية بمظهر العراقة ، والعراقة فى التاريخ لاتكتسب - كما نعرف - إلا بنص أو وثيقة أو مستند .

ومن الممكن تقسيم تاريخ الماسونية فى مصر – على أية حال – إلى ثلاث مراحل :

١ – **مرحلة التأسيس** . وتمتد من غزو مصر على يد نابليون بونابرت سنة (١٧٩٨) حتى غزوها مرة أخرى على أيدى الإنجليز سنة (١٨٨٢) .

٢ – **مرحلة الاستقرار** . وتمتد من الاحتلال الإنجليزى حتى اشتعال الحرب بين العرب واليهود فى فلسطين سنة (١٩٤٨) .

٣ – **مرحلة الانقراض** . وتمتد من حرب فلسطين حتى صدور قرار منع الماسونية وإلغاء محافلها سنة (١٩٦٤) .

ونظرا لصعوبة البحث فى هذا الموضوع واختفاء سجلات المحافل ومحاضر الجلسات وألوان التراث الماسونى الأخرى فلا مفر ابتداء من الاعتماد على صحف الفترة ، والكتب والنشرات والدراسات عن الماسونية .

تقول بعض المصادر : إن مصر عرفت الماسونية سنة (١٧٤٧) فى عهد المماليك، حين أسس الأجانب محفلا بمدينة الإسكندرية فى ذلك التاريخ[١٣] . ولكن هذه الرواية ضعيفة . فالمشهور والمتواتر أن مصر عرفت المحافل الماسونية عقب غزو بونابرت سنة (١٧٩٨) ، وقد كان جرجى زيدان أول من أرخ فى العربية لتاريخ هذه المرحلة ، وعنه نقلت جميع المصادر العربية التالية بعد صدور كتابه « تاريخ الماسونية العام » سنة (١٨٨٩) .

وقد قسم زيدان الماسونية فى مصر إلى طورين على النحو الذى يقسمه إليها المؤرخون الأوربيون : الطور العملى المتصل بتكوين منظمات البنائين الفعليين أو نقاباتهم ، والطور الرمزى المتصل بالمحافل الحديثة ، التى أخذت رموزها عن البنائين القدامى . وعد الماسونية قديمة العهد فى مصر من حيث طورها العملى ، « لأن الجمعيات المصرية السرية كانت تعلم مايقرب كثيرا من تعاليم الماسونية » .

وهذه الجمعيات قديمة فى رأيه ، ترجع إلى عهد بناة الأهرامات والمعابد الضخمة . ومع ذلك فقد جاءت الماسونية إلى مصر بعد ذلك من الغرب فى العصور الوسطى ، « حيث عهدت الحكومة المصرية فى عهد الخلفاء إلى فئات منهم هندسة وبناء كثير من الجوامع والقلاع والأسوار » ، وضرب مثالا على هذا بجامع أحمد بن طولون فى القاهرة ، الذى عهد ببنائه إلى جماعة من البنائين النصارى القادمين من أوربا[١٤] . ولكن إذا صح أن هؤلاء البنائين كانوا من أوربا فليس من المؤكد أنهم كانوا ماسونيين بالمعنى المعروف ، ولاتوجد أدلة على ذلك ، ولاعلى قدم عهد الجمعيات الماسونية فى مصر ، ولاعلى صلتها بالجمعيات السرية القديمة . والأمر كله محض تخمين واستنتاج من جانب زيدان الذى بدا متحمسا فى كتابه للماسونية .

تناول زيدان بعد ذلك الطور الرمزى فى الماسونية المصرية ، وهو الطور الحديث بوجه عام عند مؤرخيها الأوربيين . وقال : إن هذا الطور لم يظهر فى مصر « قبل سنة (١٧٩٨) أى أثناء الحملة الفرنساوية » على حد تعبيره[١٥] . فقد اتفق بونابرت وكليبر وبعض قواد تلك الحملة وضباطها من الماسونيين الفرنسيين ، على تأسيس محفل فى القاهرة ، فأسسوه فى أغسطس من تلك السنة باسم « محفل إيزيس » على طريقة ممفيس . « ولعلهم – كما يقول زيدان – قصدوا بذلك مقصدا سياسيا لأنهم أدخلوا فيه كثيرا من عمد البلاد ورجالها » . ثم توقف نشاط المحفل بعد رحيل بونابرت ومصرع كليبر[١٦] .

ومضى زمن طويل قبل أن تتكرر المحاولة . ففى سنة (١٨٣٠) أسس بعض الإيطاليين فى الإسكندرية محفلا على الطريقة الإسكتلندية . وتلاه محفل آخر فى القاهرة سنة (١٨٣٨) تحت رعاية المجلس العالى الممفيسى الفرنسى ، واسمه مينيس . وفى سنة (١٨٤٥) شهدت الإسكندرية تأسيس محفل تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى اسمه « الأهرام » ، انضم إليه كثيرون من الأجانب

والأهالى تحت سمع وبصر الحكومة ، وله الفضل الأعظم فى بث التعاليم الماسونية فى مصر كما يقول زيدان . وأبرز أعضائه من غير الأوربيين ، الأمير حليم بن محمد على والأمير عبد القادر الجزائرى الذى قاد ثورة الجزائر ضد فرنسا عند غزوها لبلاده ثم فر إلى مصر ، وأقام بعدها فى الشام . وقد اشتهر هذا المحفل - كما يقول زيدان أيضا - بالأعمال الخيرية ، وتزايد أعضاؤه حتى بلغوا ألفا بعد (١٥) سنة من تأسيسه . وفى سنة (١٨٤٩) أسس الإيطاليون محفلا آخر على الطريقة الإسكتلندية فى الإسكندرية ، وفى سنة (١٨٥٦) بعث المجلس العالى الممفيسى فى فرنسا مندوبا خاصا لإنشاء مجلس عال إقليمى على طريقته ، ومايلزم ذلك من المحافل الفرعية ، وفى الوقت ذاته أسس الإيطاليون عددا من المحافل فى الإسكندرية والقاهرة بين سنتى (١٨٥٩ - ١٨٦٢) . كما أسس الفرنسيون عددا آخر من المحافل التابعة للشرق الأعظم الفرنسى ، ولم يقتصروا على القاهرة والإسكندرية ، وإنما مدوا نشاطهم إلى بورسعيد والسويس والإسماعيلية .

وهكذا أصبحت المحافل فى مصر تتبع ثلاثة مجامع أوربية كبرى هى : المجلس العالى الإيطالى ، والمجلس العالى الفرنسى ، والشرق الأعظم الفرنسى . وفى سنة (١٨٦٧) بدأ الإنجليز فى دخول الحلبة ، فأنشأ المحفل الأعظم الإنجليزى فى القاهرة بضعة محافل ، ولكن أنصاره لم ينجحوا فى إنشاء مجلس أعلى اسكتلندى للإشراف على هذه المحافل ، وكذلك لم ينجح بعض المتحمسين الإيطاليين والشوام من أصحاب الدرجات الماسونية العليا فى تأسيس مجلس أعلى مصرى ، أو شرق أعظم مصرى . ولكن حدث فى (٨ نوفمبر ١٨٧١) أن نجح أنصار الطريقة الإسكتلندية فى إنشاء مجلس أعلى اسكتلندى . وفى (١٥ سبتمبر ١٨٧٢) اتحدت بعض المجالس وكونت مايسمى الشرق الأعظم الوطنى المصرى . « وهو الدولة الماسونية المصرية ، وتحته الطريقة الممفيسية (الفرنسية) ، والطريقة الإسكتلندية . ولم تمض فترة وجيزة حتى أصبحت

المحافل الوطنية المصرية تحت رعاية الشرق الأعظم المصرى عديدة »[١٧] ، وانتخب أعضاء هذا الشرق أستاذا أعظم يدعى سوليتورى أفنتورى زولا . ثم جددوا انتخابه فى (٢١ مارس ١٨٧٣) . وذهب إلى الخديو اسماعيل يطلب حمايته للعشيرة . يقول زيدان :

« مثل بين يدى سموه فى (٢٩ أفريل سنة ١٨٧٣) بالنيابة عن الشرق الأعظم . وقدم واجب العبودية ، وأعرب عما لهذه العشيرة من المقاصد الحسنة ، وبين أنها فى احتياج كلى لحماية أمير البلاد ، فتعطف سموه إذ ذاك ، وصرح بالحماية مشترطا عليها ألا تتعاطى أمرا مخالفا لصالح الأمة والدولة والوطن ، وألا تتدخل فى السياسة إلا إذا دعيت أو دعى بعض أعضائها من أمير البلاد أوحكومته للمساعدة فيما يعود إلى الصالح العام ، فعلى المدعو إذ ذاك أن يلبى الدعوة بما فى وسعه حالا . فتعهد الأستاذ الأعظم بالشرف أن الماسونية لاتسير إلا كما اشترط سموه . وعلى ذلك تم التعاضد بين الحكومة المدنية والدولة الماسونية . وأصبحت القوتان يدا واحدة فى ترقية شأن الأمة ورفع منار الفضيلة »[١٨] .

ولعلنا لاحظنا فيما اقتبسناه حتى الآن من زيدان أنه لم يكن محايدا فى تأريخه ، وأنه كان ماسونيا متحمسا وقت تأليفه لهذا التاريخ ، ومع ذلك يمكن أن نلاحظ مما كتب أن الماسونية أنشأها الأوربيون المستوطنون فى مصر ، وضموا إليها بعض المستوطنين الشوام وبعض الأهالى المصريين ، كما نلاحظ أن المحافل جاملت الأمير حليم بالرياسة حتى طرده الخديو إسماعيل من مصر سنة (١٨٦٨) ؛ ثم عهدت إلى زولا بالرياسة من بعده حتى طرد بدوره وشطب اسمه من سجل الماسونية . وكان السبب فى ذلك - كما يقول حنا أبو راشد - أنه ذهب إلى إيطاليا ، وهناك حمله رجال الفاتيكان على التشهير بالماسونية[١٩] . ونلاحظ أخيرا أن المحافل حتى ذلك الوقت - منتصف سبعينيات القرن - كانت إيطالية وفرنسية

وأيرلندية وإسكتلندية وأمريكية ، وأن الطريقتين الرئيسيتين لهذه المحافل كانتا الممفيسية والاسكتلندية .

فى ٨ مايو (١٨٧٦) أصدر الشرق الأعظم الوطنى المصرى ، الذى تقاسمته هاتان الطريقتان ، قرارا بوضع حد لهذا الازدواج وتحديد طريقة واحدة « بحيث تكون وحدها دعامة الدولة الماسونية المصرية » على حد قول زيدان . ولما كانت الطريقة الممفيسية الفرنسية الأصل تعد عند أقطاب الماسونية غير أصولية أو قانونية ، فقد استقر الرأى على الطريقة الاسكتلندية كدعامة للدولة الماسونية المصرية . وإذا كان تعبير « الدولة » هنا ، الذى استخدمه زيدان وغيره ، تعبيرا تضخيميا فلا يهمنا منه سوى معناه المجازى ، وقد ترتب على انفراد الطريقة الاسكتلندية باهتمام الشرق الأعظم الوطنى المصرى ، أن صدر قرار منه بانشاء المحفل الأعظم الوطنى المصرى . ومن الطريف أن نلاحظ فى صيغة القرار الذى أورده زيدان أن زولا يتعامل مع الواقع كما لو كان على رأس دولة فعلية . فهو يسمى القرار « أمر عال رقم ٧٧ » ويبدؤه بعبارة « نحن زولا أستاذ أعظم الشرق الأعظم الوطنى المصرى » ويؤكد فى المادة الثالثة من القرار أن « الشرق الأعظم الوطنى المصرى هو الدولة الماسونية المصرية » ، أى أنه أعلى سلطة ماسونية فى البلاد ، ومن الطريف أن نلاحظ أيضا فى موقعى القرار أن ثلاثتهم أوربيون (زولا ونائبه يوسف دى بورغارد ، والسكرتير الأعظم فرنسيس فردينان أودى ، وأمين الختم الأعظم باندلى ديلبا روغلى) ، وأنهم لايمكن أن يوحوا بأن ذلك الشرق كان وطنيا أو مصريا . أما النص على « الوطنى » و « المصرى » فيبدو أنه كان لتحبيب الأهالى إلى الماسونية .

وبعد أن تم إنشاء المحفل الأعظم على هذا النحو تمت مكاتبة الدول الماسونية الأجنبية – كما يقول زيدان – وإبلاغها بالقرار (أورد زيدان قائمة بنحو ٧٦ محفلا فى مختلف أرجاء العالم) وجاء رد هذه « الدول » الأجنبية بالمصادقة على القرار واعتماده .

يقول زيدان :

« وفى ٨ أكتوبر سنة (١٨٧٦) التأم المحفل الأعظم ، وكرس بحضور الموظفين والمندوبين من قبل المحافل العظمى الأجنبية . وفى (٢) أغسطس من السنة التالية صدر الأمر العالى رقم (١٢٦) بتأسيس محفلين إقليميين ، أحدهما لمصر الوسطى ومركزه طنطا ، والآخر لمصر العليا ومركزه القاهرة . وكلاهما تحت رئاسة الأخ المحترم إيكونو موبولو بصفة أستاذ أعظم إقليمى . أما مصر السفلى فكانت تحت المحفل الأعظم المصرى فى الإسكندرية . وأنشئت أثناء ذلك محافل وأوقفت محافل »[٢٠] .

وحتى ذلك التاريخ كان المحفل الأعظم الوطنى المصرى هذا يمارس نشاطه من الإسكندرية ، ولكن تقرر فى جلسة (١٥ سبتمبر ١٨٧٧) نقل مركزه إلى القاهرة . وصدر الأمر العالى بذلك ، واجتمع المحفل لأول مرة فى القاهرة فى (٥ مايو ١٨٧٨) فى قاعة محفل الماراتونا « تحت رئاسة الأستاذ الأعظم الكلى الاحترام زولا » ومنذ ذلك التاريخ أصبحت القاهرة مركز نشاط « الدولة » الماسونية فى مصر .

لقد أورد زيدان – فوق هذا كله – قائمة بأسماء المحافل التابعة للمحفل الوطنى . وتضم القائمة (٢٩) محفلا أصبح معظمها – حتى ذلك التاريخ – يعمل من القاهرة ، فضلا عما أسماه « المحافل والمجامع الأجنبية » فى مصر ، وهذه بلغ عددها فى ذلك الوقت (٩) محافل تابعة للشرق الأعظم الفرنسى ، ٦ محافل تابعة للمحفل الأعظم المتحد الإنجليزى (أقدمها محفل زتلاند فى الإسكندرية الذى تأسس سنة ١٨٦٧) ، ٥ محافل تابعة للشرق الإيطالى ، (٧) مجامع Chapters (أى المحافل التى تشتغل بالدرجات الماسونية العليا) تتبع المحفل الأعظم الإنجليزى[٢١] ، ومعنى هذا أن مجموع المحافل العاملة – غير المتعطلة – فى مصر حتى سنة (١٨٧٨) كان يبلغ (٥٦) محفلا ، وهو عدد كبير ،

بالطبع ، إذ قيس بتعداد السكان فى ذلك الوقت ، والذى كان لايزيد على (٦,٨١٣,٩١٩) حسب إحصاء (١٨٨٢) ، ومن هذا العدد (٢٧) محفلا أجنبيا ، أى للأجانب الأوربيين وحدهم ، مقابل (٢٩) محفلا مصريا ، أى للأجانب المتمصرين والأهالى . وحتى إذا صح أن المحافل المصرية كانت مصرية بالفعل ، فإن عدد المحافل الأجنبية يكاد يساوى عددها ، ولايتفق مع عدد الأجانب .

ومن الواضح أن جرجى زيدان ، قد توقف فى تأريخه للماسونية فى مصر عند سنة (١٨٧٨) ، أى قبل صدور كتابه بنحو عشر سنوات ، دون أن يوضح السر فى توقفه عند ذلك التاريخ . ولكنه أشار فى مقدمته للكتاب إلى أنه استقى معظم معلوماته من زولا الذى أصبح وقتها « رئيس أعظم المحافل المصرية سابقا » ، وأنه لو ساعده المقام – على حد تعبيره – لأتى على تفاصيل كثيرة يعلمها ولكنه اضطر إلى الاكتفاء بالنزر اليسير منها والإغضاء عن بعضها « لما يحول دون التصريح بها من المحظورات التى نرجو قرب زوالها يوم لايحظر على أحد التصريح بما فى ضميره » على حد تعبيره[٢٢] . ولانريد أن نحمل اعتذاره هذا فوق مايحتمل ، ولكننا نشتم فيه نوعا من الحرج إزاء التصريح بكل ماعنده عن الماسونية فى مصر وسوريا كما قال ، وأغلب الظن أن هذا الحرج مبعثه أن زيدان نفسه كان ماسونيا عاملا متحمسا حتى وقت تأليفه لهذا الكتاب ، والماسونية – بحكم دستورها الأول الذى نقله فى كتابه – تلزم أعضاءها بكتمان أسرارها عمن ليسوا منها ، ومع ذلك لم يكتب زيدان بعدها عن الماسونية فى مجلته « الهلال » أو غيرها ، حتى وفاته سنة (١٩١٤) ، سوى بضعة أسطر فى كتابه « تاريخ مصر الحديث » .
فقد قال فى هذا الكتاب : إن المحافل الوطنية (الأهلية) تأسست فى عهد إسماعيل ، وإن شأن الجمعية الماسونية فى مصر تعزز بحمايته ، فانتشرت مبادئها « حتى انتظم فى سلكها نجله المغفور له الخديو السابق (توفيق) وجماعة كبيرة من أمراء البلاد ووجهائها »[٢٣] ، وأغلب الظن أيضا أن زيدان مات على ماسونيته التى تمنع التصريح بكل شيء .

بالرغم من الإجمال والإسقاط فى معلومات جرجى زيدان اللذين اعتذر عن اضطراره إليهما فقد ظل كتابه عمدة المراجع فى تاريخ تلك المرحلة من حياة الماسونية فى مصر ، كما ظل نهبا لزملائه الصحفيين والكتاب الذين كانوا يرجعون إليه ، وينقلون عنه ، دون اعتراف بالفضل[٢٤] ، ومع ذلك فقد حاول بعض الباحثين والمستشرقين المعاصرين أن يعودوا إلى تلك المرحلة ، وأن يراجعوا ظروف نشأة الماسونية . ومن هؤلاء الباحث الإسرائيلى يعقوب لانداو ، والباحثة الإيرانية هوما باكدامان اللذان قاما بجهد مكثف فى هذا الميدان .

يقول لانداو :

« فى سنة (١٨٠٢) تأسس محفل بالاسكندرية ، ثم تلاه آخر بعد أربع سنوات ، وكان الاثنان تحت رعاية محفل الشرق الأعظم الفرنسى . ولكن نشاطهما مالبث أن توقف . ثم نسمع فيما بعد عن تأسيس محفلين فرنسيين آخرين ، أحدهما فى القاهرة سنة (١٨١١) ، والآخر فى الإسكندرية سنة (١٨١٢) . ومع ذلك لم يستمرا طويلا شأن محفل ثالث تأسس سنة (١٨١٥) »[٢٥] .

ويستمر لانداو فى روايته فيضيف أن بعض الماسونيين الإيطاليين رحلوا من إيطاليا عقب فشل الثورة هناك سنة (١٨٣٠) ثم جاءوا إلى الإسكندرية ، فأسسوا محفلا معتمدا من الطريقة الاسكتلندية فى تلك السنة . وفى سنة (١٨٣٨) أسسوا محفلا آخر بالقاهرة ، وتم هذا كله فى سرية تامة خوفاً من ملاحقة السلطات المحلية . ثم أعاد الماسونيون الفرنسيون تنظيم صفوفهم فى عهد محمد على ، فأسسوا محفلا محليا فى الإسكندرية سنة (١٨٤٥) ضم بعض كبراء المسلمين مثل الأمير عبد القادر الجزائرى والأمير حليم . وفى سنة (١٨٦٠) بلغ عدد أعضاء المحافل الفرنسية فى الإسكندرية ألف عضو . كما أعاد الإيطاليون تنظيم صفوفهم أيضا سنة (١٨٤٩) ، ونشروا كثيرا من الكتيبات والمنشورات للدعاية للماسونية

بلغتهم . ولكن يبدو أن الفرنسيين تفوقوا على الإيطاليين فى ذلك ، ففى سنة (١٨٥٦) أرسلوا إلى مصر وفدا خاصا لتأسيس محفل فى الإسكندرية . وسرعان مانشروا – مع الإيطاليين – المحافل خارج القاهرة والإسكندرية ، ولاسيما فى بورسعيد والسويس والإسماعيلية والمنصورة[٢٦] .

وإذا كان لانداو قد أكمل – كما رأينا – الفجوة الزمنية التى جاءت فى رواية زيدان ، من (١٧٩٨ إلى ١٨٣٠) ، فلم يضف الكثير بعد ذلك إلى ماسبق أن عرضناه من رواية زيدان . ولكنه يستمر فى روايته فيقول : إن الفرنسيين أسسوا محفلا جديدا فى الإسكندرية باسم « نهضة اليونان » سنة (١٨٦٣) ، وهى السنة التى تولى فيها الخديو إسماعيل الحكم . وفى السنة التالية أنشأ الإيطاليون محفلا آخر بالاسكندرية أيضا باسم « اتحاد الشعب » وفتحوا باب عضويته للأهالى . ويبدو أن بعض الجمعيات الإيطالية البسرية ، قد تنكرت فى ذلك الوقت – كما يقول – وراء المحافل الماسونية . ومع ذلك تأسس محفل ألمانى بالقاهرة سنة (١٨٦٦) ، ومحفل آخر إنجليزى فى السنة التالية ، نشط فيه رالف بورج نائب القنصل ، واختار له بعض الأعضاء من الأهالى ، « وسرعان ماوقع اختيار الماسون الفرنسيين من أتباع محفل ممفيس على الأمير حليم فجعلوه أستاذا أعظم لهم » وخلال السنوات (١٨٧٢ – ١٨٧٨) ، اندمجت معظم المحافل الفرنسية فى محفل الشرق المصرى الكبير بالقاهرة ، مما جعل الماسون قوة يحسب لها حسابها ، حتى فكر الخديو إسماعيل فى استقطابهم عن طريق إظهار الاهتمام بهم ومد يد الحماية إليهم[٢٧] .

مرة أخرى لايقدم لانداو أكثر مما قدمه زيدان من قبل ، باستثناء إشارته إلى المحفل الألمانى ، الذى لم يرد له ذكر عند زيدان ، وقد جاء ذكر محفل « نهضة اليونان » مختلفا عما جاء عند الأخير الذى ذكره باسم « محفل اليونان » وذكر أن مقره القاهرة ، وأن تأسيسه تم عام (١٨٦٦) ، ولكنه معطل[٢٨] . أما محفل

« اتحاد الشعب » الإيطالى فلم يرد ذكره عند زيدان تحت هذا الاسم ، وربما كان له اسم آخر من الأسماء الخمسة للمحافل الإيطالية التى أوردها (الكوكب الاسكندرى ، نوفا بومبيا ، الشنشناتو ، السلام ، نور الشرق)[٢٩] .

وقد استخلص لانداو هذه المعلومات والتواريخ – كما يقول – من وثائق ورسائل ومنشورات إيطالية وفرنسية عديدة . ومع ذلك فهى لاتضيف الكثير كما قلنا لما رواه جرجى زيدان ، إلا فيما يتعلق بالنصف الأول من القرن الماضى . ومع ذلك أيضا فهذه الإضافة تنكرها هوما باكدامان التى تعتقد أن الماسونية لم تدخل مصر قبل سنة (١٨٤٨) . فقد رجعت إلى محفوظات المحافل الفرنسية فى باريس ج ووجدت أن أول محفل أنشىء فى مصر هو محفل « الأهرام » الذى تأسس فى الإسكندرية فى (٦ أبريل ١٨٤٨) ، ثم توقف عن نشاطه بعد فترة قصيرة . ولكنه استأنف النشاط سنة (١٨٦٢) .

تضيف باكدامان أن ستينيات القرن الماضى شهدت إنشاء محفلين آخرين تحت رعاية « الشرق الأعظم الفرنسى » ، هما محفل « نهضة اليونان » الذى تأسس فى الإسكندرية فى ٩ نوفمبر (١٨٦٣) ، ومحفل « النيل » الذى تمت الموافقة على دستوره الرمزى فى (٢٣ مارس ١٨٦٨) . ومع ذلك لم يتأسس – فى رأيها – أى محفل أهلى مصرى قبل سنة ١٨٧٥ ، على الرغم من أن محفل « الأهرام » طلب إلى محفل الشرق الأعظم الفرنسى فى ٢٠ فبراير من ذلك العام إنشاء محفل فى مصر تكون لغته العربية ، بدعوى أن جميع المحافل تستخدم لغات أجنبية ، وأن الأهالى لايستفيدون من هذه المحافل ، ومن ثم تأسس محفل « نور مصر » تحت رعاية الشرق الأعظم الفرنسى . كما تأسس فى الإسكندرية أيضا محفل فى غاية من الأهمية هو « الشرق الأعظم المصرى » الذى اندمجت فيه المحافل الأخرى الأصغر ، وقد اختير الأمير حليم أستاذا أعظم لهذا المحفل الكبير[٣٠] .

ومع ذلك فهذه الرواية مهمة ، من حيث إنها تضيف بعض التفصيلات حول نشأة المحافل التابعة لفرنسا . ولكنها لاتدحض احتمال أن يكون بونابرت وضباطه قد أسسوا محفلهم – إن صح أنهم أسسوه – بمعزل عن المحفل الأعظم فى بلادهم ، فضلا عن أنها تتعلق بالمحافل الفرنسية وحدها ، ولاتتصل بالمحافل الأخرى ، ولاسيما الإيطالية التى قد تكون أسبق من زميلاتها . وبذلك يظل اجتهاد لانداو صحيحا . ويسنده ، من جهة أخرى ، أن الجالية الإيطالية فى مصر – فى الإسكندرية بصفة خاصة – كانت أكبر الجاليات الأوربية طوال عهد محمد على على الرغم من أن الأخير كان أميل إلى الفرنسيين ، ومع أن الرواية المشهورة حول دخول الماسونية مصر زمن الحملة الفرنسية لاتستند إلى أى دليل مادى موثوق به ، فهى تظل محض اجتهاد أيضا ، ربما يسنده أن ضباط بونابرت وجنوده ، أسسوا محافل ماسونية فى ألمانيا عندما فتحوها سنة (١٨٠٦) .

غير أن لانداو ، وباكدامان لم يذكرا شيئا عن ذلك الرجل ، الذى يبدو أنه لعب دورا خطيرا فى المحافل الماسونية فى تلك المرحلة ، وهو سوليتيرى زولا الذى ذكره زيدان ، وانتفع بما عنده من مادة عن المرحلة ، فهذا الرجل الذى لاندرى ملته أو جنسيته ، لم يذكره بعد ذلك سوى شاهين مكاريوس فى أوائل القرن العشرين . ومع أن مكاريوس ـ الماسونى الأكثر تحمسا من زيدان ـ قد وقع فى بعض الأخطاء الخاصة بالتواريخ كما ذكرها زيدان ، مثل دخول الماسونية مصر فى أغسطس سنة (١٧٩٧ وصوابها ١٧٩٨) ، فقد ذكر أن المحفل الأعظم الوطنى المصرى تأسس سنة (١٨٧٦) « بعد حدوث انقلابات كثيرة » على حد قوله دون توضيح ، وأن أول رئيس له كان رجلا إيطاليا – هكذا – يدعى سوليتيرى أفنتورى زولا . ثم قال مكاريوس : إن ذلك الرجل « فصل فيما بعد ومحى اسمه من سجل المحفل الأكبر لدواع اقتضت ذلك » دون توضيح أيضا[٣١] . ثم ترأس

المحفل بعده رجل آخر (ربما يكون يونانيا) اسمه ديونيس إيكونو موبولو سنة (١٨٧٧) . وإذا كان زولا المذكور ، قد ترقى فى سلم الماسونية حتى وصل إلى درجة « أستاذ أعظم » – كما رأينا – ثم أخنى عليه الدهر ، فعزل ومحى اسمه من سجل المحفل ، لدواع اقتضت ذلك ، فلا بد أن تكون هذه الدواعى شديدة الأهمية والخطورة ، ولكن مكاريوس لم يفصل ماقال ، ومات على ماسونيته دون أن يصرح بشىء .

ومن الوقائع والمعلومات السابقة يبدو الغرض السياسى من دخول الماسونية مصر واضحا ، سواء دخلتها على أيدى بونابرت وضباطه ، أو دخلتها فى عهد الخديو إسماعيل . كما يبدو الطابع الأوربى فى دخولها واضحا أيضا ، فباستثناء الأميرين حليم وعبد القادر ، لم تحفظ لنا السجلات الأولى لأعضاء المحافل الماسونية سوى أسماء الأوربيين ، إيطاليين وفرنسيين ويونانيين،كما يتضح من الأسماء التى ترددت هنا حتى الآن[٣٢] .

غير أن هذه المرحلة ، مرحلة التأسيس ، حفلت – فيما يبدو – بالكثير من النشاط والتطورات ، بالرغم من بعض الغموض الذى يحيط بتفاصيلها ، وإذا كانت الماسونية قد دخلت مصر على أيدى الأوربيين النازحين من مختلف الأجناس والجنسيات فقد بدأت فى استقطاب الأهالى وتشجيعهم على الانضمام إليها فى عهد إسماعيل (١٨٦٣ – ١٨٧٩) بصفة خاصة ، وربما لعب الأميران حليم وعبد القادر دورا فى هذا الاستقطاب .

يقول لانداو :

« يجوز القول بوجه عام إن الماسونية التى أدخلها الأوربيون إلى مصر قد ظلت مخلصة لمبادىء البر والاحسان والأخوة ، وعلى العكس من ذلك تمثلت أسوأ أفعالها فى بعض (لاكل) المحافل الإيطالية التى استغلت الماسونية فى إخفاء

نشاطها الهدام . ففى سنوات (١٨٦٨ – ١٨٧٠) على سبيل المثال توجد بعض التقارير المخطوطة البالغة الطرافة للممثلين السياسيين والقنصليين فى مصر ، وتصور هذه التقارير المحافل الماسونية فى صورة خلايا النحل التى تعج بالعناصر الهدامة سياسيا وجنائيا ، فمن الناحية السياسية تتآمر هذه العناصر على البيت المالك فى إيطاليا ، ومن الناحية الجنائية تمارس الإجرام فى المدن المصرية ، بالقتل وغيره ، ثم تجد من محافلها الماسونية الحماية والمأوى والعون »[٣٣] .

وخلال السنوات (١٨٧١ – ١٨٧٩) ، كانت جميع النشرات الماسونية فى مصر تصدر بالإيطالية ، كما يقول لانداو[٣٤] . وكانت الاسكندرية مركز الماسونية فى مصر ، ومع ذلك لم يكن ثمة مفر من أن يستخدم بعض المصريين المحافل فى تحقيق أغراضهم خلال عهد إسماعيل الذى كان فترة اختمار للحركة الوطنية بجميع تياراتها . وكانت الظروف التى وضع فيها إسماعيل البلاد تشجع البحث عن مختلف الوسائل ، لعلاج أحوال الاقتصاد المتردى والديون المتزايدة والاستبداد المطلق ، وكان النموذج الإيطالى من الماسونية مطروحا فى سوق الحركة الوطنية الوليدة ، بكل مافيه من شراسة ومؤامرات . ويبدو أنه كان نموذجا مفضلا . فقد تحمس لممارساته السياسية كثيرون من الوطنيين بمختلف فئاتهم ، ولاسيما الذين انضموا منهم للمحافل الماسونية ، إيطالية أو فرنسية أو إنجليزية أو مصرية .

كان على رأس هؤلاء جميعا شخصيتان لعبتا دورا خطيرا فى تطورات الأحداث فى أواخر عهد إسماعيل ، وهما الأمير عبد الحليم (١٨٢٦ – ١٨٩٤) المشهور باسم حليم ، وجمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ – ١٨٩٧) وكان للاثنين تلاميذ ومريدون وأتباع ، أو كان لهما – بتعبير ذلك العصر – حزبان متعارضان فى الكثير ومتفقان على شىء واحد هو ضرورة التخلص من إسماعيل .

أما حليم فكان الوريث الوحيد للعرش ، حسب نظام الوراثة القديم ، الذى نجح إسماعيل فى تغييره سنة (١٨٦٦) ، فجعل ولاية العهد لأكبر أبنائه ، مقابل أكبر أبناء الأسرة العلوية حسب النظام القديم فى عهد محمد على . وبذلك حرم حليم من عرش مصر ، بالرغم من أنه كان أكبر من إسماعيل بشهرين فقط ، وقد تلقى تعليمه فى فرنسا بكلية سان سير العسكرية وعاد إلى مصر سنة (١٨٤٥) فارتبط بالماسونية ، وأنشأ علاقات طيبة مع أفراد الأسرة الخديوية والأعيان والمثقفين والفرنسيين ، واختاره الماسونيون أستاذا أكبر لهم فى محفل الشرق الأكبر المصرى سنة (١٨٦٧) ، برغم محاولات إسماعيل لإقصائه عن طريق أعوانه الماسونيين الإيطاليين ، وعلى أثر انتخابه أستاذاً أكبر ، بدأ وأعوانه فى التآمر على إسماعيل ، ثم اتهمه إسماعيل بمحاولة اغتياله سنة (١٨٦٨) على أيدى بعض الإيطاليين الماسونيين ، واتخذ ذلك ذريعة لطرده من مصر فأبعده فى نهاية ذلك العام ، وذهب حليم إلى الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية ، فعاش هناك بقية حياته ، ولكن صلته بالأحداث فى مصر لم تنقطع ، فقد ظل أعوانه الماسونيون يتحركون ، ولاسيما بعد تأكيد السلطان ولاية أبناء إسماعيل بفرمان سنة (١٨٧٣) .

وفى (١٨٦٩) نسب إليه إسماعيل مؤامرة فاشلة للقضاء على حياته ، وفى (١٨٧٦) شكا منه للقنصل الإيطالى بسبب استغلاله أعوانه الماسونيين فى مؤامرات ضده ، وفى (١٨٧٩) خفض معاشه إلى الربع بمقتضى قانون التصفية للديون ، وكان حليم قد ركز نشاطه من خلال الجمعيات السرية الإيطالية ابتداء من سنة (١٨٧٧)[٣٥] ، ولما سقط إسماعيل فى النهاية سنة (١٨٧٩) ، حاول حليم الاتصال بالعرابيين والتعاون معهم على إسقاط توفيق ، ولكن الاحتلال الإنجليزى قضى على هذه المحاولة سنة (١٨٨٢) ، ومع ذلك ظل شبح حليم يهدد « توفيق » من بعيد حتى وفاته سنة ١٨٩٢ .

كان أعوان حليم من الماسونيين فى مصر إيطاليين وفرنسيين ويهودا فى معظمهم ، وكان من بين أنصاره يعقوب صنوع الذى ظل يؤيده فى صحفه العربية فى باريس حتى وفاته ، وكذلك حسن موسى العقاد ، أحد كبار تجار القاهرة الذى نفى عقب فشل الثورة العرابية ، فضلا عن بعض الكتاب والصحفيين الآخرين ، الذين كانوا يتراوحون بينه وبين توفيق مثل أديب إسحق وسليم النقاش ، وبعض رجال الأزهر وعلى رأسهم الشيخ عليش بالإضافة إلى عدد غير معروف من ضباط الجيش ، ممن اشتركوا بعد ذلك فى الثورة العرابية .

وأما الأفغانى الذى طاب له المقام فى مصر ابتداء من (١٨٧١ إلى ١٨٧٩) فكان أقرب وأميل إلى توفيق ، ولاسيما بعد أن اتفق معه قبل توليه الحكم على إصلاح حال البلاد ، والحكم بالدستور والبرلمان . ومع أن الأفغانى قضى سنواته الأولى فى تعليم الشباب ، وجمع حلقة واسعة من التلاميذ والمريدين ، على اختلاف انتماءاتهم وعقائدهم ، فسرعان مانزل إلى ميدان السياسة ، التى شغلت الجميع وقتذاك ، وشجع على إصدار الصحف ودخول الماسونية ، ثم دخل بنفسه الماسونية وأدخل معه معظم تلاميذه . ولكننا لاندرى على وجه الدقة هل دخلها قبل (١٨٧٥) أم لا ؟. ولكن دخوله الماسونية لم يكن « لأنه رأى فيها امتداداً حديثا لحركات التطرف الإسلامية القديمة التى اجتذبته بشكل واضح » كما يقول المستشرق إيلى كدورى ، وإنما لأنه رأى فيها وسيلة للإصلاح والتغيير ، مثلها مثل الصحافة والخطابة اللتين ارتبط بهما وقت دخوله الماسونية ، ولاسيما بعد تفاقم التدخل الأوربى وسوء أحوال البلاد . ويبدو أنه أعجب بشعار الماسونية الذى رفعته فى ذلك الوقت فى « الحرية والإخاء والمساواة » ، وهو ذاته شعار الثورة الفرنسية الذى روجته المحافل التابعة لفرنسا فى مصر .

لقد كشفت أوراق الأفغانى الخاصة التى نشرتها جامعة طهران سنة (١٩٦٣) عن بعض المعلومات المهمة الجديدة فى هذا الموضوع ، ومنها ورقة سجل فيها

الأفغانى مسودة طلب التحاق بأحد المحافل وعليها تاريخ « يوم الخميس (٢٢ ربيع الثانى ١٢٩٢ الموافق ٣١ مارس ١٨٧٥) وفيها كتب بخطه الفارسى الجميل :

« يقول مدرس العلوم الفلسفية بمصر المحروسة جمال الدين الكابلى الذى مضى من عمره سبع وثلاثون سنة بأنى أرجو من إخوان الصفاء ، وأستدعى من خلان الوفاء ، أعنى أرباب المجمع المقدس الماسون ، الذى هو عن الخلل والزلل مصون ، أن يمنوا على ويتفضلوا إلى بقبولى فى ذلك المجمع المطهر ، وبإدخالى فى سلك المنخرطين فى ذلك المنتدى المفتخر » .

ولكم الفضل
جمال الدين الكابلى[٣٧]

لم يحدد الأفغانى اسم المحفل الذى عناه فى طلبه ، وإن كانت الباحثة هوما باكدامان تستنتج من لغة الطلب ، أنه المحفل التابع لفرنسا ، على أساس أن أول محفل أهلى استخدم العربية كان تابعا لفرنسا ، وافتتح قبل ذلك التاريخ بقليل[٣٨] .

ومن الملاحظ فى هذا الطلب ، أن الأفغانى عرف نفسه بأنه « مدرس العلوم الفلسفية » ، ونسب نفسه إلى كابول عاصمة أفغانستان ، أما إشارته إلى « إخوان الصفاء » فيبدو أنها هى التى أوحت لكدورى بملاحظته السابقة ، فى حين أنها جاءت فى الغالب بقصد إكمال السجع الذى سيطر على صيغة الطلب ، وربما للإشارة إلى اسم « الإخوان » الذى كان الماسونيون يحرصون على استخدامه — ومازالوا — عند الحديث عن جماعتهم .

وهناك ورقة أخرى ضمتها أوراق الأفغانى الخاصة سجل عليها عبارة :
« دخلت المحفل فى (١٠ عاشوراء ١٢٩٣ الموافق ٦ فبراير ١٨٧٦) أثناء إقامتى بمصر »[٣٩] .

وللمرة الثانية لم يحدد الأفغانى اسم المحفل ولا نوعه ، وإن كانت العبارة تشير إلى أنها جواب طلب التحاقه السابق . ومعنى هذا أنه قضى نحو عام فى انتظار قبول عضويته .

هناك أيضا (١١) خطاب دعوة لحضور اجتماعات لمحافل إنجليزية ، وفرنسية ، وإيطالية ، ويونانية ، فى الفترة من (٢٤ يناير ١٨٧٧ إلى ٢٣ فبراير ١٨٧٩)[٤٠] ويتبين من هذه الدعوات أن عدد المحافل التى شهدتها القاهرة فى تلك الفترة ، بلغ (٩) محافل ، كما يتبين أن الأفغانى اختير رئيسا لمحفل « كوكب الشرق » التابع للمحفل الأكبر الاسكتلندى فى (٢٨ ديسمبر ١٨٧٧) ، وأنه أصبح – بسرعة – شخصية مرموقة فى هذه المحافل ، يدعى لحضور جلساتها غير العادية أو لشهود الاحتفال بدخول أعضاء جدد ، وربما كان مسموحا بتعدد العضوية فى بعض هذه المحافل .

ويهمنا من هذه الخطابات خطاب معين ، صادر من محفل كوكب الشرق فى القاهرة بتاريخ (٧ يناير ١٨٧٨) وهذا نصه بعربيته الركيكة :

« إلى الأخ جمال الدين محترم

إنه لمعلوم لديكم بأن فى جلسة (٢٨) الماضى وبأغلبية الآراء صار انتخابكم رئيسا محترما لهذا اللوج لهذا العام ، ولذا قد نهنيكم ونهنى ذواتنا على هذا الحظ العظيم ، وعن أمر الرئيس محترم الحالى أدعو اخوتكم للحضور يوم الجمعة القادم (١١ الجارى الساعة ٢) عربى بعد الغروب إلى محفل هذا اللوج لأجل استلامكم القادوم بعد إتمام مايجب من التكريز الاعتيادى . ثم سيصير يوم الخميس (١٠

الجارى الساعة ٦) أفرنكى مساء تكريز رئيس محترم لوج كونكورديه . فالرجا حضوركم فى اليوم المذكور للاشتراك فى الأشغال . وفى الحالتين ملابسكم تكون سوداء ورباط الرقبة والكفوف بيضاء . واقبلوا منا العناق الأخوى ...» .

كاتب السر
نقولا سكروج

بالرغم من ركاكة هذا الخطاب[٤١] فهو من الوثائق النادرة للماسونية فى ذلك العصر ، ولاندرى شيئا عن أصل موقعه ، فربما كان إيطاليا ، أو يونانيا ، ولكننا ندرى من الخطاب – فضلا عن ركاكته – أنه وضع تحت اسم « لوج كوكب الشرق » فى أعلاه رقم هو (١٣٥٥) ، ولعله رقم المحفل فى التسلسل الذى يتبعه ، وكان راعيه المحفل الأكبر الاسكتلندى ، وندرى أيضا أن التاريخ الذى يعلو الخطاب قد استخدم – فضلا عن كلمة « لوج » الفرنسية بمعنى « محفل » – كلمة « جنايو » الإيطالية بمعنى « يناير » ، والتاريخ الماسونى (٥٨٧٨) تحت التاريخ الميلادى ، فضلا عن استخدام رمز (..) فى آخر الخطاب ، وهو من رموز الماسونية وعلاماتها المشهورة .

وفى تلك الفترة التى انهمك فيها الأفغانى فى نشاطه الماسونى ، خطرت له ذات يوم فكرة اغتيال الخديو إسماعيل ، كحل للتخلص من استبداده وإسرافه وبؤس حال العباد ، فقد روى محمد عبده للمستشرق المؤرخ الإنجليزى ويلفرد بلنت : أن الأفغانى اقترح فكرة ضرورة اغتيال الخديو أثناء مروره اليومى بعربته على جسر قصر النيل ، وأنه – أى عبده – وافقه بحرارة ، وإن كان الأمر لم يتجاوز الحديث الخاص بينهما كما قال عبده[٤٢] .

ذكر محمد عبده لبلنت أيضا أن الضابط لطيف سليم المدرس بالمدرسة الحربية ، الذى اعتقل بسبب مظاهرة الضباط ، ضد وزارة « نوبار » الأوربية فى فبراير (١٨٧٩) ، لم يفرج عنه إلا بعد تدخل الماسونيين وتوسطهم لإطلاق سراحه ، وكان سليم ماسونيا ومن مريدى الأفغانى وأعضاء محفله[٤٣] ، وإذا كانت هذه الواقعة هى الوحيدة المسجلة حول نفوذ الماسونية ، فلا شك أن هناك وقائع أخرى لم يسجلها أحد .

ولم يكن الأفغانى وحده متحمسا للماسونية ونشاطها ، فقد شاركه تلاميذه ، ولاسيما من محررى الصحف ، فقد درجت صحيفتا « مصر » و « التجارة » ، اللتان كان يحررهما أديب إسحق على متابعة أخبار رائدهما وزعيمهما ، ومن ذلك مانشرته « التجارة » فى (٢١ يناير ١٨٧٩) ، فقد وصفت إحدى الحفلات الماسونية التى خطب فيها الأفغانى بصفته رئيسا للمحفل فقالت عن المحفل :

« انتظم على مائدتها نيف ومائة قائل بالحرية والمساواة ، معظمهم من وجوه الوطن ونبهائه ، وفيهم فئة كبيرة من ذوى المقامات والعلماء من المسلمين وغير المسلمين ، فقام فيهم الرئيس المحترم خطيبا ، يبين ماهية ذلك الاجتماع ومقاصد الماسونية ، وصفق الحاضرون ونادوا بأعلى الصوت : فلتحيا الحرية والمساواة والإخاء ، ثم توالت الخطب للسعى فيما يوجب سعادة النوع الإنسانى ، وينقذه من ربقة الذل والعبودية ، وتحالفت القلوب على الانتصار للحق والإنسانية ، وألا يخافوا فيهما أحدا »[٤٤] .

وقد استمرت صحافة الأفغانى – إذا صحت التسمية – فى هذه الحماسة للماسونية حتى اعتقاله وترحيله إلى الهند ، وقوى هذه الحماسة أنه أقدم قبل أيام من خلع إسماعيل على تصرف جرىء أثار انقساماً بين الماسونيين ، وأنشب معركة حامية بينهم . فقد ذهب بنفسه ، ومعه سليم نقاش (مدير جريدتى مصر والتجارة)

كمترجم إلى دار القنصلية الفرنسية ، وطلب مقابلة القنصل (مسيو تريكو) ، فلما أذن له بالمقابلة ، دار حوار بينهما حول الأوضاع المتردية ، وضرورة تدخل فرنسا من أجل تنازل إسماعيل لابنه توفيق . وطمأنه القنصل ، وطالبه بالصبر لأن « التنازل صار أمرا مقررا وشيك الحصول » ، والتزام الهدوء لأن القلاقل قد تعود بالضرر على ولى العهد ، ولكن المشكلة بدأت عندما نشرت « مصر » الموضوع فى (٢٧ يونيو ١٨٧٩) بعد تنازل الخديو بالفعل ، فقد استهل الأفغانى حديثه مع القنصل بقوله : « لقد أتيت بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن الحزب الماسونى والحزب الوطنى الحر المنتشر فى جميع أنحاء القطر المصرى »[٤٥] .

فى أعقاب نشر موضوع هذه المقابلة الجريئة نشرت صحيفة « الوقت » احتجاجا من خمسة أعضاء فى « محفل كوكب الشرق » أو « الكوكب الشرقى » – كما ذكرت الصحيفة – على إقحام الأفغانى الماسونية فى الموضوع ، ومخالفته قوانينها التى تمنع التدخل فى المسائل السياسية والدينية ، وكتبت « التجارة » فى ١٠ يوليو ١٨٧٩ ردا بعنوان « الجمعية الماسونية فى الشرق » بإمضاء « أديب » (أديب إسحق) ذكر فيه أن الماسونية « مأمورة بخدمة الإنسانية كيفما كانت الطرق الموصلة إليها »،وأشار إلى ماحدث فى الماسونية الأوربية من تدخل فى السياسة ، وفضل أن يحاكم ذلك « العضو الجليل » ، أى الأفغانى « فى المحفل الرئاسى بدلا من هتك حرمة الماسونية لدى الرأى العمومى »[٤٦] .

وأعلنت « التجارة » فى ١٥ يوليو ١٨٧٩ أنه تقرر فى « محفل كوكب الشرق السنى الماسونى فى جلسة مساء الجمعة الماضى أن يخطّأ الأعضاء الخمسة فيما تهافتوا على نشره فى جريدة الوقت ، مما خرجوا به عن حد الصواب والحق وخالفوا القوانين الماسونية »[٤٧] ، ثم نشرت فى (٥ أغسطس ١٨٧٩) رسالة للأفغانى يعقب فيها على ما خاضت فيه الصحف حول ذهابه إلى القنصل الفرنسى ، قال : « إن المصريين عموما والحزب الحر خصوصا الذى من ضمنه جماعة

الماسون من أبناء الوطن ، قد كانوا غير راضين عن هيئة حكومتهم السابقة ، وكانت جميع أمانيهم حصر الخلافة الخديوية فى سمو ولى العهد على ولائه ، ولأجل إيضاح هذه الأمانى التى من شأنها أن تولى الشرف لكل وطنى حقيقى قد كلفت بالذهاب إلى سعادة الجنرال المشار إليه »[٤٨] .

كانت هذه الكلمة آخر مانشره الأفغانى بالصحف المصرية ، فقد طرد بعد أقل من ثلاثة أسابيع ، وقبل أن يعتقل بيومين نشرت « التجارة » فى (٢٢ أغسطس ١٨٧٩) خبرا مؤداه أنه « وفد على الجناب المعظم (الخديو) وفد من رؤساء الماسون التابعين لشرق مصر الكبير . وخطب أحدهم بين يدى جنابه الكريم »[٤٩] ، وكان هؤلاء من أنصار الأمير حليم بالطبع ، ولكنهم ماذهبوا ليهنئوا الخديو على توليه الخديوية ، فقد فات أوان التهنئة ، وإنما ليتبرءوا أمامه فى الغالب من تصرف الأفغانى ، وإقحامه الماسونية فى السياسة وتحدثه بلسانها ، وإذا ربطنا بين هذا كله وبين طرد الأفغانى ، فمن الممكن القول بأن تصرفه الجرىء قد ساهم بنصيب كبير فى طرده وعجل به .

وبعد طرد الأفغانى من مصر تشتت « إخوانه » الماسونيون . ولم يبق سوى إخوان حليم الذين كان من المحتم عليهم أن يبادروا بالمصالحة مع النظام الجديد ، وإلا تعرضوا لما تعرض له خصمهم . ومن الواضح أن هؤلاء نجحوا فى مبادرتهم كما يتبين من رسالة الأفغانى إلى صديقه رئيس الوزراء مصطفى رياض فى أواخر (١٨٨٢) ، فقد كشف فى هذه الرسالة عن الصراع العنيف بين أنصاره الماسونيين ، وأنصار حليم عقب زيارته للقنصل الفرنسى ، وأرجع سبب تلك الزيارة إلى زيارة أخرى سابقة قام بها الماسونيون « من الإفرنج وأذيالهم » إلى القنصل نفسه . وفيها « بلغوه » صفو (ميل) المصريين مع عبد الحليم باشا وضلعهم معه ، وروعوه من وقوع الفتنة إن عدل عنه إلى غيره » . ويستطرد الأفغانى بقوله : « ولما بلغت هذا أسرعت أنا والمعتزون بحب الخديو (توفيق)

من حزبى إلى القنصل فكذبت مابلغوه ، وأظهرت له جلية الأمر ، وكشفت القناع عما أضمروه ، وقد أعلن كل هذا فى الجرائد الوطنية »[٥٠]

ومعنى هذا فى النهاية أن الماسونيين قد انقسموا فى أواخر عهد إسماعيل إلى فئتين : فئة تسعى إلى إحلال الأمير حليم محل إسماعيل ، ومعظم هذه الفئة من الأجانب ، وفئة أخرى تسعى إلى إحلال توفيق ، ومعظمها من الأهالى تحت قيادة الأفغانى ، وبالرغم من انتصار الفئة الأخيرة بفعل عوامل أخرى أقوى منها ، وأهمها ميل الدول الأوربية والدائنين إلى توفيق ، فقد ذهب الأفغانى نفسه ضحية المناورات والدسائس بين الفئتين ، وكان طرده خاتمة للصراع والنشاط الدائب بين صفوف الماسونية فى تلك المرحلة .

لقد أشار الأفغانى بعد سنوات عديدة إلى سر خلافه مع الماسونية فى القاهرة ، خلال تلك المرحلة بوجه عام ، حين صرح لتلميذه محمد المخزومى فى الآستانة ، بأنه « اكتشف أن الجبن يمكنه أن يدخل بين اسطوانتى المحافل الماسونية » ، وأن شعارات الماسونية استدرجته وجعلته ينضوى تحتها ، فإذا به يجدها مفعمة بالأنانية ، وحب الرياسة والأعمال التى تقودها الأهواء ، وحذر فى الوقت نفسه من أن الماسونية « ستختنق فى المهد » ، إن لم تصلح حالها وتعد إلى أصولها الصحيحة ، التى شوقته للعمل تحت لوائها ، مثل الحرية والإخاء والمساواة ، والسعى وراء دك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل المطلق على حد تعبيره[٥١] .

وعلى الرغم من هدوء نشاط الماسونيين فى مصر بعد طرد الأفغانى وتشتت تلاميذه حتى دخول الانجليز فى يوليو ١٨٨٢ ، فمن المنطقى أن يمضوا فى تأييدهم لتوفيق والمصالح الأوربية ، نظرا لأن أغلبيتهم كانت من الأوربيين ، وأن ينفصل الأهالى الذين كانوا يشكلون أقليتهم على أثر طرد الأفغانى انتظارا لوضوح

الموقف . فلما تردت الأوضاع فى الجيش سنة (١٨٨١) وسيطر عرابى ورفاقه على الموقف ، كان من الطبيعى أن ينضم القسم الأكبر من هذه الأقلية إلى العرابيين ، وهذا ماحدث لتلاميذ الأفغانى ، ابتداء من محمد عبده إلى سعد زغلول ، وكان من الطبيعى أيضا أن تؤثر الأغلبية الماسونية الأجنبية الصمت ، أو مراقبة الموقف فى صمت ظاهرى على الأقل ، ولكن هذا لايمنع احتمال حدوث اتصالات بين العرابيين والماسونيين من أنصار حليم ، وفى كلتا الحالتين انتهت المرحلة كلها بغزو الانجليز .

مرحلة الاستقرار

فى (٢٠ مارس ١٩٠٣) روى المستشرق الإنجليزى ويلفرد بلنت ، أن الشيخ محمد عبده قال له :

« حدثت محاولة لإدخال الماسونية فى مصر فى أواخر أيام إسماعيل باشا ، وكانت جميع المحافل مرتبطة بالمحافل الأوربية ، وقد انضم الشيخ جمال الدين إلى أحدها ، ولكنه سرعان ماا كتشف عدم جدواها فانسحب منها ، وكان إسماعيل يشجعها حين بدأت متاعبه كى تخدم أهدافه ، ولكن الماسونية لم تكن لها قوة فى مصر على الإطلاق »[٥٢] .

ويبدو أن بلنت لم يحاول تقصى تاريخ الماسونية فى مصر ، ولاكان محمد عبده يهمه أن يؤرخ لها ، فقد رأينا كيف دخلت الماسونية مصر قبل عهد إسماعيل ، وكيف حاولت المحافل الأجنبية – ذات الأغلبية الأوربية – أن تشتغل بالسياسة والمكايد ، وكيف انقسمت فى أواخر عهد إسماعيل ، بحيث كان قسم منها يؤيده أو يؤيد خلافة ابنه توفيق له ، وقسم آخر يؤيد ولاية الأمير حليم ، أما أن الماسونية لم تكن لها فى مصر – حتى ذلك الوقت – قوة ولانفوذ فأمر نسبى فى الحقيقة يمكن أن ينطبق على الأقلية المصرية فى المحافل ، ولكنه لاينطبق على الأغلبية الأوربية فيها ، فقد كانت هذه الأغلبية تعمل – بطبيعة تركيبها وانتماءاتها – لحساب المصالح الأوربية وقناصل أوربا ، على الرغم من شعار عدم التدخل فى الدين أو السياسة ، الذى ترفعه الماسونية دائما .

ولعل رالف بورج ، نائب القنصل الإنجليزى فى مصر ، كان من أنشط وأخطر قناصل أوربا فى أواخر عهد إسماعيل وأوائل عهد توفيق والاحتلال ، لافى السياسة فحسب وانما فى الماسونية أيضا ، ولأن المحافل الماسونية تجمع بطبيعتها أناسا مختلفى الأفكار والمشارب ، فهى مصدر مهم من مصادر المعلومات ، ولذلك فلا بد أنها كانت من أهم مصادر معلومات بورج ، وهذا هو أهم مظاهر القوة أو النفوذ الذى كان للماسونية فى مصر – على الأقل – خلال مرحلة تأسيسها ،

بل خلال المراحل التالية ، ثم يأتى بعد ذلك مظهر آخر يتمثل فى حرص أصحابها على رعاية الحاكم لها ، والاحتماء بالشخصيات الكبيرة فى البلد الذى توجد فيه ، وإذا كانت الماسونية فى بداية مرحلة التأسيس السابقة ، قد خاب حظها فى الأمير حليم ، الذى طرده إسماعيل سنة (١٨٦٨) ، فلم يخب حظها مع إسماعيل نفسه ، ولامع ابنه توفيق من بعده ، ولامع السلطان - الملك فيما بعد - أحمد فؤاد ، ولامع كثيرين غير هؤلاء من الشخصيات المرموقة فى مختلف المجالات .

وإذا كانت مرحلة التأسيس السابقة قد بدأت بغزو أجنبى ، فقد بدأت هذه المرحلة - مرحلة الاستقرار - بغزو أجنبى أيضا . ولاتعنينا هذه المصادفة ، وإنما يعنينا أنها - فى الحالتين - تأكيد لطابع الظاهرة المستوردة الذى اتصفت به الماسونية فى تاريخ مصر الحديث بوجه عام ، وأثر فى حركتها وتطورها عبر هذا التاريخ . ولكننا نلاحظ أن الاحتلال البريطانى كان من أهم عوامل استقرارها فى البلاد ، لا لأنها - كما رأينا من قبل - صناعة بريطانية فحسب ، وإنما لأن كثيرين من قادة الاحتلال كانوا ماسونيين متحمسين على الطريقة الاسكتلندية . ومن هؤلاء الجنرال ولسلى ، قائد جيش الاحتلال نفسه ، فضلا عن بعض جنرالاته المشهورين مثل سميث وكتشنر ووينجت ، وشجع هؤلاء وغيرهم كثيرين من ضباط الجيش المصرى على الانضمام إلى المحافل الإنجليزية .

لقد شهدت مرحلة الاستقرار هذه - بما توفر لها من دعم الحاكم والمحتل - عددا من التطورات الإيجابية والسلبية على السواء . وأهم التطورات الإيجابية أربعة هى :

١ - استقطاب الشخصيات الكبيرة والمرموقة .
٢ - احتضان الجاليات الأجنبية والأقليات .
٣ - التوسع الجغرافى .
٤ - ظهور الكتب والصحف الماسونية .

ونتوقف الآن للحديث عن هذه التطورات واحدا بعد الآخر .

أولا - استقطاب الشخصيات الكبيرة والمرموقة :

فى سنة (١٨٨١) تولى منصب الأستاذ الأعظم للمحفل الأكبر الوطنى المصرى رجل أوربى لم يحدد أحد جنسيته ، وإن كان يظهر من اسمه أنه يونانى ، ويدعى ديونيس إيكونو موبولو، وقد استمر فى منصبه حتى سنة (١٨٨٨) ، ولكن الماسونية اضمحلت فى عهده « نظرا لضعفه وعدم اقتداره »[٥٣] ثم عرض الماسونيون المنصب على الخديو توفيق ، أى أنهم أرادوا التخلص من زميلهم مقابل الظهور بمظهر أكبر وأفخم ، وتم ذلك عقب اجتماع انتخبوا فيه الخديو أستاذا أعظم ، بعد أن كان فى المرحلة السابقة عضوا عاديا ، وفور انتخابه ذاك ذهب وفد من المحفل يحمل إليه قرار الرئاسة ، وطلب إليه الوفد قبول القرار « لأنه إذا لم يشد أزرهم آل أمر الماسونية الوطنية إلى الاضمحلال » على حد تعبير شاهين مكاريوس ، بل ألقى أحدهم قصيدة طويلة بين يدى الخديو ، واستهلها بإشارات إلى شعارات الماسونية قائلا :

الحر يدرك بالتوفيق ماطلبا	**وبالمساواة كل يبلغ الأربا**
وبالإخاء رخاء العيش مقترن	**تربو رباه إذا عهد الإخاء ربا**
ومالمساواة إلا العدل وهو على	**مصر بتوفيق مدت روحه طنبا**

ووافق توفيق على اختياره أستاذا أعظم ، ووعد بشد أزر الماسونيين ، ولكنه اعتذر عن عدم حضور اجتماعاتهم ، وأناب عنه وزير الحقانية (العدل) حسين فخرى (باشا)[٥٤] ، أما الشاعر صاحب الأبيات السابقة فكان حفنى ناصف .

ظل الماسونيون يقدرون هذا الجميل حتى توفى توفيق فى (٧ يناير ١٨٩٢) . وحين خرجت جنازته فى اليوم التالى من قصر عابدين « كان من الهيئات المشيعة جماعة الماسونيين »[٥٥]، بل إن المحافل أعلنت الحداد « على رئيس الشرف

الأعظم الأبدى لها ، مدة سبعة شهور »[٥٦]، أما كونه « رئيس شرف » فذلك نتيجة تغير حدث قبل وفاته بنحو عام ، إذ تخلى عن منصبه ، واكتفى بالرئاسة الشرفية ، وحل محله فى (٢٣ يناير ١٨٩١) رجل مصرى هذه المرة انتخب أستاذا أعظم ، ولعب دورا خطيرا فى الحركة الماسونية بعد ذلك ، وهو إدريس راغب (بك) .

وكان راغب (ولد سنة ١٨٦٢) قاضيا بالمحاكم الأهلية وقتها ، وهو نفسه ابن إسماعيل راغب (باشا) ، الوزير ورئيس مجلس شورى النواب فى عهد إسماعيل ، ثم رئيس الوزراء فى عهد توفيق ، وقت احتلال مصر ، وهو من أصل يونانى ، جمع فى حياته ثروة كبيرة تركها لابنه إدريس ، الذى أنفقها بسخاء على الماسونية منذ توليه منصب الأستاذ الأعظم ، فقد قام بتسديد ديون المحفل الأكبر فور توليه ، وأنشأ « محفلا أكبر لدرجة الأساتذة المعلمين » وعندما عين فى سنة (١٨٩٥) ، مديرا لمديرية القليوبية ، أنشأ فى عاصمتها (بنها) محفلا باسمها . وفى عهد أستاذيته ازداد عدد المحافل حتى بلغ (٥٤) محفلا ، منها اثنان باسمه (محفل إدريس رقم ٤٣ ومحفل راغب رقم ٥) . كما أنشأ صحيفة تنطق باسم الماسونية[٥٧] . بل أنشأ – خارج المجال الماسونى – حزبا سياسيا صغيرا سماه « الحزب الدستورى » كان يدعو إلى التمييز الطبقى ، ولايعتد بالحياة النيابية ، مقابل الولاء الكامل للسلطة[٥٨] .

لم يكن إدريس راغب – كما هو واضح – شخصية كبيرة ولامرموقة ، ومع ذلك ظل يشغل منصب الأستاذ الأعظم حتى سنة (١٩٢٢) ، ويبدو أن أمواله لعبت دورا إيجابيا فى بقائه طوال ثلث قرن تقريبا على رأس « السلطة » الماسونية كما سميت فى ذلك الوقت ، وقد حل محله فى ذلك العام الأمير محمد على توفيق ولى العهد ، الذى خلف أباه فى المنصب الشرفى السابق ، ولكن محمد

على لم يستمر طويلا . فقد استقال سنة (١٩٢٧) بدعوى « رغبته فى الإخلاد إلى الهدوء والراحة ، واعتلال صحته ، وعدم قدرته على الحضور فى دار المحفل الأكبر ليلا ، وكثرة أسفاره »[٥٩] وخلفه فى منصبه رجل ثرى آخر يدعى محمود فهمى قطرى (باشا) تولى منصب « الأستاذ الأعظم » سنة (١٩٢٨) لمدة عامين تقريبا . ثم خلفه محمد رفاعة (بك) فأحمد ماهر (باشا) .

ولم يكن هؤلاء وغيرهم هم كل الشخصيات الكبيرة والمرموقة ، التى استقطبتها الماسونية ، فقد ظهرت أسماء أخرى ألمع وأقوى فى صحف الماسونية وكتبها ونشراتها ، على مدى هذه المرحلة ، ففى عشريات هذا القرن نجد ولىّ الدين يكن ، وإبراهيم اليازجى ، وخليل مطران ، وحفنى ناصف ، وإسماعيل صبرى ، وأحمد فتحى زغلول من الأدباء والشعراء والمثقفين ، كما نجد سعد زغلول وعدلى يكن وعبد الخالق ثروت من السياسيين . وفى عشرينيات القرن يستمر ظهور معظم هذه الأسماء ، مضافا إليها محمود رمزى نظيم ، وأحمد زكى أبو شادى من الأدباء ، وعمر سعيد حليم ، وسعيد محمد على حليم ، وسعيد داود من الأمراء والنبلاء ، وعلى شعراوى ، ومحمد حافظ رمضان ، وفؤاد أباظة من السياسيين ، والشيخ حسن مأمون من رجال الدين ، واللواءان على شوقى ومحمد فهمى المتينى من ضباط الجيش . وفى الثلاثينيات ، تستمر معظم هذه الأسماء وتستجد عليها أسماء أخرى ، مثل حسين شفيق المصرى من الأدباء ، ويوسف وهبى من الفنانين ، وأحمد ماهر من السياسيين ، ومحمود رسمى (رائد) ومختار زاهر (نقيب) من ضباط الجيش . وفى الأربعينيات تكاد الصحف والكتب والنشرات الماسونية تختفى ، ولايظهر للنشاط الماسونى أثر ملموس ، ولكن تستمر بعض الأسماء السابقة فى الظهور ، ويستجد عليها رجال مثل : محمد رفعت من كبار موظفى الدولة ، والشيخ محمد أبو زهرة من رجال الدين ، وأحمد غلوش من الأطباء ، وفؤاد سراج الدين من السياسيين .

وتظهر شخصية سعد زغلول كأهم الشخصيات ، التى اهتمت بها الماسونية حتى وفاته سنة (١٩٢٧) . ففى سنة (١٩٢١) ، وضعت « المجلة الماسونية » صورته على أولى صفحاتها بعنوان « مشاهير رجال الماسون » وكتبت تحتها : « حضرة صاحب المعالى الأخ فائق الاحترام سعد زغلول باشا ، نائب أستاذ أعظم شرف بالمحفل الأكبر الوطنى المصرى »[٦٠] ، وفى سنة (١٩٢٢) نشرت المجلة ذاتها نداء إلى جميع السلطات الماسونية العظمى فى العالم تحتج فيه « على ماأصاب الحرية فى شخص أحد أبنائها وصفوة رجالها الأخ فائق الاحترام سعد زغلول باشا ، زعيم الحرية المصرية ورفاقه الأحرار الذين نفتهم السلطة العسكرية الإنجليزية إلى جزيرة سيشيل ، فالمحفل الأكبر الوطنى المصرى يشارك الأمة المصرية فى عواطفها واحتجاجها ، ويتوسل بحق العهود الماسونية إلى جميع الشروق العظمى ، والمحافل الكبرى الماسونية على العموم ، والمحفل الأكبر الإنجليزى على الخصوص ، أن يعملوا على إلغاء الأوامر التى قضت بنفى الأخ الفائق الاحترام سعد زغلول باشا ورفاقه ، والكف عن استعمال القسوة التى اتخذتها السلطة العسكرية الإنجليزية ضد الشعب المصرى الهادىء الأعزل »[٦١] .

ومن الواضح أن هذا النداء الاحتجاجى كان خروجا على مبادىء الماسونية التى تقضى بعدم التدخل فى شئون الدين والسياسة ، ومع ذلك مضت الصحف الماسونية فى ذلك التدخل عن طريق المحفل الأكبر الوطنى المصرى ، ففى أبريل من ذلك العام أرسل المحفل الأكبر إلى الملك فؤاد برقية يناشده فيها العمل على إطلاق سراح سعد زغلول ورفاقه المنفيين[٦٢] ، وفى يونيو (١٩٢٤) استنكرت مجلة « الميثاق » محاولة الاعتداء على « الأخ كلى الاحترام سعد زغلول » بعد عودته من المنفى[٦٣] ، ولما مات سعد زغلول بعد نحو ثلاث سنوات طلب إلى المحافل الماسونية « أن تستعمل فى مكاتباتها أوراقا مجللة بالسواد ، وتلبس الحداد ، وأن يضع جميع الموظفين ورودا سوداء على أوشحتهم ومآزرهم مدة سبعة أسابيع ، وأقيم حفل جناز لذكرى الزعيم المحبوب »[٦٤] .

لم يكن سعد زغلول – على أى حال – عضوا عاملا فى الماسونية ، وإنما كان منصبه (نائب أستاذ أعظم) شرفيا ، يلى منصب الأمير محمد على (الأستاذ الأعظم) الشرفى أيضا حتى سنة (١٩٢٢) ، ومع ذلك حظى سعد زغلول بكل هذا التقدير فى الوقت الذى لم يحظ فيه زميله عبد الخالق ثروت (باشا) بتقدير مماثل ، حتى عند وفاته فى سبتمبر (١٩٢٨) ، فقد أعلن رئيس المحفل الأكبر وقتذاك (محمود فهمى قطرى) أن الماسونية فجعت « بوفاة حضرة الأخ المغفور له صاحب الدولة عبد الخالق ثروت باشا » وأوقف أعمال الجلسة التالية للوفاة « عشر دقائق حداداً ، ثم قرر إرسال برقية عزاء إلى أسرته الكريمة »[٦٥] ، وكان ثروت بدرجة « منبه أعظم شرف » ، أى أنه لم يكن ماسونيا عاملا أيضا .

ومن الواضح أن استقطاب الماسونية لمثل هذه الشخصيات الكبيرة أو المرموقة ، قد ساعدها على الاستقرار ، والظهور بمظهر الأهمية ، والدعاية فى الأوساط غير الماسونية ، والتوسع الجغرافى داخل البلاد .

ثانيا – احتضان الجاليات الأجنبية والأقليات :

إذا كانت الماسونية – كما رأينا – ظاهرة وافدة على أيدى الجاليات الأجنبية ، فمن الطبيعى أن تحتضن أبناء هذه الجاليات ، فضلا عن أبناء الأقليات المستوطنة ، ولكن من الملاحظ فى هذه المرحلة – مرحلة الاستقرار – أن أبرز هذه الجاليات والأقليات التى وجدت الرعاية والتشجيع من الماسونية ، هى الأقلية الشامية المسيحية المهاجرة ، والأقلية اليهودية المستوطنة ، وفى الوقت ذاته وجدت الماسونية فى هذه وتلك كل عون وتشجيع ، ولاسيما فى مجال الإعلام :-

أ – الأقلية الشامية المسيحية :

شهدت مصر ، فى أعقاب استقرار الاحتلال الإنجليزى ، موجة جديدة من المهاجرين المثقفين الشوام ، وتصادف أن كان معظم هؤلاء من لبنان ، ومن متخرجى أو دارسى الكلية السورية الأمريكية ، كماتصادف أن « معظمهم كان من أعضاء جمعية شمس البر التى وصفها الأب لويس شيخو بأنها جمعية ماسونية »[٦٦] وكان من أعضائها المؤسسين شاهين مكاريوس ، ويعقوب صروف ، ومن أعضائها الفخريين فارس نمر ، وكان ثلاثتهم يصدرون فى بيروت مجلة « المقتطف » الزراعية الصناعية العلمية منذ سنة (١٨٧٦) ، ولكن يبدو أن غياب حرية التعبير فى الشام ، فى ذلك الوقت ، قد أثر فى حرية المعتقدات ، وأن الماسونية كانت تعانى هناك نوعا من الاضطهاد الشعبى إذا صح التعبير ، فقد ذكر جرجى زيدان أن أول محفل ماسونى فى بيروت تأسس سنة (١٨٦٢) ثم تلاه آخر سنة (١٨٦٩) ، ولكن الكنيسة الجزويتية قاومت الفكرة الماسونية منذ البداية حتى أصبح اسم « الماسون » عند العامة « مرادفا لأدنى صفات الاحتقار ، فكانوا إذا أرادوا المبالغة فى وصف أحد الكفرة أو المنافقين لايجدون أنسب من قولهم (فارماسون) للإفادة عما فى ضميرهم ، فهى عندهم مرادفة لقولنا كافر منافق مختلس ، وماشاكل ذلك »[٦٧] ، وذكر شاهين مكاريوس أن سمعة الماسونية كانت سيئة إلى درجة تشاتم الأهالى باسمها ، « فيقول الواحد للآخر : (ياابن الفرمسونى) . وعندئذ تثور ثائرة المشتوم ، فيمسك بخناق صاحبه ويصيح : ياناس اشهدوا ، يشتمنى ويقول : ياابن الفرمسونى . أنت فرمسونى وكل أهلك فرمسون »[٦٨] .

ولكن مصر لم تكن تعرف فى ذلك الوقت أى عداء رسمى أو شعبى من هذا النوع ، ولهذا قصدها هؤلاء وغيرهم بحثا عن حرية الرأى والاجتماع والتعبير ، ففى سنة (١٨٨٤) جاء ثالوث:صروف ، ونمر ، ومكاريوس ، إلى القاهرة ،

وتابعوا إصدار « المقتطف » منها . وسرعان مالحق بهم جرجى زيدان وعدد آخر من الكتاب والصحفيين من بينهم إبراهيم اليازجى ، وخليل مطران ، وملحم شكور ، ونعوم شقير ، وجبر ضومط ، وفيلكس فارس ، على التوالى . ولم تمض سنوات قلائل حتى كان الثالوث السابق – بصفة خاصة – قد دعم صلته بسلطات الاحتلال ، بل إن فارس نمر (١٨٥٧ – ١٩٥١) تزوج ابنة القنصل الإنجليزى فى مصر سابقا ثم زوج ابنته – فيما بعد – للسكرتير الشرقى للسفارة الإنجليزية ، وعن طريق تعاونهم مع الإنجليز أصدر شاهين مكاريوس (١٨٥٣ – ١٩١٠) مجلته « اللطائف » سنة (١٨٨٦) ، التى استمرت فى الصدور حتى وفاته ، وأصدر فارس نمر صحيفته « المقطم » سنة (١٨٨٨) ، التى استمرت فى الصدور حتى أواخر (١٩٥٢) ، واستقل يعقوب صروف (١٨٥٨ – ١٩٢٧) بمجلة « المقتطف » التى استمرت فى الصدور حتى أواخر (١٩٥٢) أيضا ، وكانت مطبعة « المقتطف » التى أدارها مكاريوس تطبع المجلتين والصحيفة فى البداية ، فضلا عن المطبوعات الحكومية والإعلانات القضائية التى تتلقاها من السلطة ، وتقارير اللورد كرومر (المعتمد البريطانى) السنوية لحكومته عن مصر ، وكانت مجلة « المقتطف » تترجم هذه التقارير إلى العربية والفرنسية وتوزعها على مشتركيها .

كانت مطبعة « المقتطف » – كما سنلاحظ فى البيليوجرافيا الملحقة – مصدر طبع العديد من الكتب والنشرات الماسونية ، ومن أهم هذه الكتب نحو عشرة مؤلفات لشاهين مكاريوس وإدريس راغب ، فضلا عن مجلة « اللطائف » التى جعلها مكاريوس منبرا بارزا للماسونية ، ومجلة « المقتطف » التى كانت أول مجلة عربية فتحت صفحاتها للماسونية تعريفا وتبشيرا ، ابتداء من سنة (١٨٨٤) ، أى منذ انتقالها إلى مصر ، وجريدة « المقطم » التى أتاحت للماسونية نافذة جماهيرية يومية واسعة .

وإذا كان جرجى زيدان قد اكتفى بكتابه الوحيد الذى سبقت الإشارة إليه ، وهو أول كتاب بالعربية عن الماسونية ، فلم يكتف شاهين مكاريوس بكتبه السبعة ، التى نشرها فى القاهرة عن الماسونية ، ولكنه كان من أنشط - إن لم يكن أنشط - عناصر الدعاية لها ، لاعلى المستوى النظرى فى التأليف والكتابة فحسب ، وإنما على المستوى العملى أيضا ، أى على مستوى المحافل العديدة التى انضم اليها أو أسسها ، وإذا كانت « المقتطف » قد عالجت الماسونية بطريقة معتدلة إلى حد ما - كما سنرى - فقد كانت مجلة « اللطائف » على النقيض من هذا تماما ، فهى « أول مجلة جاهرت بالتعاليم السرية الماسونية فى القطر المصرى » على حد تعبير قسطاكى الحلبى أحد مؤرخى الصحافة العربية[٦٩] ، بل إن صاحبها ومحررها مكاريوس أنشأ محفلا باسمها ، وصفه بقوله إنه « جمعية أدبية شريفة المقاصد لاتتعرض لدين ولا لسياسة ، فهى تضم من المسلمين والمسيحيين واليهود الجم الغفير من أبناء المشرق »[٧٠] ومع ذلك دخلت المجلة سنة (١٨٨٨) فى معركة حادة مع اليسوعيين (الجيزويت) وألبت عليهم الحكومة ، وكان مما نشرته فى تعريف « الحرية » قولها : إنها « لفظ لم نسمع به مستعملا فى معناه المتعارف الآن (١٨٩١) إلا منذ وجود هيئة الماسونية فى مصر »[٧٤] ولعل هذا كاف للدلالة على تحمس المجلة وصاحبها للماسونية دون أى اعتدال .

غير أن « اللطائف » - مجلة ومحفلا - لم تكن كافية - فيما يبدو - لاستيعاب حماسة مكاريوس ، فقد ألف ستة كتب تحمل عناوينها - كما سنرى فى البيليوجرافيا - مضمونا دعائيا صارخا ، فضلا عن كتاب سابع مترجم - دون اسم للمترجم - قام بطبعه وتقديمه بعنوان « تاريخ الماسونية القديمة وآثارها » ، وفيه أضاف فصلا عن تاريخها فى مصر لم يزد شيئا على ما ذكره زيدان من قبل ، سوى تمجيد إدريس راغب والدعاية له ، وذكر فى مقدمة هذا الكتاب أنه انضم إلى الماسونية سنة (١٨٧٣) فى بيروت ، وأورد على غلافه بيانا طريفا بمكانته ومناصبه فى الماسونية ، هذا نصه بعد عبارة « عنى بطبعه شاهين بك مكاريوس » :

« رئيس أعظم شرف مقام العقد الملوكى بإلينويس فى الولايات المتحدة الأمريكية ، ورئيس ثالث أعظم مقام العقد الملوكى الأكبر بمصر ، وعضو شرف فى جمعية أبطال الماسونية القدماء ، وعضو شرف فى كل من محفل اللولو بأمريكا ، ومحفل سلتك الأمريكى ، ومحفل سليمان الملوكى بالقدس ، ومحفل الثبات ، ومحفل الصفا بمصر ، ومحفل سورية فى بيروت ، ومحفل اسكله سليمان بيافا ، ومحفل بنى سويف ، ومقام كوكب الشرق الإنكليزى ، ومجمع الكرنك الفرنسوى لدرجة (١٨) ، ومنبه أول شرف بالمحفل الأكبر الوطنى المصرى ، ومنبه أول الشرق الأكبر المصرى ، ورئيس ومؤسس محفل اللطائف ومقام اللطائف ، ومحفل فينيقية ، ومحفل بدر حلوان ، ومحفل بدر حلوان الكمالى ، ورئيس ومؤسس محفل مكاريوس لدرجة الأساتذة المعلمين (المارك) ومحفل المقطم ، وعضو محفل الإخلاص (المارك) ومحفل الحكمة ، وأستاذ شرف المحفل الأكبر بفلادلفيا ، وحائز لدرجة النخل والصدف ودرجة (٣٣) وغيرهما » .

ومع ذلك ، غلبت الحماسة فى هذه المؤلفات - كما فى هذا البيان - على الموضوعية ، وسيطرت الدعوة على الدعاية وحب الظهور على التواضع ، حتى تحول الرجل - بمفرده - إلى مؤسسة ماسونية كبرى كما رأينا فى قائمة نشاطه .

وإذا كان مكاريوس على هذا النحو من التباهى بقدراته ونشاطه ، فقد كان فارس نمر وصروف أقل تباهيا وحماسة ، فقد اختير رئيس شرف لمحفل الثبات - الذى كان مكاريوس من أعضائه - بالقاهرة . ولم يعرف عن صروف أنه انضم إلى محفل معين ، وإن كان قد بذل نشاطا فى الكتابة عن الماسونية فى « المقتطف » ، ومع ذلك فقد وقع مكاريوس وصروف عام (١٩٠٩) فى معركة طويلة مع الأب لويس شيخو اليسوعى (١٨٥٩ - ١٩٢٧) ، الذى دأب على مهاجمة « المقتطف » وأصحابها فى مجلته البيروتية « المشرق » منذ صدورها سنة

(١٨٩٨) حتى وفاته ، فقد تناول شيخو الدعوة إلى الماسونية فى مجموعها بالنقد الحاد فى سلسلة من المقالات بعنوان « السر المصون فى شيعة الفرمصون » ، وفى هذه السلسلة الفريدة من نوعها ، راح الرجل ينقب فى مؤلفات الماسونيين الفرنسية والعربية ، ليدلل على عدائها للمسيحية ، ولم يدع أصحاب المقتطف ، واللطائف ، والمقطم ، والهلال وغيرهم من الماسونيين الشوام المهاجرين ، دون التدليل على ضعف حججهم ، ومعارضة الماسونية للدين ومناهضتها للسلطة الشرعية ، ويمكن أن نعد هذه السلسلة أول هجوم منظم بالعربية على الماسونية ، بالرغم من سياسة الصمت التى اتخذها – إزاءها – مكاريوس وصروف ونمر وزيدان .

وقد كشفت هذه المعركة فى النهاية عن رسالة بعث بها صروف إلى شيخو ، كنوع من طلب الهدنة ، وهذه الرسالة لم تنشر بالعربية من قبل ، ولكن المستشرق الإسرائيلى س . موريه نشر ترجمة بعضها بالإنجليزية فى كتابه « الشعر العربى الحديث » ، وروى أن الدكتور توماس فيليب بمركز دراسات الشرق الأدنى بجامعة كاليفورنيا ، أعطاه نسخة مصورة لها .

فى هذه الرسالة المؤرخة فى (١٤ يونيو ١٩١١) ، كتب صروف من القاهرة يعترف بأنه انضم إلى الماسونية لمدة (١٠) سنوات من (١٨٧٦ – ١٨٨٦) ويخطىء شيخو فى قوله : إن الماسونية تناقض المسيحية . ثم يضيف :

« إنها – على العكس – تؤلف بين قلوب المسيحيين والمسلمين ، وتجعل المسلمين يحترمون الديانة المسيحية » .

ومع أن موريه لم ينشر النص الكامل للرسالة ، ومع أننا لاندرى شيئا عن ظروفها ، فإن السطرين السابقين يكشفان عن تفكير الأقلية الشامية المسيحية فى مجتمع غير مسيحى مثل مصر ، ويؤكدان ماسبق أن قلناه ، من أن الماسونية تجتذب الأقلية عادة ، أيا كانت ديانتها . فصروف المسيحى فى بلد أغلبيته مسلمة

مثل مصر يسعى إلى الماسونية لأنه يعتقد أنها تفرض على الأغلبية احترامه أو حمايته ، وهذا مايؤكد حرص الماسونية أيضا على الاحتماء برجال الحكم وأقطابه ، ومع ذلك يبدو أن المسألة كانت – كما قلنا – طلبا للهدنة ، وإيقاف المعركة ، لأن صروف لم يكن بحاجة إلى هذا النوع من التبرير وقتها فى ظل استقراره ونجاح مجلته .

غير أن هذا الحماس الشديد الذى أبداه المهاجرون الشوام المسيحيون نحو الماسونية لم يستمر طويلا ، فبعد وفاة مكاريوس سنة (١٩١٠) ، خف الحماس كثيرا ، وبعد وفاة صروف سنة (١٩٢٧) ، ازداد الحماس فتورا ، ولكن الماسونية ذاتها كانت قد استقرت ، ولم تعد بحاجة كبيرة إلى الدعاية ، بعد العقود الثلاثة الأولى من مرحلة الاستقرار هذه ، أى منذ (١٨٨٢ إلى ١٩١٢) تقريبا . ومع ذلك ليس من اليسير التقليل من الدور الدعائى للماسونية ، الذى لعبه كتاب الجالية الشامية المسيحية وصحفيوها خلال هذه العقود الثلاثة على الأقل ، وإذا عدنا إلى قائمة الصحف المدرجة فى الببليوجرافيا ، فسوف نجد أن عدد الصحف التى اهتمت بالماسونية يبلغ (١٠) صحف منها خمس كان يملكها ويحررها شاميون مسيحيون ، فى حين أن عدد الصحف التى تخصصت فى الماسونية يبلغ سبع صحف ، لم يكن منها سوى صحيفة واحدة لأبناء تلك الأقلية مقابل ثلاث صحف لأبناء الأقلية اليهودية .

ب – الأقلية اليهودية:

يمكن القول – دون الدخول فى تفصيلات كثيرة – : إن مرحلة استقرار الماسونية هذه (١٨٨٢ – ١٩٤٨) كانت تمثل فى الوقت ذاته العصر الذهبى لليهود فى تاريخ مصر الحديث ، وقد أتاح لهم الاحتلال البريطانى – كما أتاح للماسونية – الكثير من فرص النمو والازدهار . وكان أظهر رد فعل لذلك هو التزايد المستمر فى هجراتهم إلى مصر .

لقد كان اليهود أقلية مستوطنة فى مصر ، طوال التاريخ القديم والحديث ، ولكن عددهم بدأ فى الزيادة المستمرة فى أعقاب الاحتلال البريطانى ، فقد بلغ عددهم سنة (١٨٨٢) نحو (٢٠) ألفا ، ثم بدأ هذا العدد فى الارتفاع – بالهجرة لابالتكاثر وحده – (من ٢٥٢٠٠) سنة (١٨٩٧ ، إلى ٣٨٦٣٥ سنة ١٩٠٧ ، إلى ٥٩١٤٨سنة ١٩١٧ ، إلى ٦٣٥٥٠ سنة ١٩٢٧ ، حتى وصل إلى ٦٤٤٨٤ سنة ١٩٤٧) ، ومن الواضح فى هذه الأرقام أن عدد اليهود لم يتوقف عن الزيادة غير الطبيعية ، وإن كانت الزيادة الأخيرة محدودة ، وسبب ذلك هجرة كثيرين منهم إلى فلسطين وغيرها حتى قبل (١٩٤٧) ، وقد رافق هذه الزيادة المستمرة ازدياد واضح فى حجم الأسر الكبيرة وأموالها ونفوذها من جهة ، وازدياد فى حجم الوضع اليهودى فى الماسونية من جهة أخرى .

وقد وجد اليهود فى الماسونية ماوجده فيها المسيحيون الشوام : مظلة للحماية ، ووسيلة لاكتساب عطف الأغلبية واحترامها ، فضلا عن كونها مجالا خصبا للعلاقات العامة التى لاتتيسر المصالح بدونها . بل إنهم نجحوا فى سنة (١٩٢٢) فى تحويل الماسونية إلى أداة لخدمة الصهيونية ، وأحلام الوطن القومى فى فلسطين كما سنرى بعد ذلك .

وإذا كانت الأقلية الشامية المسيحية قد برزت فى مجال الدعاية والإعلام للماسونية ، فقد برزت الأقلية اليهودية فى هذا المجال أيضا ، وكانت جهودها تالية من ناحية الكم لجهود الأقلية الشامية المسيحية ، ولكنها كانت أكثر منها تركيزا وتفوقا فى مجال المحافل ، أى المجال العملى للماسونية . فقد أصدر اليهود ثلاث صحف متخصصة فى الماسونية ، وهى : « المجلة الماسونية » التى أصدرها فى الإسكندرية يوسف لغلوفه سنة (١٩٠١) ومجلة « الإخاء » التى أصدرها فى القاهرة رحمين فرجون سنة (١٩٠٦) ومجلة « الأخبار الماسونية » التى أصدرها فى القاهرة أيضا موسى جرونشتين (مع إسكندر فرج والبير بزيات) سنة

(١٩٢١) ، ومع ذلك كانت هذه الصحف الثلاث قصيرة العمر بوجه عام ، كما سنرى عند الحديث عن الكتب والصحف الماسونية .

لم يكن اليهود أقل نشاطا وحماسة فى المحافل أيضا ، فقد ترددت أسماؤهم كثيرا فى أخبار المحافل ونشاطها فى الصحف والنشرات الماسونية ، ولاسيما فى العشرينيات ، ومن هذه الأسماء ناثان سوسان سكرتير محفل « الإيمانسيباسيون » (كلمة فرنسية بمعنى التحرر) بالإسكندرية سنة (١٩٠٣)[٧٣] ، وموسى جرونشتين مؤسس ورئيس محفل إسكندر الأكبر فى القاهرة حتى وفاته فى مارس (١٩٢١) وموسى مصلياح رئيس محفل فؤاد رقم (٢٢٠) بالقاهرة سنة (١٩٢١)[٧٤] ، وإيلى عقرب مساعد خزان أعظم وشاءول عقيرب مساعد حامل علم أعظم بالمحفل الأكبر بالقاهرة سنة (١٩٢١) ، وسلمون جولد شتين أمين خزينة أعظم وألبرت بزيات مرشد أول أعظم بالمحفل الأكبر بالقاهرة سنة (١٩٢٢) (الأخير هو نفسه شريك جرونشتين فى تأسيس مجلة « الأخبار الماسونية »[٧٥]) ،وعزرا نحماد وإيلى ليفى وإدموند ميلى وصول دافاس وعزرا شاوول ولينا دوا وس . س . فروجيه موظفون وضباط عظام بالمحفل الأكبر سنة (١٩٢٣ / ١٩٢٤)[٧٦] .

وتكشف قائمة المحافل وأساتذتها العظام لسنة (١٩٢٨) عن (٥٢) محفلا تحت لواء المحفل الأكبر الوطنى المصرى فى تلك السنة ، منها محفل « أحيقام » الذى جعل لغته العبرية ، فضلا عن (٨) محافل تشغل الأسماء اليهودية مناصب الأساتذة العظام فيها (فيكتور موديانو وليون ستاراسلسكى ويوسف شحاته هرارى وليون محرز فى القاهرة ، إيلى حتويل وهوجز موسو وسابينو كاليا فى الإسكندرية ، ماير دنكور فى السويس) فى حين شغل المسيحيون الأقباط (٣) مناصب مقابل لاشىء للمسيحيين الشوام ، ٢٤ للمسلمين ، ١٧ لليونانيين وغيرهم من الأوروبيين ، أى أن الوجود اليهودى فى الإعلام والمحافل لم يكن عابرا أو محدودا فى تلك الفترة .

ثالثا – التوسع الجغرافى :

كان من نتائج استقرار الماسونية فى هذه المرحلة ، أنها بدأت فى النمو والتوسع داخل مصر وخارجها ، وإذا كان التوسع الداخلى طبيعيا لازدياد الإقبال على المحافل ، فقد كان التوسع الخارجى تطورا غير مسبوق :

أ – فى الداخل :

يتبين من متابعة الصحف الماسونية المتخصصة ، أن عدد المحافل أخذ فى الازدياد المستمر ، طوال الثلث الأول من هذا القرن على الأقل ، ففى سنة (١٩٠٣) بلغ عدد المحافل (٤١) محفلا ، ولم تقتصر هذه المحافل على المدن المصرية الكبرى مثل القاهرة والإسكندرية ، وبورسعيد ، وطنطا ، وإنما تعداها إلى المدن الصغرى مثل السنبلاوين وبنها والإبراهيمية[٧٨] ، وفى سنة (١٩٠٧) بلغ عدد المحافل (٤٢) محفلا ، أى بزيادة محفل واحد ، وكان أكثرها فى القاهرة والاسكندرية ، ولكنها دخلت مدنا أخرى لم تعرفها من قبل مثل ميت غمر ، وكان تقسيمها الجغرافى كالآتى : (٣٢) فى القاهرة ، و (٥) فى الاسكندرية ، و (٢) فى طنطا ، ومحفل واحد فى كل من المنصورة ، والزقازيق ، وميت غمر[٧٩] ، وفى سنة (١٩٢١) بلغ عدد المحافل التابعة للمحفل الأكبر الوطنى المصرى وحده (٢٩) محفلا ، وبلغت إيرادات هذا المحفل فى المدة من يناير إلى يونيو (١٩٢١) نحو ٣٨٧٢,٩٤٦ جنيها ، وبلغ رصيده ٣٠١١,٤١٨ جنيها[٨٠] ، وفى سنة (١٩٢٤) بلغ عدد المحافل المصرية العاملة التابعة لسلطات (ماسونية) معروفة لدى المحفل الأكبر فى القاهرة والإسكندرية ، وطنطا ، والخرطوم ، وعطبره ، والسويس ، والمنصورة نحو (٢٥) محفلا[٨١] ، وفى سنة (١٩٢٧) بلغ عدد المحافل التابعة للمحفل الأكبر ٥٢ محفلا ، وبلغ عدد أعضائها ٦٥٠٠ عضو[٨٢] ، وفى سنة ١٩٢٩بلغ عدد المحافل التابعة للمحفل الأكبر[٥٢]محفلا ، وكان توزيعها كالآتى : (٢٦) فى القاهرة ، و (١٣)

فى الإسكندرية ، و (٢) فى كل من بورسعيد ، والسويس ، والإسماعيلية والمنصورة وكفر الزيات ، محفل واحد فى كل من بنها وطنطا ودمنهور[٨٣] .

ومن الواضح فى هذه الأرقام أنها مالت إلى عدم الاستقرار بشكل عام بالرغم من ارتفاعها المستمر تقريبا ، وأن بيان المدن التى عرفت هذه المحافل يدل على أن حركة المحافل بالنقص أو الزيادة كانت تتبع حركة استقرار الأقليات والجاليات الأجنبية فى هذه المدن ، ولكن يبدو من عدد الأعضاء سنة (١٩٢٧) أن هذه المحافل لم تكن مزدحمة بالأعضاء ، ولاكانت عضويتها ساحقة ، وأن الانضمام لها كان أشبه بالانضمام إلى الأندية الاجتماعية المحدودة ، بل إن هذا العدد ذاته لايتناسب مع الدعاية التى بذلتها المحافل وأنصارها ، ولكن المسألة – كما هى دائما فى الماسونية – ليست مسألة كم ، فالأعضاء يختارون بعناية ، والمصالح التى تربطهم لابد أن تكون قوية .

ب – فى الخارج :

لم يعرف عن الماسونية المصرية أنها تخطت حدود البلاد قبل سنة (١٨٩١) ، بحيث يصبح لها رعايا من المحافل خارج مصر ، ولكن حدث أن حصل شاهين مكاريوس على رخصة من المحفل الأكبر الوطنى المصرى لتأسيس محفل تابع له فى بيروت فى ذلك العام (١٨٩١) تحت اسم « محفل فينيقية » وإن كان الوالى العثمانى أغلقه بعد قليل ، بأمر من السلطان عبد الحميد[٨٤] ، وبعدها تأسست بعض المحافل فى أنحاء متفرقة من الشام (سوريا ولبنان وفلسطين) ، وازداد عدد هذه المحافل مع الزمن ، حتى إن المحفل الأكبر فى مصر قرر فى جلسة (٤ ابريل ١٩٢٨) تسمية المحفل الأكبر لسوريا وفلسطين باسم « المحفل الأكبر الإقليمى لسوريا ولبنان »[٨٥] وفى ذلك العام بلغت المحافل التابعة للمجفل الأكبر المصرى (١٧) محفلا خارج مصر (راجع الملاحق) منها (١٠) محافل فى فلسطين ، و (٥) فى لبنان ، ومحفل واحد فى

كل من دمشق والبصرة ، وكانت (٧) محافل من العشرة التى فى فلسطين تحت رئاسة اليهود[٨٦] ، وفى الثلاثينيات ظل عدد المحافل كما هو ، ولكن اليهود كانوا يشكلون ٨٥٪ من عضوية (١٢) محفلا منها[٨٧] .

ويبدو أن دخول المحفل الأكبر المصرى فى عملية التوسع الجغرافى الخارجى هذه كان سببا فى استقرار أحوال الماسونية ، وتحسن سمعتها فى الشام ، بعد أن ساءت من قبل على نحو ماأشار زيدان ، ومكاريوس ، كما كان سببا فى انتشار نفوذ المحفل خارج مصر .

رابعا – ظهور الكتب والصحف الماسونية :

يتبين من البيليوجرافيا الملحقة أن الماسونية شهدت خلال مرحلة الاستقرار هذه نشاطا ملحوظا فى التأليف والصحافة على السواء :

أ – التأليف :

ظهر أول كتاب بالعربية عن الماسونية فى القاهرة سنة (١٨٨٩) كما ذكرنا من قبل ، وبذل مؤلفه جرجى زيدان جهدا واضحا فى جمع مادته التاريخية وتحبيبها للقارىء ، ثم تلاه شاهين مكاريوس ، الذى بلغت كتبه عشرة ، منها واحد مترجم ، طبعه وعقب عليه بفصل تاريخى عن الماسونية فى مصر ، وكان أول كتاب يظهر لمكاريوس سنة (١٨٩٥) بعنوان « الآداب الماسونية » ، وتعد كتبه العشرة رقما قياسيا فى هذا المجال ، لم يتخطه أحد بعده ، وبلغت حصيلة المرحلة كلها من الكتب (٣٥) كتابا وكتيبا بعضها غير معروف المؤلف أو الناشر ، وبعضها فنى من النوع الذى يعنى بشعائر الماسونية ، ولاسيما الكتب الخمسة التى وضع إدريس راغب اسمه عليها ، وقد طبع معظم هذه الكتب بمطبعة « المقتطف » التى كان يديرها مكاريوس ، ومن الملاحظ أن العصر الذهبى فى التأليف عن الماسونية

يقع فى الفترة من (١٨٨٩ إلى ١٩١٠) ، ففى تلك الفترة التى انتهت بوفاة مكاريوس ظهر (٢٤) كتابا من مجموع الكتب السبعة والثلاثين ، ومن الملاحظ أيضا أنه لم يظهر فى مصر خلال المرحلة كلها أى كتاب معاد للماسونية كما حدث فى لبنان .

وابتداء من كتاب « تاريخ الماسونية العام » لجرجى زيدان غلب على التأليف الماسونى طابع الترجمة والتلخيص من الكتب الأوربية ، وهذا أمر طبيعى ولاسيما فى الكتابة عن الجوانب التاريخية العامة ، والشعائرية الخاصة للماسونية ، كما غلب طابع الدعاية ، وهذا أمر طبيعى أيضا فى ظل حماسة أنصار الماسونية الأوائل التى قادتهم إلى التعميمات والمبالغات .

لقد اهتم جرجى زيدان – على سبيل المثال – بنقل كل مايخص الرجوع بالماسونية إلى أقدم العصور ، وزاد عليه القياس والاستنباط من عنده ، ففسر الأبنية الضخمة فى مصر القديمة كالمعابد والمقابر ومايوازيها فى الأندلس ومصر الوسيطة كالمساجد والقصور على أنها من نتاج الماسونيين الأوائل ، وترجم مايعرف فى الماسونية باسم « لائحة يورك » نسبة إلى مدينة « يورك » الإنجليزية ، وهى لائحة جمعت من الأوراق الماسونية القديمة ووضعت عام (٩٢٦) ، وضمت كثيرا من المواد ، التى مازال العمل جاريا بها عند الماسونيين المحدثين ، ومن هذه المواد مايتعلق باحترام الله والإخلاص للسلطان ، والإذعان لأوامر الحاكم ، ومساعدة الأخ الماسونى ، وكتمان الأسرار عن الغير ، والامتثال لأوامر الرؤساء ، ومعاونة الماسونيين الوافدين[٨٨] .

واهتم مكاريوس ، من جهة أخرى ، بكل هذه الأمور ، ولكن مما يسترعى النظر فى كتبه وكتب إدريس راغب ، ذات الطابع الفنى أو الشعائرى ، أنها تكشف عن صلة واضحة بين اليهودية والماسونية ، ففى كتابه « الأسرار الخفية فى الجمعية الماسونية » يقول : إن « الأستاذ الأعظم الأول هو سليمان بن داود النبى

الملك »[٨٩] وفى الفصل الخاص بتأسيس المحافل يقول : إن من شروط التأسيس أن يقدم تسعة أساتذة عريضة إلى المحفل الأكبر باسم الأستاذ الأعظم فإذا وافق الأخير يحضر بنفسه لتكريس المحفل رسميا ، ويتلو دعاء معينا (راجع الملاحق) ثم يقرأ على الحاضرين المزمور المائة والثالث والثلاثين من مزامير داود ، الذى جاء فيه ذكر « ندى حرمون النازل على جبل صهيون ، لأنه هناك أمر الرب بالبركة حياة إلى الأبد » ثم ينادى الخطيب الحاضرين بقوله : « اشكروا ياإخوانى بصوت عالٍ يهوه الذى شيدت القبة والهيكل لعبادته ، وذكر اسمه الأعلى»وبعدها يتلو دعاء آخر يسمى « دعاء التخصيص »،ثم يقف الإخوان فيتلو الرئيس دعاء ثالثا يستهله بقوله : « نسألك ياإلهنا وإله بنى إسرائيل يامن لاإله غيرك » ويروى فيه حكاية بناء سليمان بيتا لاسم الرب وبيتا لملكه[٩٠] .

ليست الصلة بين هذه الشعائر وبين التراث اليهودى فى التوراة وغيره خافية ، وليس هناك اعتراض أن تستعين هذه بتلك ، ولكن الإلحاح على الشعائر والرموز اليهودية لايمكن أن يأتى عفوا هنا ، ولاسيما إذا علمنا أن الماسونية تلح على احترام الأديان ، دون الالتزام بدين معين ، والمعنى الواضح هنا هو أنها تخلط الشعائر والرموز اليهودية بشعائرها ، وأن هذا الخلط ليس من السهل أن يأتى عن طريق المسيحيين من منظريها ، ولاعن طريق المسلمين من أنصارها ، وإذا جاء على سبيل التسامح فلابد أن يكون لليهود يد فيه ، أو فى اقتراحه .

وتتأكد هذه الصلة الواضحة بين الشعائر والرموز اليهودية والماسونية فى الكتب التى وضعها إدريس راغب ، ولاسيما فى كتابه « الدرجة الأولى » ، ففى هذا الكتاب شرح لبعض رموز هذه الدرجة (درجة التلميذ أو المبتدىء) عن طريق السؤال والجواب ، ومن هذه الأسئلة سؤال عن اتجاه الريح فى الماسونية وجوابه « من الشرق إلى الغرب » بهدف « ترويح نفس الرجال وقت الشغل » ، ولكن له معنى آخر ، هو أنه « رمز للريح ذى المعجزة الذى كان ضروريا لخلاص بنى

إسرائيل من أسر المصريين » ، ومن الواضح أن هذا المعنى مقحم على السياق إقحاما ، لأنه لاتوجد علاقة بين الريح وخروج بنى إسرائيل من مصر ، إلا على سبيل التذكير بما حدث لهم من أسر وتحرير ، وهذا ماتمضى فى توضيحه الأجوبة بعد ذلك ، فتقص قصة إرادة مهندس الكون الأعظم فى تخليص « شعبه المختار (الإسرائيليين) من أسر المصريين » وماحدث لهم فى البحر حتى وصلوا سالمين إلى بر الأمان ، « وقد أحيا ذكر هذا الخلاص بنو إسرائيل فساروا أياما فى الصحراء ينشدون ويشكرون الله القادر الذى نجاهم ، ومن هذا التاريخ اعتبر أن الريح الشرقى موافق للماسونية »[٩١] .

هذه الإشارات وغيرها لم يظهر لها مقابل من الإشارات المسيحية أو الإسلامية ، مما يؤكد عندنا احتمال اشتراك اليهود – فى مرحلة مبكرة – فى وضع شعائر الماسونية ورموزها . وليس من المستبعد – بالطبع – أن يكونوا قد ساهموا فى تنشيط الماسونية الرمزية ، وبعثها على أنقاض الماسونية العملية ، فقد ظهرت الماسونية الرمزية فى القرن الثامن عشر ، فى وقت كانوا مضطهدين فيه فى كثير من أرجاء أوربا .

ومن جهة أخرى اتصل بالتأليف عن الماسونية نشاط آخر ، تمثل فى شكلين محددين من أشكال الكتابة ، وهما المقال والقصيدة .

أما المقال فكان وسيلة الإعلام الأساسية عند الماسونيين حتى فى مرحلة التأسيس السابقة ،كما سبق أن رأينا عند الحديث عن صحف تلاميذ الأفغانى ، وظلت للمقال هذه المكانة فى مرحلة الاستقرار هذه ، وربما كانت مقالات مجلة « المقتطف » أكثر اعتدالا فى لهجتها الدعائية من مقالات الصحف الأخرى ، ومنها مقال بعنوان « الماسونية فى البلاد العثمانية » ظهر بدون توقيع فى عدد فبراير (١٩١٠) . ويستهله المحرر بقوله :

« من غرائب أطوار الإنسان أن غرضه يعميه عن رؤية الحقائق ، ولو ظهرت أمامه واضحة مجسمة . مثال ذلك اتهام بعض الناس للجمعية الماسونية بأنها جمعية سياسية معادية لكل سلطة مدنية ، وهم يرون أعظم الملوك ، والوزراء ، ورجال السياسة من أعضائها العاملين فيها ، المؤيدين لها ، وهم من دول مختلفة وأمم متباينة ، بل كيف يعقل أن يكون لهم غرض سياسى يجمعهم ، وهم مختلفون سياسة تمام الاختلاف ، ولاينكر أن الماسونية تسعى لتحرير الناس من قيود الجهل والظلم والاستبداد ، وهى الغاية التى تسعى إليها الآن كل الحكومات الحكيمة الرشيدة ، ولذلك لاتناقض بين مقاصدها ومقاصد الملوك والوزراء ، وسائر رجال السياسة ، فينتظمون فى سلكها ويؤيدونها ، وحسبك شاهدا مافعلته جمعية الاتحاد والترقى العثمانية ، وأكثر أعضائها من الجمعية الماسونية المسترشدين بإرشادها » .

وعلى هذا النحو من التناول الهادىء الذى يبث الدعاية ولايصرح بها يمضى المحرر فيطبق منطقه على ماتتهم به الماسونية من عداء للأديان ، مع أن فى سلكها – كما يقول – عددا كبيرا من رؤساء الأديان المختلفة ، ثم يدلل على أن الماسونية لاغرض لها « إلا أن أعضاءها يساعد بعضهم بعضا فى أمورهم الزمنية ، ويسعون فى كل مايعلى شأن البشر » ويكون دليله أن المحافل الانجليزية أنفقت فى العام الماضى (١٩٠٩) مبلغ (٥٢) ألف جنيه فى مساعدة الأرامل والمعوزين ، و (٤٤) ألف جنيه فى تعليم البنات ، و (٣٦) ألف جنيه فى تعليم الصبيان . وينتقل إلى الاعتراض على الماسونية بأن فيها أسرارا لاتفشيها ، فيقول « إن هذه الأسرار محصورة فى إشارات يخبر الماسون بعضهم بعضا بها ، وفى رموز تستعمل فى كتبهم كالرموز التى يستعملها الرياضيون فى كتب الجبر ، وقلما يتعذر فهمها على من يطلب ذلك » .

ويتحدث المحرر ، بعد هذا ، عن فضل الماسونية على العثمانيين فيقول : إنها « بثت فى نفوس أعضاء جمعية الاتحاد والترقى روح الحرية ، وبها اقتدوا فى إنشاء

جمعيتهم التى فكت قيود الاستبداد » وأخيرا يورد أخبار حفل أقامه الماسونيون فى القاهرة ، بمناسبة افتتاح محفل جديد باسم « محفل نيازى » بطل الحرية العثمانى ، يرأسه نعوم شقير ، ويضيف أن من شهود الحفل « عطوفة إدريس بك راغب ، الرئيس الأعظم للمحافل الماسونية المصرية » ، وأن كلمات وخطبا ألقيت خلال الحفل فى فضل الماسونية ، بالإضافة إلى قصيدتين نشر المحرر نصهما : الأولى لولى الدين يكن الشاعر التركى المقيم بالقاهرة ، والأخرى لنعوم شقير المهاجر الشامى المسيحى ورئيس المحفل الجديد[٩٢] .

ومن الملاحظ أن انتصار حركة « تركيا الفتاة » وتقويضها لحكم السلطان عبد الحميد ، كان لهما أثر إيجابى فى الحركة الماسونية فى مصر ، خلال تلك الفترة ، وقد استغل دعاتها وجود بعض الماسونيين فى الانقلاب العثمانى ، فحاولوا الاستفادة من ذلك فى دعايتهم – كما فعل محرر المقتطف – ولاسيما بين المثقفين فى مصر ، الذين كان كثير منهم يكره استبداد عبد الحميد فى تركيا .

وأما القصيدة فقد لعبت دورها – كشكل أدبى – فى الدعاية للماسونية خلال المرحلة ، ولكن لماذا اهتم الشعراء بالماسونية ؟

الجواب ينطبق على الصحفيين والكتاب الذين ناصروها فى كتاباتهم ، أى بعد أن (تمسونوا) إذا صح التعبير . وهكذا الحال مع الشعراء الذين ارتبطوا منذ القدم بالتقليد المفسد للشاعرية المعروف باسم « شعر المناسبات » ويبدو أن سبب « تمسون » الكثيرين من هؤلاء وأولئك يرجع إلى الشعارات الماسونية البراقة فى الحرية والإخاء والمساواة ، وهى شعارات كانت تحلق فوق أرض تموج – وقتها – باستبداد الولاة العثمانيين والنزاعات والصراعات الطائفية فى الشام بصفة خاصة ، مما أدى إلى حماس كثيرين من المثقفين – ومنهم الشعراء – للماسونية .

وبالرغم من التصنع الواضح فى الأبيات الشعرية الثلاثة التى مرت بنا فى مدح الخديو توفيق والماسونية ، فهناك شعراء موهوبون كتبوا عن الماسونية بعد أن

وا فيها وتأثروا بتعاليمها ، وأبرز هؤلاء شعراء المهجر الأمريكى الشمالى :
..ر.. ، وأمين الريحانى ، وميخائيل نعيمة ، وإيليا أبو ماضى ، وقد (تمسونوا) بعد هجرتهم كنوع من الاحتماء – فى الغالب – من الغربة ، والحماية لأنفسهم كأقلية ، والاقتراب من المجتمع الجديد .

أما فى مصر فقد (تمسون) عدد من الشعراء ، منهم ولى الدين يكن التركى المهاجر ، وإبراهيم اليازجى ، وخليل مطران ، ونعوم شقير ، المهاجرون من الشام ، فضلا عن إسماعيل صبرى ، وحفنى ناصف ، ومحمود رمزى نظيم ، وحسين شفيق المصرى ، وأحمد زكى أبو شادى . وقد ظهرت أسماء هؤلاء فى قوائم أعضاء المحافل عبر مرحلة استقرار الماسونية ، ولكنهم لم يستجيبوا جميعا للكتابة عنها شعرا .

وإذا عدنا إلى الحفل الذى أشارت إليه « المقتطف » قبل قليل فقد ألقى فيه ولى الدين يكن قصيدة استهلها بقوله :

ياعصر قد حسدتك اليوم أعصار ... الأمر شورى وكل الناس أحرار

ومنها هذه الأبيات التى يستخدم فيها مفردات ورموزا ماسونية :

تنوع الخير مرئيا ومستمعا ... فلتجتل الخير أسماع وأبصار
هذا الإخاء بنا شدت أواصره ... تقسمته قلوب فهو أشطار
يسير من مهج تسرى إلى مهج ... فينا فتمضى الليالى وهو سيار[٩٣]

وألقى نعوم شقير – الأقل موهبة – قصيدة محييا نيازى بك أحد أقطاب الانقلاب العثمانى فقال :

فتى الأحرار لاتخش الصعابا ... ولاتحسب لنائبة حسابا[٩٤]

وإذا كانت هذه وتلك من قصائد المناسبات ، فقد شدت المناسبات الماسونية عددا آخر من الشعراء ، أبرزهم محمود رمزى نظيم ، وأحمد زكى أبو شادى .

نشر نظيم عددا من قصائده الفصحى والشعبية ، فى صحف العشرينيات الماسونية ، ومنها أبيات ارتجلها فى تهنئة الشيخ أحمد مخلوف ، الذى انتخب سنة (١٩٢١) رئيسا لمحفل المروءة رقم (٢٠٣) . وفيها يقول :

يامعشر الماسون أنتم عصبة ... الله تمم نورها وسناءها
تتعاونون لنشر كل فضيلة ... أخفى الزمان عن العيون رواءها
إن المروءة لاتزال مصونة ... بين الورى مادمتمو نصراءها[٩٥]

وكان نظيم قد انضم إلى هذا المحفل فى ٣ سبتمبر من ذلك العام ، أما أبو شادى فقد تحمس للماسونية خلال العشرينيات أيضا ، ربما لعلاقته الوثيقة بالشاعر خليل مطران ، وربما لأسباب أخرى . وانضم إلى محفل فى بورسعيد فى الفترة ذاتها ، وكتب قصيدة بعنوان « الماسونية » ألقاها أمام وفد من المحفل الأكبر كان قد جاء إلى بورسعيد لتثبيت محفلها ، ويستهل القصيدة بقوله :

باسم الإخاء أحيى كل مأثرة ... فيكم وإنصاف مغبون ومظلوم

ويقول عن الماسونية بعد استخدام كثير من مفرداتها الشائعة :

لها المساواة نبراس كأن بها ... سرا من الشمس فى وحى وتعميم[٩٦]

غير أن هذا الشعر الماسونى لم يستمر طويلا بعد العشرينيات . وكأن فورته رافقت الفورة الماسونية خلال الحقبة ذاتها ، ثم هبطت بهبوطها .

ب – الصحف :

يتبين من دراسة الصحف فى تلك المرحلة ـ مرحلة الاستقرار ـ أن الصحف التى اهتمت بالماسونية اهتماما عاما كان عددها (١٠) صحف بين يومية ، وأسبوعية ، وشهرية . ومع أن معظم هذه الصحف تفاوتت أعمارها بين القصر مثل « الفلاح » و « الصادق » ، والتوسط مثل « اللطائف » و « النظام » فمنها صحيفتان عمرتا طويلا ، وهما « المقتطف » (٧٦ عاما) و « المقطم » (٦٤ عاما) ، كما يتبين أن الصحف التى اهتمت بالماسونية اهتماما خاصا ، أى أنها تخصصت فيها ، كان عددها سبع صحف ، وكانت أولى هذه الصحف المتخصصة « المجلة الماسونية » التى أنشأها يوسف لغلوفه فى الإسكندرية سنة (١٩٠١) ، وعهد بإدارتها وتحريرها إلى نقولا سابا ، ولكن هذه الصحف السبع غلب عليها قصر العمر فلم تعش أطولها عمرا أكثر من تسع سنوات ، وهى « الجريدة الماسونية » التى أنشأها نقولا سابا فى الاسكندرية سنة (١٩٠٣) . ومع ذلك امتدت هذه الصحف المتخصصة إلى خارج القاهرة والإسكندرية ، حين أنشأ محمد سيف النصر مجلة « الإخاء » فى المنصورة سنة (١٩٣٠) .

● الصحف ذات الاهتمام العام :

كانت الماسونية تحظى فى هذه الصحف بقسط ملحوظ ، ولكنه محدود – فى النهاية – داخل إطار الاهتمامات الأخرى المتنوعة ، ومع ذلك كانت تحرص على نشر أهم أخبار الحركة الماسونية وأحداثها ، وكان بعضها يتولى الرد على أسئلة القراء الخاصة بالماسونية ، وتعد « المقتطف » من أبرز هذه الصحف التى كان يغلب عليها – فى الوقت ذاته – طابع التحيز ، ولننظر هنا فى بعض ردود « المقتطف » على أسئلة القراء لنرى إلى أى مدى كان التحيز والدعاية والمحاماة :

١ – فى عدد إبريل (١٩١٧) ثلاث مواد ، فى باب كانت المجلة تسميه « المسائل » ، ردا على ثلاثة أسئلة من أحد القراء (الخواجه إيلى بلتنر) من مصر عن فائدة الجمعيات الماسونية ، وجوابه : « الغرض الأول من الماسونية التعاون على البر ، فإذا قام أعضاؤها بما يطلب إليهم ، وتعهدوا به عاشوا عيشة فاضلة ، وساعد بعضهم بعضا فى كل ماينفعهم ولايضر غيرهم » . أما السؤال الثانى فعن صحة انتظام ذوى المقامات فى الماسونية وسبب ذلك ، وجوابه : « ذلك صحيح ، وفى الماسونية مرغبات أخرى للاشتراك فيها غير ماتقدم مثل الرتب والنياشين وحفلات الأنس ، والملوك وأصحاب المقامات أميل من غيرهم إلى هذه الأمور ، فلا عجب إذا اشتركوا فى الماسونية ، بل العجب إذا لم يشتركوا فيها » وأما السؤال الأخير فعن قبول النساء فى الماسونية ، وجوابه : « إن بعض الجمعيات الماسونية يقبل النساء بين أعضائها ، ولكنها قليلة ، والغالب أنها خاصة بالرجال »[٩٧] .

٢ – فى عدد مايو (١٩٢٦) مادة فى باب « المسائل » ردا على سؤال لقارىء من العراق ، حول حقيقة الماسونية . وجوابه : « هى جمعية تعاون لاتتعرض للدين ولاللسياسة ، ولذلك ينتظم فيها الناس من كل الأديان ... وغايتها التعاون ... وهى تهتم باختيار أعضائها من فضلاء الأنام ، وتبقى إشاراتها سرية ، حتى لايستعملها أناس لاخلاق لهم فيفسدوا عليها عملها ، ولما كان أكثر أعضائها من المتعلمين المتهذبين الذين لايتسلط عليهم التدجيل شنأها بعض المتجرين به ، وبعض رجال الأديان الذين توهموا أنها مضادة لدينهم ، هذا وغنى عن البيان أن الماسون غير معصومين فى انتقاء الأعضاء ، ولكنهم يبذلون جهدهم كيلا يخدعوا ، ولا الماسونية تكفل تغيير الأخلاق الفطرية ، ولكنها تسعى إلى ذلك جهدها بالبحث والمعاشرة »[٩٨] .

الصحف ذات الاهتمام الخاص :

كانت الماسونية تحظى فى هذه الصحف بنصيب الأسد ، إن لم يكن بمجموع

الصحيفة ، ومن الطبيعى أن تكون مثل هذه الصحف المتخصصة محدودة الجمهور والانتشار . ولهذا كان الطابع الغالب فى طريقة صدورها هو الصفة الشهرية ، ولم يكن منها سوى اثنتين نصف شهريتين ، وهما : « الجريدة الماسونية » التى أسسها فى الإسكندرية نقولا سابا سنة (١٩٠٣) و « الإخاء » التى أسسها فى القاهرة رحمين فرجون سنة (١٩٠٦) ولكن الأولى لم تستمر أكثر من تسع سنوات بين انقطاع وانتظام ، فى حين توقفت الأخرى بعد بضعة أشهر ، ولكن كان من هذه الصحف واحدة أسبوعية ، هى « الإخاء » التى تحمل الاسم السابق ذاته ، وقد أسسها فى المنصورة محمد سيف النصر سنة (١٩٣٠) ، ولم تستمر أكثر من عامين ، بل إنها لم تلتزم طويلا بالطابع التخصصى ، وتحولت بسرعة إلى الصحف ذات الاهتمام العام ، وكان ينطق باسم المحفل الأكبر من هذه الصحف : المجلة الماسونية والميثاق .

وباستثناء « الجريدة الماسونية » التى اتخذت شكل الصحيفة ذات القطع القريب من التابلويد ، حرصت الصحف الست الأخرى على اتخاذ شكل المجلة التى يتفاوت قطعها بين قطع « المقتطف » ، وقطع المجلات الأسبوعية المعتادة ، ونظرا لتخصص هذه الصحف ، فقد كانت تحرص على نشر الأخبار والتفصيلات الصغيرة ، التى تضيق بها الصحف ذات الاهتمام العام .

من هذه الأخبار مانشرته « المجلة الماسونية » فى سبتمبر (١٩٠٣) عن محفل « نوفا أورورا » ، وهو اسم إيطالى معناه « الفجر الجديد » . يقول الخبر ذو التعليق :

« ساءنا ماوصل إلينا من أن أحد إخوان هذا المحفل قد أباح لأحد الإخوان الغائبين عن إحدى جلساته أسرار أعمال تلك الجلسة ، ومادار من الأقوال فيها بشأنه ، فترتب على ذلك أن الأخ الذى استرق تلك الأسرار جاء مؤنبا أحد

المحترمين ، الذين كانوا حاضرين فى الجلسة ، وهو عضو فى المحفل ، ومنبه فيه ، على ماقاله بشأنه ، وقد أخبره بكل مادار من المذاكرات فى المحفل ، فعلم أن الذى أباح له ذلك هو أحد الإخوان الأساتذة ، وترتب على ذلك تقديم استعفاء ذلك المحترم من عضوية المحفل ومن وظيفته بقوله : إنه لم يعد له ثقة بأن يبدى رأيا فى المحفل بشأن أيا كان ، خشية إباحة أسرار الأعمال ، وقد علمنا أن المحفل نظر لهذه المسألة بعين الأهمية . وعين لها لجنة للبحث والتنقيب . وسيحاكم ذلك الأخ الثرثار على مابدر منه مما يخالف قانون العشيرة »[٩٩] .

وإذا كان هذا الخبر التعليقى أو التعليق الخبرى ، يكشف عن حرص الماسونية على سرية مايدور داخل جلسات محافلها ، فقد حرصت الصحف الماسونية أيضا على نشر أوامر الأستاذ الأعظم للمحفل الأكبر ، وأخبار تحركاته ومايهم الماسونيين من شئون ، ومن ذلك مانشرته « الجريدة الماسونية » عن شروط قبول « الأجانب » ، أى غير الأعضاء ، فى الماسونية ، وهى أربعة : أن يبلغ سنه (٢١) سنة إلا إذا كان من أولاد الإخوان الأساتذة ، وعندئذ يجوز قبوله فى سنة الثامنة عشرة ، وأن يكون سليم الجسم خاليا من العاهات المعدية ، وأن يكون حاصلا على العلوم الابتدائية بقطع النظر عن اللغة الأجنبية ، وأن يكون ذا صفة شريفة ، ولديه من الوسائل مايكفى لعيشه ، بحيث يكون إيراده السنوى (١٢٠) جنيها على الأقل[١٠٠] . وهذه شروط عامة منقولة عن شروط الماسونية فى البلاد التى نشأت فيها ، وهى إن دلت على شىء فإنما تدل على أن الماسونية ليست ناديا أو منتدى مفتوحا بغير تمييز طبقى أو اجتماعى .

ومن الموضوعات التى نشرتها « الجريدة الماسونية » فى ذلك الوقت موضوع حول علاقة الماسونية بأمور الدين ، ويتلخص فى أن أحد الإخوان (اسمه فارس أفندى) من لبنان جاء إلى مصر مبعوثا من « دولة المتصرف » هناك بغرض استمالة

الرئيس الأعظم للماسونية المصرية ومحافلها لمساعدته « فى مقاومة الإكليروس اللبنانى ، وتجديد انتخابه على المتصرفية » ، ولكن محاولته لم تجد الترحيب طبقا للفقرة الرابعة من محضر الجلسة ، التى عقدها المحفل ، وهى : « تمنع الماسونية من اجتماعاتها منعا باتا كافة المداولات الدينية والسياسية » واختتمت الجريدة الموضوع بأن « الماسونية المصرية جمعية خيرية أدبية ولاعمل لها إلا إعانة الفقير ، ومساعدة المحتاج »[١٠١] .

ولم تكن هذه الصحف المتخصصة تقتصر على الأخبار والتعليقات والموضوعات الماسونية ، فقد كان شعار الجريدة الماسونية « جريدة إخبارية انتقادية حرة » وكان شعار المجلة الماسونية « مجلة ماسونية أدبية علمية اجتماعية تاريخية » ، وكان شعار مجلة الميثاق « مجلة علمية أدبية فكاهية مصورة » ، وهكذا ، ومع ذلك ظلت هذه الشعارات نوعا من الطموح الذى لم يستطع أصحابه تحقيقه ، وإن كانت أعداد هذه الصحف لم تخل من مواد أدبية ، أو طرائف بصفة خاصة ، فقد كانت « المجلة الماسونية » – على سبيل المثال – تنشر – من حين لآخر – قصائد لأدباء المهجر : جبران ، ونعيمة ، وأبو ماضى ، والريحانى . وكان بعض هذه الصحف ، ولاسيما « الأخبار الماسونية » ، يخصص قسما باللغة الفرنسية ، وكان القسم الفرنسى فى « الأخبار الماسونية » ، الذى حرره « الأخ الفارس » ألبير بزيات ، يكاد يكون الأصل فى المجلة ، فى حين أن القسم العربى فيها الذى حرره « الأخ الفائق الاحترام » إسكندر فرج و « الأخ المحترم » موسى جرونشتين كان أقرب إلى الترجمة عن القسم الفرنسى ، ومع ذلك نشرت شعرا ومقالات ومترجمات لمحمد الهراوى ، ومحمد بدران ، ومنصور فهمى ، وعلى الخفيف ، وشكيب أرسلان ، على امتداد أعدادها الثلاثة الوحيدة .

كان من بين المواد المترجمة فى هذه المجلة التعريف الرسمى – كما تسميه – للمادة الأولى من قانون (١٠ أغسطس ١٨٤٩) الماسونى . وهذا نصها :

« الجمعية الماسونية جمعية خيرية فلسفية سيارة ، ترتكز على مبدأين عظيمين : المبدأ الأول الاعتقاد بوجود خالق الكون الأعظم . والمبدأ الثانى الاعتقاد بخلود النفس ، وموضوعها التدريب على الإحسان ، ودرس علم الأخلاق العام والعلوم والفنون ، وممارسة جميع الفضائل ، وإن شعارها فى كل زمان ومكان هو الحرية * والمساواة * والإخاء * »[١٠٢] .

وعرفت المجلة الإله عند الماسونية بقولها :

« إله الماسون واحد عام غير مخلوق ، أبدى ، كلى القدرة ، عالم رءوف خالق لكل مايوجد بقوته القاهرة ، مدبر للعالم بحكمته ، يعامل عباده بالرأفة الأبوية ، منبع كل نور وعدالة ، أنموذج الكمال ، يمتنع عن العقول إدراك ذاته ، ولايعرف إلا بصفاته ، لهذا ترى الماسونيين يكتفون بالتعبير عنه بقولهم : مهندس الكون الأعظم »[١٠٣] .

وعرفت الخلق الماسونى بقولها :

« الخلق الماسونى ليس كاثوليكيا ، ولابروتستانتيا ، ولايهوديا ، ولامحمديا ، ولكنه عام »[١٠٤] .

هذه المقتطفات تتردد بكثرة – وإن كانت بعبارات أخرى – فى الكتابات الماسونية الفرنسية بصفة خاصة ، وهى كتابات تحاول – كما رأينا – أن تضفى طابعا فلسفيا على الماسونية ، وأن تربط هذا الطابع بشعار الثورة الفرنسية المشهور .

ومن الطبيعى أن تهتم الافتتاحيات ، أو المقالات الافتتاحية ، فى هذه الصحف بالشئون الماسونية . وفى بعضها تسجيل لكثير مما مر على الماسونية فى مصر من تطورات . ففى افتتاحية العدد (٩ من السنة ٣) للمجلة الماسونية بعنوان «يضع القارىء عنوانها» يطرح المحرر قضية ماسونية خطيرة ، فهو يبدأ بالحديث

عن انتشار الماسونية فى مصر ، ولكن سرعان مايدخل فى صميم القضية حين يقول : « يدخل فى العشيرة كل طامع بمساعدتها ، فإذا لم تساعده طمع بأموالها ، فاختلس ماتصل إليه يده وتسعه ذمته » وتلك – كما يقول – قضية من قضايا بشاعة الماسونية فى القطر المصرى ، ولكن هناك غيرها « من نحو حب الرئاسة ، والتشامخ ، والتمسك بالرأى ، والتدليس فى الوجوه ، والنميمة ، والوقيعة ، إلى آخر مايتسفل به السافل ، ويطاوعه ضميره الساقط » ، واختتم المحرر الافتتاحية بالإشارة إلى الأمر الذى أصدره الأستاذ الأعظم إدريس راغب ، بالتحرى عن طالب الالتحاق فى قلم السوابق فى المحافظات ، والمديريات والقنصليات[١٠٥] .

ولعل ماأشار إليه المحرر هنا ، يشكل فى الحقيقة قضية أخلاقية لم تنجح الماسونية فى مداواتها ، وإذا كان ماكتبه يرجع إلى سنة (١٩٠٣) فقد مر بنا شىء من هذا التدهور الخلقى فيما حدث للأفغانى سنة (١٨٧٩) ، وفيما صوره هو نفسه فى الآستانة بعد ذلك ، وسوف نرى بعد قليل كيف أدى هذا التدهور الخلقى إلى انقسام الماسونية وصراع أصحابها سنة (١٩٢٢) .

ولعله قد اتضح لنا الآن أن الفترة من (١٩٠١ إلى ١٩٢٥) كانت فترة الصحافة الماسونية – بحق – فى مصر ، وعصرها الذهبى ، أى منذ صدور « المجلة الماسونية » سنة (١٩٠١) إلى توقف مجلة « الميثاق » سنة (١٩٢٥) . وبعدها تدهورت الصحافة الماسونية المتخصصة حتى اختفت بعد سنة (١٩٣٢) ، ولم يعد للماسونية صوت إعلامى إلا فى الصحافة ذات الاهتمام العام . ولعله قد اتضح لنا الآن أيضا أن الماسونية – فيما عرضناه من كتبها وصحفها – كانت فى أساسها بضاعة الأقلية غير المسلمة ، من المسيحيين الشوام ، واليهود المستوطنين ، بالرغم من إقبال المسلمين على محافلها .

النشاط الاجتماعى :

ماذا كان نشاط الماسونية فى تلك المرحلة ، التى رفعت فيها شعار الخدمة الاجتماعية ، والبر والإحسان ؟

لقد استقرت الماسونية فى تلك المرحلة كما رأينا ، ووجدت من الحكام وممثلى الاحتلال التشجيع والمباركة ، وأصدر أنصارها كتبا وصحفا ، ونظم شعراؤها القصائد والأزجال ، وكثر عدد أتباعها وازدادت محافلهم ، وأصبحت ملء السمع والبصر كما يقولون ، وبلغ من شهرتها عند الناس أن المسرح المزدهر فى تلك الفترة اهتم بها وقدمها لجمهوره . ففى اكتوبر (١٩٠٧) قدمت فرقة عزيز عيد مسرحية باسم « الماسون » على خشبة دار التمثيل العربى ، ثم على خشبة « تياترو الشيخ سلامة حجازى » ، وكانت المسرحية فرنسية فى الأصل من نوع « الفودفيل » ، أى الكوميديا الخفيفة المصحوبة بالأغانى والموسيقى ، وقد قدمت لأول مرة فى باريس فى سنة (١٩٠٥) . وهكذا لم يكد يمضى على تقديمها هناك نحو عامين حتى ترجمت وقدمت فى القاهرة ، ومعنى هذا أنه كان لها جمهور . وفى سنة (١٩٢٨) التى كانت ذروة تلك المرحلة – كما رأينا – أعادت فرقة يوسف وهبى تقديم المسرحية على مسرح رمسيس ، واشترك فى تمثيلها مختار عثمان ، ومحمد عبد القدوس ، وتغير اسمها إلى « الماسونية » وكان ذلك فى شهر نوفمبر من تلك السنة .

وقد عرض الناقد المسرحى محمد توفيق يونس لهذه المسرحية ، وذكر أن الماسونيين فى مصر وقتها ظنوا أنها تهاجمهم ، فاهتموا بأمرها ، واستعلموا عنها ، حتى من الناقد نفسه ، وتحدث عن الضجة التى أثارتها بسبب عنوانها ، وكيف كان الاسم سببا لإقبال الجمهور عليها ، « ظنا منه أنه سيشاهد شيئا من أسرار الماسونية المزعومة وخفاياها الموهومة ، والحقيقة أن الرواية لاتتعرض للماسونية بخير ولاشر ، وانما تتخذ من ادعاء بعض أشخاصها أنهم ماسونيون موضوعا

لسلسلة من المواقف الفكهة والحوادث المضحكة »[١٠٦] . ومن الواضح أن تقديم المسرحية مرتين على هذا النحو كان من قبيل الاستفادة من وضعى الاستقرار والشهرة الذين حققتهما الماسونية فى تلك المرحلة .

ومع ذلك لم يزد النشاط الاجتماعى للماسونية ، بصفتها جمعية خيرية ، على التبرعات والولائم والمساهمة فى المدارس وإعانة الفقراء والمحتاجين ولاسيما من أعضائها أو أسرهم . وهذه بعض الأمثلة :

١ – فى سنة (١٩٠٣) قرر المحفل الأكبر الوطنى مساعدة ابن الأخ المرحوم محمد الزرو ، وذلك بإرساله إلى المدرسة ، والإنفاق على تعليمه سنويا بمبلغ ستة جنيهات ، كما قرر اعتماد صرف مبلغ (٢٠) جنيها لأولاد الأخ المحترم دونيس الرئيس السابق لمحفل راغب عن سنة (١٩٠٣)[١٠٧] ، وفى الوقت ذاته اشترك محفل المقطم مع محفلى بدر حلوان واللطائف فى تربية عشرين تلميذا من فقراء مدينة حلوان وتعليمهم الصنائع المختلفة ، وقام شاهين مكاريوس بتعليم بعضهم فى مطبعة « المقتطف » ، وتعهد الثرى اليهودى سوارس صاحب سكة حديد حلوان بتسفير التلاميذ ، ذهابا وإيابا ، دون مقابل[١٠٨] .

٢ – فى سنة (١٩٠٧) أقام محفل الصدق الماسونى حفلا فى دار التمثيل العربى ، خصص إيراده لمشروع الجامعة المصرية ، وألقى فيه الشاعر حافظ إبراهيم قصيدة مطلعها :

إن كنتم تبذلون المال عن رهب   فنحن ندعوكم للبذل عن رغب[١٠٩]

٣ – فى سنة (١٩١١) نشرت مجلة « المنار » نقلا عن مراسل « المقطم » فى الإسكندرية أن « نخبة من الماسون ورجال الجمعيات الأخرى شارعون فى إنشاء مدارس للتعليم المطلق من كل سلطة دينية يعلمون فيها التلاميذ على مذهب ابن رشد »[١١٠] ويبدو من هذا الخبر الذى قصد به الإساءة للماسونية أن

المشروع لم يتحقق .

٤ – فى سنة (١٩٢١) أقام المحفل الأكبر « وليمة ماسونية » تكريما لكل من « حضرة الأخ كلى الاحترام صاحب السمو الأمير محمد على ، أستاذ أعظم شرف للمحفل الأكبر الوطنى ، وحضرة الأخ فائق الاحترام صاحب المعالى سعد زغلول باشا رئيس الوفد المصرى »[١١١] وفى السنة ذاتها تبرع محفل صدق الوفا رقم (٢٠٤) بالقاهرة بمبلغ خمسة جنيهات لإعانة منكوبى حرب الأناضول[١١٢] .

لم يتجاوز النشاط الاجتماعى الماسونى المظاهر السابقة على أى حال ، وهى مظاهر لاتجعله متفردا فى عصره ، ولاتضفى عليه مكانة من نوع خاص ، وإذا كان هذا النشاط مطلوبا بحكم القانون الماسونى السابق ذكره فقد كان محدوداً بوجه عام .

- التطورات السلبية :

يمكن أن نعد التطورات السابقة جميعا تطورات إيجابية خدمت الماسونية ودعمت استقرارها فى تلك المرحلة ، ومع ذلك شهدت الماسونية بعض التطورات السلبية التى أثرت فى مكانتها ، وأدت إلى تمزقها وتفتتها ، ولاسيما خلال المرحلة التالية ، ويمكن أن نجمل هذه التطورات فى ثلاثة هى : الهجوم المضاد ، التورط السياسى ، الانقسام .

أ – الهجوم المضاد :

لم تجد الماسونية أرضا مفروشة بالسجاد على الدوام فى مصر منذ دخولها ، فقد كانت الأشواك تهدد مسيرها فى كثير من الأحيان ، ولاسيما فى مرحلة الاستقرار هذه وماتلاها ، وتمثلت هذه الأشواك فى الهجوم المضاد الذى واجهته بين حين وآخر . وبالرغم من أن هذا الهجوم كان محدود الانتشار ، لايلقى أى

عناية من الصحف التى يصدرها الشوام المسيحيون ، بما فيها « الأهرام » ، فقد ظل قائما يجد متنفسا له فى الصحف ذات الاتجاه الإسلامى مثل مجلة « المنار » والصحف ذات الاتجاه الليبرالى ، مثل جريدة « السياسة الأسبوعية » وكثيرا ماكان هذا الهجوم يبدأ من نقطة التغلغل اليهودى فى الماسونية .

ومن أبرز ماكتب فى هذا المجال مقال بعنوان « الخطر اليهودى » لمحمد عبد الله عنان ، نشرته « السياسة الأسبوعية » فى يوليو (١٩٢٨) ، وفيه تحدث الكاتب عن خطر اليهود ومايسميه هؤلاء «خصومة السامية » ، أى العداء للجنس السامى ، وأشار إلى ماتعرض له حين أصدر كتابه « تاريخ الجمعيات السرية » من الحملات العديدة فى الدوائر والصحف اليهودية فى مصر وغيرها ، وكان قد تناول فى هذا الكتاب تاريخ الجمعيات الماسونية ، وتغلغل اليهود فيها ، ثم أشار إلى أعراض هذا الخطر ، وكيف أنها تتمثل فى المحاولة الخفية المنظمة لاستعباد العالم ، ومحو كل دين عدا اليهودية . وقال : « إن فكرة فوز إسرائيل على أمم الأرض جميعا مازالت تتقد فى صدور بنى إسرائيل ، وتتخذ فى عصرنا نوعا من العقيدة المقدسة ، حتى فى أذهان المتنورين والأحرار من مفكريهم »[١١٣] .

فى الأسبوع التالى نشرت « السياسة الأسبوعية » تعليقا على هذا المقال لمحمد كامل حسن من مدينة الزقازيق بعنوان « الخطر اليهودى أيضا : البناية الحرة فى مصر » وفيه أيد الكاتب ماجاء فى المقال السابق عن « وجوه الخطر الماحق الذى سوف يَدْهم العالم يوما ما ، والعالم يسبح فى جو الخيال ، تاركا قادة اليهود يعملون فى الخفاء دون أن يثيروا الريب والشكوك بعملهم هذا تحت ستار جمعيات الإخاء ، التى يسمونها البناية الحرة » ثم أضاف المعلق أنه بدأ حياته الماسونية منذ خمسة أعوام تقريبا ، فقد دخلها بإغراء الدعاية لها فى التضحية وخدمة الإنسانية

– كما يقول – ولكنه لم يعثر إلا على نقيض تلك « المبادىء المغررة الفاتنة » ، بل وجد أن « أغلبية تلك الفئة (الماسونية) هم اليهود وهم الذين يقودون العشيرة تحت هذا الستار الخلاب » ، وأن الماسون هم أظهر القرائن وأقواها على وجود الخطر اليهودى ، واختتم تعليقه بأن « هناك من الأسرار الخفية مالو أذيع لروع العالم وأخطأ التقدير فى حكمه ، وأمسى يرى تلك الفئة بالعين المجردة إنما تعمل لهدم بقية الأديان دون دينهم » ووعد بالتكاتف لفضح الماسون واليهود[١١٤] .

وبالرغم من أن عنان والمعلق على مقاله لم يعودا إلى الموضوع بعدها ، ولم يف المعلق بما وعد ، فقد انصرفت الجريدة عن الخوض فى الموضوع ، ونشرت فى أعقاب ذلك مايشبه الإعلان عن براءة الماسونية مما نسب إليها ، ومع ذلك ظل هذا المقال والتعليق عليه أعلى مظاهر الهجوم المضاد ، وأكثرها جدية فى تلك المرحلة .

ب – التورط السياسى:

لعلنا لمسنا إلحاح الماسونية ، من الناحية النظرية على الأقل ، على عدم التورط فى السياسة أو الدين ، ومع ذلك لم تنج الماسونية فى مصر من هذا التورط ، لافى المرحلة السابقة – مرحلة التأسيس – كما رأينا ولا فى هذه المرحلة ، التى رسخت فيها واستقرت أمورها ، وقد تدرج التورط فى هذه المرحلة من الاحتجاج على نفى سعد زغلول ، ومناشدة الملك فؤاد التدخل لإطلاق سراحه – كما مر بنا – ، إلى مناشدة أهل فلسطين التزام الهدوء والسكينة ومشاركة اليهود فى بناء الوطن المشترك .

أما الاحتجاج على نفى سعد ، ومناشدة الملك التدخل لإطلاق سراحه ، فيبدو أن الموجة العارمة فى البلاد وقتها ضد الإنجليز وتصرفاتهم هى التى دفعت « السلطة الماسونية » إلى إعلانه ، فقد قدم عبد المجيد يونس – كاتب السر الأعظم فى المحفل الأكبر – ذلك الاحتجاج بكلمة عنوانها « الماسونية والحالة الحاضرة »

أشار فيها إلى ماردته الصحف وقتها (يناير ١٩٢٢) عن سكوت المحفل الأكبر إزاء مايحدث فى البلاد ، وصمته عن الاحتجاج على أعمال السلطة العسكرية ، وأضاف : « إن من عادات الماسونية ، بل واجباتها أن تعمل فى الخفاء ولاتعلن أعمالها ، ولكن حيث إنه مطلوب من المحفل الأكبر بإلحاح أن يعلن مافعله فى الظروف الحاضرة فإنى أرسل لحضرتكم (يقصد مدير المجلة الماسونية) صورة من الاحتجاج الماسونى ، الذى سبق رفعه للشروق العظمى ، والمحافل الكبرى الماسونية ، وقد وقع هذا النداء الأستاذ الأعظم إدريس »[١١٥] .

وأما مناشدة أهل فلسطين التزام الهدوء ، ومشاركة اليهود فى بناء الوطن المشترك ، فقد مر بنا ، عند الحديث عن التجربة اليهودية فى مصر ، أن حاييم وايزمان رئيس المنظمة الصهيونية العالمية ، توقع وأنصاره فى مطلع سنة (١٩٢٢) أن يقوم عرب فلسطين – كعادتهم – بأعمال عنف ضد اليهود ، أثناء احتفالاتهم بمولد نبيهم موسى ، فطلب إلى ممثل المنظمة فى القاهرة العمل على توجيه بيان من بعض أهل الثقة فى مصر إلى عرب فلسطين ، لحثهم على التزام الهدوء ، أثناء تلك الاحتفالات التى يشهدها يهود من مختلف بلاد العالم . وتوصل مندوب المنظمة عن طريق أحمد زكى باشا ، مدير دار الكتب (شيخ العروبة فيما بعد) إلى طريقة لإصدار هذا البيان عن رئاسة الماسونية فى مصر ، التى يمثلها المحفل الأكبر الوطنى المصرى مقابل ألف جنيه .

لقد نجحت المحاولة الصهيونية بالفعل ، وأصدر المحفل الأكبر البيان المطلوب بتاريخ (٢ أبريل ١٩٢٢) ، وهو موعد سابق على موعد احتفالات المولد ، ووقعه إدريس راغب الأستاذ الأعظم للمحفل وهيئة مكتبه . وكان بعنوان «نداء إلى أهالى فلسطين» من « المحفل الأكبر الوطنى المصرى للبنائين الأحرار القدماء المقبولين » وقد كتب بصيغة خطابية ، ووجه إلى جميع فئات فلسطين وطوائفها

كبارا وصغارا ، رجالا ونساء ، ودعا الجميع إلى إفساح المجال لليهود فى سبيل فائدة الوطن المشترك وعظمته ، وتوفير أسباب السلام والوئام والتسامح وحقن الدماء ، وخص عرب فلسطين بالعمل على تحقيق هذه المطالب ، وعد كلماته ممثلة لمصر ، الشقيقة الكبرى . (راجع نص النداء فى الملاحق) .

ويبدو أن هذا النداء ، قد وصل إلى أهل فلسطين ، عن طريق المنشورات لا الصحف ، ثم مالبثت الصحف فى مصر أن أشارت إلى وصوله إلى أيدى الفلسطينيين وعندئذ نشرت جريدة « النظام » النص الكامل للنداء تحت عنوان « العشيرة الماسونية والمحفل الأكبر الوطنى المصرى » ومع أن الجريدة كانت من الصحف المهتمة بالماسونية ، وكان صاحبها ومحررها سيد على الحريرى ماسونيا ، فقد وقعت الموضوع بتوقيع « ماسونى متألم » ، وأغلب الظن أنه هو نفسه صاحبها ومحررها ، وقد استهل الموضوع بقوله :

« الجمعية الماسونية جمعية خيرية ، تقوم على مبدأ مساعدة الضعفاء والمساكين والدفاع عن الحرية ، والانتصاف للمظلوم ، ولم نكن نعرف أنها جمعية سياسية تتداخل فى أمور الشعوب ، وتتصرف فى شئونها ، وتدعوها للاستسلام لمغتصبى حقوقها إلا اليوم ، عندما قرأنا الرسالة التى نشرتها زميلتنا (الأهرام) الغراء من يافا ، وهى تتضمن الرد على المنشور الذى أرسله المحفل الأكبر الوطنى المصرى إلى أهالى فلسطين ، يدعوهم إلى الاستسلام للصهيونية ، وتركها تعمل ماتشاء فى بلادهم ، ويطلب ألاّ يتعرضوا لها فى أغراضها القومية »[١١٦] .

ثم أبدى المحرر دهشته من تدخل المحفل الأكبر على هذا النحو ، وكيف « كان يأبى أن يبدى رأيه فى المسألة المصرية ، مدعيا أن الجمعية الماسونية جمعية خيرية لادخل لها فى السياسة ، وكانت دهشتنا أكبر لأن تلك الدعوة التى أرسلها المحفل الأكبر إلى إخواننا أهالى فلسطين كانت مرسلة باسم الأمة المصرية ، التى

تطالب بحريتها » وأبدى لومه الشديد لما حدث من المحفل ، ثم تلاه بنص المنشور كاملا ، وعقب عليه بما رد به محفل يافا من الاحتجاج والاستنكار ، واختتم التعليق بعبارة : « فهل لايرى المحفل الأكبر الوطنى المصرى فى هذا الكلام مايخجل ؟ كفى »[١١٧] .

ولم يكن محرر « النظام » يعلم – فى الغالب – قصة الضغط الصهيونى من أجل الحصول على هذا النداء ، فهذه القصة كشفتها أوراق وايزمان ورسائله ، التى جمعت ونشرت سنة (١٩٧٧) ، ولكن يتبين من تقديمه للموضوع أنه كان على علم بجانبها المتعلق بممثل المنظمة الصهيونية فى القاهرة ، وجهوده فى هذا السبيل .

لم يكن فى النداء دعوة صريحة لقبول الوطن القومى اليهودى فى فلسطين ، ولااعتراف بحق اليهود فيه ، وإنما كان فيه إلحاح على فكرة « الوطن المشترك » ، وهى ذاتها الفكرة التى روجتها الصهيونية فى مصر وقتها ، حتى تجد عن طريقها منفذا إلى البقاء والنشاط داخل القاهرة والإسكندرية ، ومع ذلك كان النداء جريئا ، لافى كلماته فحسب ، ولكن فى توقيته أيضا ، فقد استقر الإنجليز على وعدهم الذى أعلنه وزير خارجيتهم آرثر بالفور سنة (١٩١٧) وبدأت الصحف الوطنية فى مصر فى إثارة القضية . ولم ينتظر كبير الماسونيين حتى ينجلى الأمر ، فظهر بمظهر الملكى أكثر من الملك ، وإذا كانت طبيعة مواقف إدريس راغب السابقة من الإنجليز كفيلة بإصدار نداء كهذا ، فقد كان من الطبيعى أن يثير النداء أزمة خطيرة داخل صفوف الماسونيين ، ومعركة فى الصحف المصرية والفلسطينية على السواء .

وماهى إلا أيام حتى ظهرت ردود الفعل من جانب الماسونيين أنفسهم ، فقد أعلن محفل ممفيس التابع للمحفل الأكبر الإيطالى أنه يدعو جميع الماسونيين باسم

الماسونية العامة إلى جلسة يوم (٩ إبريل ١٩٢٢) لمناقشة النداء السابق وعلاقته بالواجب الماسونى ، ويرحب « بآراء الباحثين فى الموضوع بحرية تامة ، بلا التفات إلى تابعية المتكلم لأى شرق من الشروق ، مع مراعاة المصلحة الماسونية العامة » ، وجاء ذلك فى صورة دعوة وزعها المحفل بتوقيع أستاذه « ميخائيل بشارة داود »[١١٨] .

قبل يوم واحد من انعقاد هذه الجلسة ، كان إدريس راغب والموقعون معه على النداء السابق قد تراجعوا عن موقفهم ، فأصدروا بيانا إلى أهل فلسطين استهلوه بالإشارة إلى ماأحدثه نداء المحفل الأكبر الوطنى المصرى من « سوء تفاهم ، يوجب الأسف » وأنكروا أنهم أرادوا بندائهم « مصادمة عواطف الفلسطينيين » ، وإنما أرادوا عدم حدوث شغب أثناء الاحتفال بمولد النبى موسى الكليم ، أما وقد مر الاحتفال بسلام فيبقى للفلسطينيين الحرية التامة فى قبول إدماج الصهيونيين الوافدين من الخارج أو رفضهم . (راجع نص البيان فى الملاحق)[١١٩] .

ومع أن هذا البيان الاعتذارى لم ينشر فى مصر إلا فى الخامس من شهر مايو ، أى بعد نحو ثلاثة أسابيع على نشر النداء الأول ، فقد كان حذرا فى تناوله لموضوع الصهيونية ومحايدا فى موقفه منها : إذ يقول : « أما الصهيونيون الذين يفدون من الخارج ويستوطنون فلسطين ، فللفلسطينيين أنفسهم الحرية التامة فى أن يحكموا إذا كانوا يقبلون إدماجهم فى العنصر الفلسطينى من عدمه » ، ولكن يبدو أن قصة الضغط الصهيونى على المحفل كانت قد تسربت إلى الكثيرين ، إذ يقول البيان فى ختامه : إن المحفل يبرأ أن يكون ألعوبة فى أيدى غرض أو شخص ، « لأنه لم يقدم على نشر النداء إلا حبا فى أن يرى السلام سائدا بين جميع العناصر ، التى تتألف منها الأمة الفلسطينية الكريمة » .

لقد جاء « النداء » مطولاً ، متحمسا ، متعاطفا مع اليهود والصهاينة على السواء ، برغم عزفه على نغمة الوطن المشترك ، ولكن « البيان » جاء اعتذاريا

حذرا بما لايتناسب مع الموضوع أو الغرض ، ومع ذلك جاء الاثنان تعبيرا عن التورط الذى واجهته الماسونية فى تلك المرحلة ، ولولا دعم الانجليز لها ، وانشغال الحركة الوطنية عنها بقضية الاستقلال ، لواجهت هجوما من الخارج ، أى من خارج صفوفها ، ومع ذلك أيضا ، جاء هذا الهجوم من الداخل ، أى من داخل صفوفها ، حين اشتد الصراع بين أهلها ، على أثر أزمة التورط الخطيرة ، ونجم عن هذا الصراع انقسام فى صفوفها .

ج – الانقســام :

من الواضح – مما نشرته الصحف فى تلك الفترة – أن هذا التورط التطوعى المأجور من جانب المحفل الأكبر ورئاسته ، قد أحدث لغطا كبيرا داخل المحافل وصفوف أعضائها ، ومن سوء حظ المحفل الأكبر أن تورطها جاء فى وقت اشتد فيه ساعد الغليان الوطنى ضد الانجليز ، فى أعقاب نفى سعد زغلول ورفاقه ، واستعد فيه إدريس راغب للدخول فى انتخابات المحفل السنوية ، التى اعتاد الفوز فيها منذ تنصيبه أستاذا أعظم سنة (١٨٩١) ، ويبدو أن عناصر ماسونية كثيرة قد بدأت فى التحرك فى الخفاء ، وأن عملية تمرد واسعة قد جرت خلال الأشهر القليلة التالية ، وداخل هذا الإطار بدأ اسم الأمير محمد على ، ولى العهد ، فى اللمعان كبديل لراغب .

وفى (٢٨ سبتمبر ١٩٢٢) عقد المحفل الأكبر فى مقره بشارع نوبار بالقاهرة جلسة لإجراء الانتخابات ، ولكن الجلسة امتلأت بالأجانب ، أى غير المنتمين للماسونية ، وحدث هرج ومرج ، خرج على أثره إدريس راغب غاضبا ومؤجلا للانتخابات ، ولكن المتمردين استمروا فى التداول بعد انصرافه ، ثم أجروا انتخابات ، فاز فيها الأمير محمد على بمنصب الأستاذ الأعظم .

لم يقف إدريس راغب مكتوف اليدين إزاء ماحدث ، فقد أسرع فى الثالث

من اكتوبر بعقد جلسة أخرى فى مقر المحفل ، وأعلن فيها عدم اعترافه بمشروعية الانتخابات ، التى جرت فى غيابه ، وتحدث عما حدث فى الجلسة السابقة من فوضى مدبرة ، شارك فيها بعض الأجانب ، مما اضطره إلى تأجيل عملية الانتخاب ، ثم قام بإجراء الانتخاب ، وكانت نتيجته فوزه بمنصب الأستاذ الأعظم ، وفوز بعض أنصاره من اليهود بمناصب رئيسية ، مثل سلمون جولد شتين ، الذى اختير « أمين خزينة أعظم » أى أمين صندوق ، وألبرت بزيات « مرشد أول أعظم » وأجرى جردا لصندوق الخيرات بالمحفل ، ظهر منه أن الصندوق لايحتوى إلا على جنيه واحد وثمانمائة وستين مليما[١٢٠] . وطالب راغب بوقف كثيرين من الإخوان ، ومحاكمتهم على مااقترفوه فى حق المحفل ورئاسته ، وكان هؤلاء هم أبطال حركة التمرد ، التى نصبت ولى العهد ، وأضاف راغب أن الاجتماع السابق غير مشروع ، وأن محمد على نفسه لاحق له فى الترشيح أو الفوز ، لأنه لم يكن عضوا عاملا بالمحفل ، ولم يسبق انتخابه رئيسا لأى محفل ، ولافى منصب عال بالمحفل الأكبر ذاته .

ولم يكتف راغب بهذه الاجراءات ، بل أصدر أوامره بوقف بعض أعضاء المحفل الأكبر ، وكذلك بعض المحافل التابعة له ، وأنذر محمد على ببرقية فى (٩) أكتوبر ، وخطاب فى اليوم التالى ، ثم أصدر أمرا بوقفه عن الأعمال الماسونية ، تمهيدا لمحاكمته ، كما أوقف عددا من الأعضاء اليهود المتشيعين للأمير ، وهم : صامويل ليفى ، شنطوب ليفى ، إيلى حتويل ، ماركو كوهين ، موريس دانا ، إيزاك كروب ، شالومه لزرع . وأعلن أن هؤلاء سيقدمون للمحاكمة ، ثم أصدر منشورا لعموم المحافل الماسونية حول الموضوع ، وأخطر المحافل الأجنبية بما حدث .

أرجع راغب السبب فى هذا التمرد ، إلى أنه أوقف بعض الإخوان لارتكابهم مخالفات ماسونية ، وأعلن عن تقديمهم للمحاكمة خلال أشهر الصيف ، ولكنهم

تآمروا عليه ، وأوعزوا إلى الأمير محمد على بالتقدم والترشيح ، لمنصب الأستاذ الأعظم ، ثم تجمهروا داخل مقر المحفل جالبين معهم عددا من « الأجانب » ، وأرغموه (راغب) على سحب أوامر وقفهم ، ولكن راغب لم يذكر قصة النداء كسبب للتمرد . ومن الواضح أن قادة التمرد كانوا هم أنفسهم الأعضاء اليهود الذين ذكرنا أسماءهم ، ويبدو أن الخلاف بينهم وبينه كان بسبب « البيان » الذى حاول فيه تخفيف وقع ندائه السابق .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، فقد تطورت الأمور بعد ذلك بطريقة درامية ، إذ رفع راغب دعوى مستعجلة ضد المتمردين ، وصدر حكم فيها فى (٢٨) أكتوبر ، يقضى بتعيينه حارسا قضائيا على المحفل ، لحين الفصل فى النزاع ، ولكن محمد على وأنصاره ، عدوا الحكم باطلا فى شكله وموضوعه ، وقام عدد منهم بالاستيلاء على أوراق المحفل ، ومن بينها نصوص المعاهدات التى عقدها راغب مع الشروق الأجنبية ، وفى الوقت ذاته تحالف الموقعون على نداء المحفل وبيانه السابقين ضد راغب ، وانضموا إلى محمد على . وبدأت سلسلة من التحرش بين الفريقين ، وأصبح المحفل الأكبر ذا هيئتين ، واحدة برئاسة محمد على ، والأخرى برئاسة إدريس راغب ، وتجمع أنصار الأول فأصدروا مجلة « الميثاق » فى (١٥ مايو ١٩٢٤) بعد أن توقفت « المجلة الماسونية » التى أصدرها راغب .

لقد حدث الانقسام على أية حال ، وبدأ أنصار محمد على يتحدثون عن خصومهم مستخدمين تعبير « فريق الخوارج » ، كما سماهم عبد المجيد يونس كاتب السر الأعظم (الأمين العام) للمحفل ، الذى شغل منصبه فى العهدين[١٢١] ، وبدأ أنصار إدريس فى الكيد لخصومهم ، ومن ذلك أنهم أبلغوا السلطات أن المحفل الذى يرأسه محمد على ، يعقد اجتماعات سياسية ، وأنه أقام حفلا فى (١٠ ديسمبر ١٩٢٣) ألقيت فيه كلمات وخطب معادية للملك ، وحققت النيابة العامة فى البلاغ ، واكتشفت – كما يقول يونس – أن المحفل

الأكبر الوطنى المصرى « بعيد عن الاشتغال بالأمور السياسية ، وأن القصائد والخطب التى ألقيت فى تلك الحفلة ، تضمنت الدعاء وشعائر الإخلاص والولاء للمقام الأعلى ، ولولى العهد الكريم كما ذكر ذلك بجريدة (المقطم) مفصلا »[١٢٢] . وعلى مدى عام بعد ذلك ظل التراشق والكيد بين الفريقين قائمين ، وحاول أنصار محمد على وضع حد لهذا ، فأصدروا المنشورات والبيانات طالبين إلى الكتاب من أبناء العشيرة عدم الخوض فى الخلافات القائمة بين الفريقين[١٢٣] . ومع ذلك انتهت الأزمة باستقرار رئاسة المحفل للأمير محمد على ، وخروج إدريس راغب ملوما محسورا .

يقول حنا أبوراشد – أحد الشوام ، الذين عاصروا تلك المرحلة ، ونشطوا خلالها – مصورا ماحدث :

« فى عام (١٩٢٢) ، أسر الوشاة فى أذن الملك فؤاد أن البرنس محمد على ولى العهد سيتولى الأستاذية العظمى للمحفل الأكبر الوطنى المصرى ، ويسنده الأخ عبد المجيد يونس السكرتير الأعظم ، حتى إذا تمكن استولى على عرش مصر بحراب الإنجليز ، فطلب الملك إلى إدريس راغب أن يرشح نفسه ، يناصره محمد رفعت بك ، ولم يحن تاريخ الانتخاب حتى حشد الفريقان مئات من الموظفين والأعيان فى صفوف الناخبين ، وهم لايفقهون من الماسونية إلا اسمها ، وهذا الجهل دفعهم إلى حرم الهيكل وخزائن السكرتارية ، ونثروا أوراقها بعد إحراقها ... وبين صفوف الثائرين صعد محمد على على عرش الأستاذية »

ويستطرد أبو راشد قائلا :

« وبعد انشقاق المحفل الأكبر المصرى على نفسه بصورة مستهجنة ، خرجت جماعة من زعماء الماسونية ، ومنهم الإخوان حسن نشأت باشا ، والسيد على باشا ، ومحمد رفاعة بك ، ومحمد رفعت بك ، وأحيوا (الشرق الأعظم المصرى) برئاسة الأستاذ الأعظم إدريس بك راغب ، واتخذوا له مكانا فى عمارة

مانوزاردى ، وضموا إليه جملة محافل ، ثم نودى بالأخ محمد رفاعة بك أستاذا أعظم ، ومحمد رفعت السكرتير الأعظم ، وذلك بعد وفاة إدريس بك راغب ، الذى ضحى بماله وفكره فى سبيل المحفل والشرق الأكبر » .

ويستطرد مرة أخرى :

« ولم ينحصر هذا الانشقاق بداخلية المحفل الأكبر ، بل تعداه إلى أنحاء الشرق الأوسط ، حيث إن جميع المحافل كانت تشتغل تحت رعاية المحفل الأكبر الوطنى المصرى ، فمنها من تبع الشرق الأكبر الذى يرأسه إدريس راغب ، ومنها من تبع المحفل الأكبر الذى يرأسه البرنس محمد على »[٢٤ظ] .

ولما تفاقم الانشقاق تألفت لجنة عام (١٩٣٤) – كما يقول أبو راشد – بهدف إصلاح المحافل ورأب الصدع فيها ، وتكونت اللجنة من خمسة ماسونيين هم : أبوراشد (رئيس محفل أمير الصعيد) ومحمد فاضل (باشا) وفريد قسيس (رئيس محفل عمانوئيل) ومصطفى حلمى عزب ، وعبد السلام فهمى (بك) . وقد نجحت هذه اللجنة فى مهمتها كما يقول صاحب الرواية . ولما شغر منصب الأستاذية العظمى بوفاة محمد رفاعة عرض المنصب على أحمد ماهر (باشا) فقبله ، وانتخب أستاذا أعظم[١٢٥] ، وظل يشغل هذا المنصب حتى مصرعه عام ١٩٤٥ .

غير أن هذه المرحلة كلها انتهت مع بداية قيام دولة إسرائيل عام (١٩٤٨) . وكانت الماسونية – كما رأينا – قد فقدت بعض احترامها ، حتى عند بعض أنصارها . وكان للتطورات السلبية أثر فى فقدان هذا الاحترام . ومع ذلك استطاع محمد على وخلفاؤه أن يقوها شر التورط فى السياسة بعد أزمتها الخطيرة عام (١٩٢٢) .

مرحلة الانقراض

كانت المرحلة الأخيرة (١٩٤٨ - ١٩٦٤) من مراحل الماسونية فى مصر أقصر وأخرس من المرحلتين السابقتين ، ولكنها تميزت ببعض التغيرات الجوهرية التى أثرت فى مسار الماسونية وحركتها ، وأهم هذه التغيرات ظهور إسرائيل وهجرة أعداد كبيرة من اليهود إليها أو إلى غيرها ، وقيام الثورة فى مصر فى (٢٣ يوليو ١٩٥٢) وتغييرها الشامل لوجه الحياة فى البلاد ، وجلاء الإنجليز عن مصر في يونيو (١٩٥٤) ، وبهذه التغيرات الثلاثة فقدت الماسونية مساحة كبيرة من الأرض التى تقف عليها ، ومن خلالها انطلق الكتاب فى التأكيد على الربط بين الماسونية والصهيونية ، الذى ظهرت بوادره فى المرحلة السابقة ، ومرت الماسونية بثلاثة تطورات أساسية :

أ - ازدياد الدعاية المضادة .

ب - الانكماش التدريجى للمحافل .

ج - إهمال الدولة .

وفيما يلى نناقش كل تطور من هذه التطورات الثلاثة على حدة :

أ - ازدياد الدعاية المضادة :

لم تشهد المرحلتان السابقتان - مرحلة التأسيس ومرحلة الاستقرار - دعاية مضادة مثلما شهدت فى هذه المرحلة ، وقد انصبت هذه الدعاية المضادة على صلة الماسونية بالصهيونية ، ومهما دافع أصحاب الماسونية فى أوربا عن حيادها فى هذا المجال فقد قدم أصحابها فى مصر - فى سنة (١٩٢٢) - وقوداً مهما لاشتعال هذه الصلة ، وهى صلة أقل مايقال عنها - فى ضوء مامر بنا - أنها جاءت نتيجة تشكيل اليهود مركز قوة فى المحافل ، وتسلل الصهاينة منهم داخل صفوف الماسونية لاستغلالها على النحو الذى حدث ، ومهما كانت براءة إدريس راغب ،

وحسن نيته فى تأثره بالضغط الصهيونى ، فليس من الممكن إعفاؤه من مسئولية مساعدة الصهيونية والانقياد لرغباتها ، ولو كان الأمر أمر تهدئة الخواطر فى فلسطين وقتها ، حتى يمر الاحتفال بمولد النبى موسى بسلام ، فما كان هذا الأمر بحاجة إلى تلك الديباجة الطويلة ، أو الزج بفكرة الوطن المشترك التى كان الصهاينة فى مصر يروجونها فى صحفهم ، فى سبيل كسب عطف المصريين على قضية اضطهاد اليهود .

لقد ظهر فى المرحلة السابقة نحو (٢٦) كتابا مؤلفا أو مترجما عن الماسونية ، لم يكن بينها سوى كتاب واحد ضدها ، وهو كتاب « تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة » لمحمد عبد الله عنان ، ومع ذلك فهذا الكتاب ذاته لم يقتصر على الماسونية ، وإنما تناولها ضمن الجمعيات السرية الأخرى ، ولم يظهر عنها فى المرحلة الأخيرة سوى كتابين دعما العداء لها ، وهما : الصهيونية والماسونية لعبد الرحمن سامى عصمت ، الجمعية الماسونية ؛ حقائقها وخفاياها لأحمد غلوش . ولكن الكتابين لم يكتبا بطريقة علمية مقنعة ، وإنما غلب عليهما الإنشاء والتعميم والتحيز .

وإذا كانت الصحف الماسونية المتخصصة ، قد توقفت قبل بداية هذه المرحلة ، فقد بدأت الصحف ذات الاهتمام العام فى نشر الدعاية المضادة للماسونية خلال هذه المرحلة الأخيرة ، كما بدأت الصحف التى تمادت فى تأييدها للماسونية فى التراجع عن موقفها مثل « المقتطف » ، أو التخفيف من التمادى مثل « المقطم » .

لقد كانت « المقتطف » – كما رأينا – أقرب إلى المنبر النظرى للدعوة الماسونية ، ولكنها ظهرت فجأة بموقف مضاد تماما فى مارس (١٩٥٠) . ففى عدد ذلك الشهر نشرت مقالا دون توقيع بعنوان « فضائل الماسونية : لاحرية ولاإخاء ولامساواة » وفى هذا المقال تتلخص الدعاية المضادة خلال المرحلة على

نحو أقل غوغائية مما نشر بعد ذلك ، ويبدو من أسلوبه أن كاتبه نقولا الحداد الذى تولى تحرير المجلة ، خلال سنتى (١٩٤٩ – ١٩٥٠) . وكان قد نشر بمجلة « الرسالة » عقب اشتعال الحرب فى فلسطين سنة (١٩٤٨) سلسلة طويلة من المقالات ركز فيها على فضح تاريخ اليهود والصهيونية .

واستهل الحداد مقاله بقوله :

« الماسونية كما فهمناها هى جمعية يقال : إنها سرية ، ونحن نعلم أن لا سر عظيم الشأن فيها ، أو مفيدا للبشرية والحضارة سوى علامات الدرجات ، ومؤامرات سرية مختلفة الأغراض ، وفيما سوى ذلك ، فهى فى دعوى أصحابها جمعية إنسانية تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، هاتان الوصيتان من مزايا القرآن والإنجيل ، ومن مبادىء النصارى والمسلمين ، فإذا لم يكن للماسونية تعليم آخر أفضل من هذين التعليمين فلا لزوم لها ، وإذا كان الإنجيل والقرآن لم يرقيا الروح الإنسانية فى البشر ، فتعاليم الماسونية لاتستطيع أن ترقى البشر فى الفضيلة والإنسانية » .

ومضى بعد ذلك فتحدث عن المسيحية والإسلام اللذين لالزوم لقول بعدهما . وقال : إن العالم لاتنقصه ديانة ولاجمعية تعليمية ، وإنما تنقصه قوة سماوية تغير قلوب البشر ، لكى يحب بعضهم بعضا ، وإذا كانت الماسونية تعلن السرية فالتعليم الصالح لاينفع إلا معلنا ، وأضاف أن « الماسونية بدعة يهودية لأغراض خاصة باليهود ، هى واسطة لاغاية ، ابتدعت بدهاء فائق وصبغت بصبغة السرية ، لكى تستهوى الناس ، لأن الناس بطبيعة نفوسهم يبتغون أن يعرفوا الأسرار » أما مناداتها بالأخوة والمساواة والحرية فهى خرافة ، لأننا لم نر منها منذ ظهورها عملا إنسانيا عظيما ، وإنما « رأينا جميع الثورات والحروب الأخيرة فى القرن الماضى والقرن الحاضر ، قامت بدسائس ماسونية غرضها إنشاء دولة صهيونية تنمو إلى أن تسيطر على جميع العالم » .

واختتم الحداد مقاله ، بأن الماسونية استهوت الناس بخدعة الشعارات . ولم يدر هؤلاء أن هذه الخدعة لخدمة الصهيونية ، وإلا لما ظهر الكتاب السرى الذى يضم بروتوكولات حكماء صهيون ، وفيه يصرحون بالصهيونية وباستخدام الماسونية لها ، ومع أن اليهود تبرءوا من هذا الكتاب فقد « ظهرت الحقيقة ، وهى أن الحركة الصهيونية قديمة جدا ، وغرضها تحين الفرص لإنشاء دولة إسرائيل الشاملة ، وقد أثبتوا الماسونية لهذا الغرض ونجحوا » بل إنهم اخترعوها حتى يزيدوا صلابة صهيونيتهم ، فجعلوها ثلاث فرق : الفرقة الرمزية العامة المباحة للناس دون تمييز ، والفرقة الملوكية ، التى لايدخلها إلا الخاصة ، وتصدر الأوامر للفرقة الأولى ، والفرقة الكونية الأكثر سرية التى لايدخلها إلا النفر القليل ، وربما لايعرف عنها أحد شيئا سوى أعضائها ، وهذه « تستخدم الماسونيين الآخرين لإنشاء الفوضى فى العالم على قاعدة فرق تسد ، ليستطيع اليهود بواسطتها أن يعودوا إلى صهيون »[١٢٦] .

كانت هذه آخر مادة تنشرها « المقتطف » عن الماسونية ، بل إن كاتبها - وهو من أبناء الأقلية الشامية المسيحية - مالبث أن ترك المجلة بعد قليل ، ربما بسببها ، ففيها خروج خطير على سياسة المجلة إزاء الماسونية ، وإن كانت قد وقعت فى التعميم والأحكام الجزافية ، فمن السهل أن نبرهن على أن الماسونية واسطة لغاية ، ولكن من الصعب أن نبرهن على أنها بدعة يهودية ، تقف وراء جميع الثورات والحروب ، فهذا تعميم يلغى قوانين حركة التاريخ وصراعات البشر ، فإذا بطل هذا السبب بطل معه هدف قد دار فى أذهان اليهود ، وحاولوا تسجيله فى بروتوكولات حكمائهم - إذا صح أنهم واضعو هذه البروتوكولات - فليس من الجائز أن اليهود يستخدمون الماسونية لإنشاء الفوضى فى العالم ، كى يسودوا ويعودوا إلى صهيون ، لأن الفوضى لم تعدهم إلى صهيون ، وإنما أعادتهم وسائل السياسة الحديثة ، وحسن تخطيطهم فى ظل غفلة سياستنا . ومن الممكن بالطبع أن يسيطروا على العالم إذا غفل .

ب - الانكماش التدريجى للمحافل :

انكمش عدد المحافل وعدد أعضائها تدريجيا بعد الحرب فى فلسطين ، نتيجة لما بدأ يظهر من دعاية مضادة للماسونية من جهة ، وماحدث لليهود فى مصر من هجرات متتالية من جهة أخرى ، حتى بلغ عدد المحافل الماسونية عند صدور قرار إلغائها سنة (١٩٦٤) نحو ٢٧ محفلا ، أى مايوازى نصف عدد المحافل التابعة للمحفل الأكبر المصرى وحده سنة (١٩٢٩) ، فإذا علمنا أن هذا العدد يمثل جميع الشروق الماسونية الإنجليزية ، والفرنسية ، والإيطالية ، واليونانية والمصرية ، فمعنى هذا أن عدد المحافل انكمش بدرجة كبيرة ، وإذا علمنا أيضا أن هذا العدد يضم فى معظمه محافل غير مصرية ، فمعنى هذا أن عدد المصريين المنضوين تحت لواء الماسونية قد انكمش بدرجة كبيرة أيضا ، ومع ذلك اختير فؤاد سراج الدين (باشا) سكرتير حزب الوفد ووزير الداخلية سنة (١٩٥٠) أستاذا أعظم للمحفل الأكبر الوطنى المصرى . وأصدر المؤتمر الماسونى المثالى المنعقد فى بيروت فى يونيو (١٩٥٠) قراراً بتأييد المحفل المصرى « برئاسة صاحب الشوكة معالى فؤاد سراج الدين باشا »[١٢٧] .

ج - إهمال الدولة :

كانت حرب فلسطين سنة (١٩٤٨) ، بداية النهاية فى تاريخ الماسونية فى مصر ، وفى غيرها من أقطار العالم العربى أيضا ، كما كانت نهاية مرحلة فى تاريخ العرب ، وبداية مرحلة جديدة شهدت العديد من التغيرات العنيفة ، وعلى رأسها انقلاب النظام فى مصر ، ولكن النظام الجديد الذى حل فى (٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، لم يمس الماسونية على الفور ، أو بالتدريج ، مثلما مس جميع مؤسسات النظام القديم ، فقد أهملتها الدولة ، وتساقطت أوراقها ، وانفض سامرها ، ومع ذلك لم يحدث هذا كله دفعة واحدة ، ففى يونيو (١٩٥٣) ، أى بعد نحو عام من بداية النظام الجديد نشرت مجلة « الفن » تحقيقا مصورا

ان « الفن يتسرب إلى القاعات السرية بالمحفل الماسونى : تثبيت يوسف وهبى سا لمحفل الفنان المصرى ، وتكريس محسن سرحان » وجاء فى هذا التحقيق المدعوم بالصور :

« كان ذلك فى مساء الثلاثاء الماضى ، وقد حفلت الدار الماسونية بجمهور كبير من الفنانين الماسون ، نذكر منهم يوسف وهبى ، ومحسن سرحان ، وفريد شوقى ، وأحمد كامل مرسى ، ومحمود المليجى ، وفؤاد شفيق ، وعبد السلام النابلسى ، وحلمى رفلة ، وحسين رياض ، ومحمود فريد ، وعيسى أحمد ، وعلى رشدى ، وأحمد سعيد وغيرهم كثيرون ... ومن فرجة فتحت قليلا شاهدنا محسن معصوب العينين ، وقد وقف بين يوسف وهبى ، وعيسى أحمد . وكان كل منهما يرتدى الزى الرسمى للماسون ، شاهرا بيده سيفا من الخشب ، حلق به على رأس محسن سرحان . وأغلقت الفرجة ، وانقطع كل اتصال بيننا وبين مايجرى فى الداخل »[١٢٨] .

ومن الواضح فى هذا الكلام أن الفنانين لم يجدوا مايمنعهم عن هذه المظاهرة الماسونية ، وأن يوسف وهبى ورفاقه ، قد شكلوا محفلا طائفيا ، بمعنى الاقتصار على طائفة الممثلين وفنانى المسرح والسينما ، ولاندرى طبيعة عمل هذا المحفل ، ولكن يبدو أنه كان نوعا من المظهر الاستعراضى دون جدية .

وعندما وقع العدوان الثلاثى على مصر فى اكتوبر (١٩٥٦) ، تأثر موقف اليهود داخل البلاد بالطبع ، وبدأت هجرتهم مرة أخرى فى أعقاب العدوان ، وأصدر المحفل الأكبر الوطنى المصرى قراراً بوقف «نشاط الإخوان اليهود فى الناحية الماسونية » وبرر ذلك بأنه إبعاد « للشبهات والظنون عن العشيرة ، وخدمة لليهود الإخوان أنفسهم » على حد تعبير صيغة القرار ، وعندما هدأ الموقف أصدرت بعض المحافل بيانا آخر طلبت فيه إلى اليهود « العودة إلى نشاطهم » ، ولكن يبدو أن هذا البيان لاقى معارضة شديدة داخل المحافل الماسونية ، وعده

البعض غير قانونى ، واستمسك البعض الآخر بالبيان الأول ، الذى قضى بتجميد عضوية اليهود ، ويبدو أيضا أن ذلك جاء بإيعاز من السلطات ، أو كنوع من حسن النية من جانب الأعضاء الماسونيين المصريين من غير اليهود ، وقد حذر قرار المحفل الأكبر - كما فسره هؤلاء - الإخوان الماسونيين من المخالفة ، حتى لاتقع التفرقة والانقسام بين صفوف العشيرة[١٢٩] .

هذه التطورات الثلاثة كانت سلبية فى الحقيقة من منظور الماسونية ، وقد ساهمت - فى الوقت ذاته - فى بلورة تطور آخر سلبى ، أو هو التطور الأخير إذا شئنا الدقة . ففى (٨ أبريل ١٩٦٤) أصدرت وزيرة الشئون الاجتماعية قراراً بحل الجمعيات والمحافل الماسونية ، وهذا نص القرار كما نشرته صحيفة « الأهرام » فى اليوم التالى :

« أصدرت الدكتورة حكمت أبو زيد ، وزيرة الشئون الاجتماعية ، أمس قراراً بحل الجمعيات الماسونية ، وهى : المحفل الماسونى اليونانى ، ومحفل خوفو فى القاهرة ، والمحفل الأكبر الوطنى لوادى النيل بالإسكندرية وفروعه بالإسماعيلية ، وهى محافل إسماعيل وزيتون والمساواة ، وجمعية الشرق الأكبر المصرى وفروعها فى بورسعيد ، وفروعها بمحافظات بورسعيد ، والقاهرة ، والإسماعيلية ، وهى محافل التوفيق ، وسولون ، وفينكس ، ولايركيبون ، والتحرير ، وأوزوريس ، وفتراتيوس ، ومقام سولون ، ولايرنيكون ، والقومية جاريبالدى ، وجلوت ، ومقام إيزيس ، والجمعية الخيرية الماسونية بالمنصورة » .

« وينص القرار على أن تقوم مديريات الشئون الاجتماعية بتعيين من يقوم بتصفية الجمعيات ، التى تقع فى دائرة اختصاصها ، وتوجيه أموال الجمعيات الماسونية جميعها بعد التصفية إلى اللجان الفرعية لمعونة الشتاء ، فى المحافظات التى تقع فى دائرة اختصاصها هذه الجمعيات »[١٣٠] .

يتضح من هذا القرار أن عدد المحافل الكائنة فى ذلك الوقت بلغ (٢٦) محفلا ، وأن معظمها محافل يونانية ، كما يتضح أن المحفل الأكبر الوطنى نقل مقره من القاهرة إلى الإسكندرية ، ولكن ربما تم ذلك النقل قبل (٢٣ يوليو ١٩٥٢) ، فلا توجد معلومات مؤكدة فى هذا الخصوص .

وقد تلا نشر هذا القرار إقبال الصحف على نشر تحقيقات عن الماسونية وأسرارها ، وتجارب أعضائها السابقين ، وكان مما نشرته « الأهرام » أن سبب وقف نشاط الماسونيين ، هو أن اجتماعاتهم كانت سرا مغلقا حتى على الدولة ، وأضافت الصحيفة أن مندوبى الشئون الاجتماعية عثروا فى المحفل الأكبر على سيوف وخناجر وكتب قديمة ، ولم تبين الصحيفة طبيعة هذه السيوف والخناجر ، فلم تكن من قبيل الأسلحة أو تخزينها وإلا لحوكم أصحابها ، وإنما كانت – على الأرجح – سيوفا وخناجر قديمة مما يستخدم كرموز للماسونية فى المحافل[١٣١] ونشرت مجلة « آخر ساعة » تحقيقا بعنوان « سر خطير وراء حل الجمعية الماسونية » جاء فيه :

« عندما طلبت الجمعيات الماسونية بالجمهورية العربية المتحدة تسجيل تنظيماتها بوزارة الشئون الاجتماعية ، طلب إليهم المسئولون تطبيق قانون الجمعيات عليها ، وهذا القانون يحتم خضوع كل الجمعيات داخل الجمهورية لإشراف وزارة الشئون الاجتماعية ، ويكون للمسئولين فى الوزارة حق التفتيش على أعمال الجمعية للتأكد من عدم مخالفتها للقانون ، ورفضت الجمعيات الماسونية ذلك لأنه يتعارض مع السرية التامة التى تعيش فيها ، فقررت الحكومة إلغاء الجمعيات الماسونية فى مصر ، ولم يكن هذا هو السبب الوحيد لإلغاء الجمعيات الماسونية .. إن أمن الدولة وسلامتها اقتضيا إلغاء هذه الجمعيات أيضا ، فقد قررت الصهيونية استغلال المحافل الماسونية فى جميع أنحاء العالم لمزاولة نشاطها لضمان سرية مايجرى داخل هذه المحافل »[١٣٢] .

ومعنى هذا أن المحافل الماسونية هى التى طلبت التسجيل فى وزارة الشئون الاجتماعية ، المختصة بنشاط الجمعيات والأندية ، بجميع أنواعها ، فلما واجهتها الوزارة بضرورة تطبيق القانون ، رفضت بحجة السرية ، ولكن من الواضح أن قرار إلغاء المحافل كان ذا سبب سياسى ، وهو مافسره محرر « آخر ساعة » باستغلال الصهيونية للمحافل الماسونية ، ومع ذلك فلم يكن هذا الاستغلال ابن ساعته ، ولاندرى إن كان قد صدر به قرار صهيونى أم لا ، ولكننا ندرى من تجربة (١٩٢٢) ، التى أشرنا إليها من قبل ، أن استغلال الصهيونية للماسونية مسألة قديمة لم تكن معروفة لأصحاب القرار السابق .

غير أن هذا القرار ، وماتلاه من إعلام متحمس متزايد ضد الماسونية ، كان له صدى واسع فى البلاد العربية التى كانت محافلها تحت رعاية المحفل الأكبر المصرى ، مثل سوريا ولبنان وفلسطين والعراق ، فقد قررت سوريا إغلاق المحافل الماسونية فى أغسطس (١٩٦٥) ، وفى ذلك الشهر قرر لبنان إلغاء عقد المؤتمر الماسونى العالمى ، الذى كان مقررا عقده فى بيروت ، خوفا من تسلل العناصر الصهيونية ، وأصدر الماسونيون فى الأردن بيانا اعترفوا فيه « باستغلال الصهيونية للماسونية العالمية استغلالا مجرما فى أبشع صورة عرفتها الإنسانية » وقرروا إنشاء منظمة ماسونية باسم « الحركة الماسونية العربية » للبعد عن الاستغلال الصهيونى . كما قرروا الإبقاء على الصلة مع المحافل العالمية الصديقة من أجل إنصاف عرب فلسطين ونصرة قضية اللاجئين ، ومع ذلك أصدر مفتى الأردن العام فتوى بتحريم الدخول فى الماسونية بدعوى أنها بدعة يهودية ، تقدم الأخوة الماسونية على الأخوة الدينية والقومية ، وأن الله ينهى عن موالاة الأعداء[١٣٣] ، وكان العراق قد سبق الجميع بإغلاق المحافل الماسونية (١٠ محافل) على أثر ثورة (١٤ يوليو ١٩٥٨)[١٣٤] .

غير أن ماحدث فى مصر يدعو إلى التساؤل :

لماذا تأخر قرار الحكومة المصرية بإغلاق المحافل الماسونية إلى سنة (١٩٦٤) ؟ هل كان التأخير من قبيل النسيان للمحافل التى ران عليها الصمت ولم يعد لها صوت منذ (٢٣ يوليو ١٩٥٢) ؟

هل كانت الحكومة المصرية تريد إحراج المحافل أو تركها كى تموت من تلقاء ذاتها ثم تصدر قرارا بإغلاقها وتحريمها ؟

ماذا كان مصير سجلات هذه المحافل ؟ هل أعدمها أصحابها أم استولت عليها الحكومة ؟ وإذا كان الأمر الأخير هو الصحيح فأين هى الآن ؟

هذه الأسئلة لم يجب عنها أحد للأسف بعد، وربما تكشف الأيام جوابها[١٣٥] .

ولكن هناك أسئلة أخرى نستطيع أن نجيب عنها من واقع مامر بنا .

هل قدمت الماسونية لمصر عملا خيريا مفيدا ؟ هل تركت أثرا يدل على ماينادى به أصحابها من مبادىء البر والإحسان ؟ هل شاركت الحركة الوطنية فى مقاومة الاحتلال ؟

كل هذه الأسئلة جوابها واحد هو النفى .

لقد نقل الكاتب الإنجليزى ستيفن نايت سطرا بالغ الأهمية عن « الكتاب الدولى لحرفة الماسونية » ويقول هذا السطر :

« إن الماسونية تعلم الإنسان بوضوح أن أول واجب له يكون نحو نفسه »[١٣٦]

وإذا فسرنا هذه العبارة تفسيرا عمليا يصبح معناها : أنا وبعدى الآخرون ، أى أن مصلحة العضو تأتى قبل مصلحة الأعضاء ، وبذلك تصبح الماسونية تنظيما أساسه المصلحة الشخصية ، ولهذا فإن الماسونيين الإنجليز الكثيرين ، الذين اعترفوا لنايت بأنهم استفادوا فى التجارة من « إخوانهم » ، أو سهلت مصالحهم

مع القوامين على المجتمع بسبب ماسونيتهم ، لم يكذبوا أو يبالغوا ، فذلك هو الأساس عند عامة الماسونيين : حك ظهرى أحك ظهرك ، كما يقول المثل الإنجليزى . ولكن هذه المصالح الفردية فى أساسها لابد أن تتعقد حين تسيطر على المحافل مراكز قوى معينة ، وعندئذ يوجه كل مركز منها المصلحة بالطريقة التى يريدها ، وهذا ماحدث فى الغالب فى صفوف ماسونية بلد مثل مصر ، حيث كانت المحافل مراكز لإدارة المصالح الفردية أو الجماعية ، حسب ثقل مراكز القوى بها ، وكانت أيضا مراكز للمعلومات والتنسيق بين المصالح ، مهما كانت شعاراتها أو مبادئها الخيرية المعلنة على الناس .

لقد بدأت الماسونية فى مصر – كما رأينا – بهدف رعاية مصالح الأقليات التى أسستها ، ولما ازدادت فيها نسبة الأهالى ، أو العنصر الوطنى ، بدأ التطلع – تحت مظلة السرية – إلى تحقيق أهداف ذات طابع وطنى ، كما حدث مع الأمير حليم ، الذى حاول استغلال الماسونية فى الوصول إلى الحكم ، وكما حدث أيضا مع الأفغانى ، الذى حاول استغلالها فى التخلص من إسماعيل وتثبيت ولاية ابنه توفيق ، وكان ذلك فى الحالتين أشبه بحركة « اللوبى » أو قوى الضغط ومراكز القوى فى السياسة ، ثم انتهت تلك المرحلة التى حاولت فيها الماسونية أن تؤسس نفسها فى مصر بالاحتلال الإنجليزى .

وبدأت مرحلة الاحتلال – كما رأينا أيضا – دون أن تتأسس الماسونية ، فكان من الطبيعى أن تنضوى تحت لواء الإنجليز لسببين : أولهما أن معظم أعضاء المحافل أجانب ، والآخر أن الإنجليز هم أول من أسس الماسونية فى العالم ، وهكذا تميزت تلك المرحلة باستقرار الماسونية وتوسعها وازدهارها من جهة ، وابتعاد الحركة الوطنية عنها تماما من جهة أخرى ، على عكس ماحدث فى المرحلة السابقة حين حاولت الحركة الوطنية الاستفادة منها[١٣٧] ، ونتيجة لهذه الظروف نجح اليهود – بازدهارهم وتحالفهم مع الإنجليز – فى الاستفادة منها فى تحقيق أحلامهم الصهيونية حتى نهاية المرحلة سنة (١٩٤٨) .

وفى مرحلة النهاية الأخيرة صمتت الماسونية وتعرضت للانقراض حتى ألغيت رسميا سنة (١٩٦٤) .

فى كل هذه المراحل الثلاث لم تترك الماسونية أثرا طيبا على المستوى العام ، اجتماعيا أو سياسيا ، وبذلك لم تعمل بمبادئها ، ولاكفت يديها عن العبث السياسى ، ولم يبق منها فى النهاية سوى سوء الذكر ، وآلاف الصفحات ، وأبيات الشعر ، التى دبجها المخدوعون بها أو الذين فى قلوبهم غرض ، أما على المستوى الفردى ، فربما أحسنت إلى كثيرين وسهلت مصالح الكثيرين أيضا . ولكن هذا لايبقى فى التاريخ كما يبقى الإحسان العام والمصالح العامة للأمم أو المجتمعات ، لا للأفراد .

هوامش

١ - راجع البيليوجرافيا الواردة .

٢ - Stephen Knight : The Brotherhood, the secret world of the Freemasons, london, Granada, 1983, P230

٣ - The New Enc . Britanica : Micropedia, 1981, V .4 ,P302

٤ - Ibid.,V.9,P1155

٥ - Ibid,V.14, P648

٦ - Ibid.,V.16, P56

٧ - Enc. Americana, 1983, V.18, P432

٨ - يضيف المحرر بعض المعلومات التفصيلية عن دور اليهود فى تأسيس المحافل الأمريكية ، ومنهم موردخاى كامبانال الذى أسس أول محفل بمدينة سافانا سنة (١٧٣٤) وأن موسى سايكساس اشترك فى تأسيس المحفل الأكبر فى رود أيلاند ، ونال درجة البناء الأكبر سنة (١٨٠٢) ، وكان معاصره سولومون بوش نائب مفتش عام للماسونية فى بنسلفانيا ، وفى سنة (١٧٨١) كان اليهود ذوى نفوذ فى محفل الكمال الأعلى فى فيلادلفيا ، وقد لعب هذا المحفل دورا مهما فى أوائل تاريخ الماسونية فى أمريكا . أنظر :

٩ - Enc. Judaica, Jervsalem, 1971, V. 7, C.124

Ibid., cc. 122 - 124

١٠ - Great Soviet Enc.,V.15, PP 532 - 533

١١ - American, OP. Cit , Loc . Cit

١٢ - Britanican V.9. P917

١٣ - J.M. Landau : Prolegamena to a study of secrer Societies in Modern Egypt. Middle Eastern STudies, Vo1. 1, no. 2, 0 London 1965, P 139

١٤ – جرجى زيدان : تاريخ الماسونية العام ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٤٨ – ١٥٠ .

١٥ – المصدر نفسه ، ص ١٥٠

١٦ – المصدر نفسه ، ص ١٥١

١٧ – المصدر نفسه ، ص ١٥٥

١٨ – حنا أبو راشد : دائرة المعارف الماسونية ، مكتبة الفكر العربى بيروت ، ١٩٦١ ، ص ١٩٥

١٩ – جرجى زيدان : ص ١٥٧ – ١٦٠

٢٠ – المصدر نفسه ، ص ١٦٤

٢١ – المصدر نفسه ، ص ١٦٥ – ١٦٨

٢٢ – المصدر نفسه ، ص ٨ – ١٠

٢٣ – جرجى زيدان : تاريخ مصر الحديث ، ج٢ القاهرة ط٢ مطبعة الهلال ، (١٩١١) ص ٢٢٣ .

٢٤ – راجع على سبيل المثال : المجلة الماسونية ، القاهرة ، أعداد أغسطس ، وأكتوبر (١٩٢١) ويناير (١٩٢٢) ، ص-على التوالى ـ (٢٥٢ – ٥٤ ، ٣٠٢ – ٣٠٣ ، ٨١ – ٨٢) وكذلك راجع : المقتطف ، يناير (١٩٢٥ ، ص ١٠٠) .

٢٥ – Landau, Op. Cir., P 139

٢٦ – Ibid., Loc. Cir.

٢٧ – Ibid., PP 139 - 140

٢٨ – جرجى زيدان : تاريخ الماسونية العام ، مصدر سابق ، ص ١٦٨

٢٩ – المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

٣٠ – Homa Pakdaman : Djamal El - Din Assad Abadi, dir Afghani, Paris, Maisoneuve - Larose, 1972 ,P 58

٣١ – شاهين مكاريوس : تاريخ الماسونية القديمة وأثارها ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٩٠٣ ، ص ١٥٧ – ١٦٠) .

٣٢ – ذكر جرجى زيدان فى كتابه السابق أن أحد أعضاء المحفل الذى أسسه بونابرت كان يدعى صموئيل حنس ، وهو رجل من الأهالى سافر إلى فرنسا سنة (١٨١٤) حيث أنشأ محفلا هناك . راجع : تاريخ الماسونية العام ، ص (١٥١)

٣٣ – Landau, Op. Cir., PP 140 - 141

٣٤ – Ibid., p175

٣٥ – راجع دور حليم فى الماسونية فى
Ibid., pp 148 - 151

٣٦ – Elie Kedouri : Afghani and Abdo, London, Cass, 1966, P 21

٣٧ – أصغر مهدوى وإيرج أفشار : مجموعة أسناد ومدارك جابه نشده درباره سيد جمال الدين مشهور به أفغانى ، جامعة طهران ، (١٩٦٣ ، لوحة ١٦) .

٣٨ – Pakdawan, Op. Cit., Loc. cit.

٣٩ – Ibid, Loc. cit .

٤٠ – Ibid., p 59

٤١ – مهدوى وأفشار ، مصدر سابق ، تصوير ٣١

٤٢ – W . S . Blunt : Secret History of the English Occupation of Egypt, london, 1907, P 489

٤٣ – Ibid., loc. cit.

٤٤ – لطيفة سالم (الدكتورة) : القوى الاجتماعية فى الثورة العرابية ، القاهرة ، هيئة الكتاب ، (١٩٨١ ، ص ٧٦ – ٧٧) .

٤٥ – مصر : (٢٧ يونيو ١٨٧٩ ص ١) .

٤٦ – التجارة : (١٠ يوليو ١٨٧٩ ، ص ١) .

٤٧ – التجارة : (١٥ يوليو ١٨٧٩ ، ص ١) وقد أعلن على لسان المحفل (كوكب الشرق التابع للشرق الأعظم الإنجليزى) أنه « لم يكلف البتة السيد جمال الدين برسالة ما . وكيف يكون ذلك وهذا السيد معروف هنا بكراهته وبغضه للنفوذ الأوربى ، مخطأ عند أذكياء مصر فى تصوراته التى توجب الضرر ولاتجلب النفع »

٤٨ – التجارة : (٥ أغسطس ١٨٧٩ ، ص ٢)

٤٩ – التجارة : (٢٢ أغسطس ، ١٨٧٩ ، ص ٢)

٥٠ – مهدوى وأفشار ، مصدر سابق ، تصوير (٣٦) . راجع الرسالة كلها محققة كما نشرناها فى مجلة الدوحة ، قطر ، (يوليو ١٩٨٤ ، ص ٧١ – ٧٧) .

٥١ – محمد المخزومى : خاطرات السيد جمال الدين الأفغانى ، بيروت ، (١٩٣١) ، ص ٨ – ٩

٥٢ – Blunt, op. Cit., p 491

٥٣ – نشرة الأعمال للمحفل الأكبر الوطنى المصرى ، القاهرة ، مطبعة عطايا ، (١٩٢٨) ص و .

٥٤ – شاهين مكاريوس : الآداب الماسونية ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٨٩٥ ص ١٩٧ – ٢٠١) ، نقلا عن : نجدة فتحى صفوة . ويلاحظ أن صاحب الأبيات هو الشاعر حفنى ناصف .

٥٥ – أحمد شفيق : مذكراتى فى نصف قرن ، ج ١ ، القاهرة ، مطبعة مصر ، (١٩٣٤) ص ٥٢١) .

٥٦ – سامى عزيز (الدكتور) : الصحافة المصرية فى عهد الاحتلال ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ، (١٩٦٨ ، ص ٣١٧) .

٥٧ – كان شاهين مكاريوس من أبرز أنصار إدريس راغب . وقد وضع على صدر كتابه « تاريخ الماسونية القديمة وآثارها » إهداء لراغب جاء فيه : « إلى سعادة الفاضل الأستاذ الأعظم إدريس راغب بك أستاذ أعظم المحفل الأكبر الوطنى المصرى ، ورئيس أول أعظم المقام الأكبر المصرى لدرجة العقد الملوكى ، وعضو شرف فى جمعية قديمى العهد الماسونية ، وأستاذ أعظم الأساتذة المعلمين لولايات شمال أفريقيا ، والقطب الأعظم لمشيخة الطرق العظمى للشرق الأكبر الوطنى المصرى ، ورئيس مجلس إدارة الشرق الأكبر الوطنى المصرى ، الخ » .

٥٨ – لويس عوض (الدكتور) : تاريخ الفكر المصرى الحديث من عصر إسماعيل إلى ثورة (١٩١٩) ، الخلفية التاريخية ، ج ٢ ، القاهرة ، هيئة الكتاب ، (١٩٨٣) ص ١٩٥

٥٩ – نشرة الأعمال ، مصدر سابق ، ص ١٠

٦٠ – المجلة الماسونية : (١ مايو ١٩٢١ ، ص ١)

٦١ – المجلة الماسونية : (١ فبراير ١٩٢٢ ، ص ١١٧) .

٦٢ – نشرت جريدة « النظام » اليومية المتعاطفة مع الماسونية نص هذه البرقية فى (٢٩ ابريل ١٩٢٢ ص ٣) . وجاء فيها : « المحفل الأكبر الوطنى المصرى الذى يدين بالحرية والمساواة والإخاء يتشرف بأن يلتمس من عطفكم الأبوى بصفتكم الملاذ الأوحد للأمة المصرية أن تشملوا أخانا سعد زغلول برحمتكم فتأمروا بإنقاذه من مكان أجمع الأطباء على أنه يودى بصحته ويضر بحياته .

ومولانا الملك هو خير من يحافظ على أفراد المصريين عموما ، ولاسيما الذين أدوا للوطن الخدم الكبرى ، والمحفل الأكبر على يقين من أن جلالة ملك مصر لايسمح قلبه الرحيم بأن يقضى هذا الشيخ مابقى من عمره بعيدا عن الأهل والوطن » ووقع البرقية « عبدكم الخاضع إدريس راغب الأستاذ الأعظم » .

٦٣ – نشرة الأعمال ، مصدر سابق ، ص (١٠١) .

٦٤ – المصدر نفسه ، ص (١٧) .

٦٥ – S . Moreh : Modern Arabic Poetry, Leiden, 197 ,197, CF.99

٦٦ – جرجى زيدان ، مصدر سابق ، ص (١٤٢) .

٦٧ – شاهين مكاريوس : فضائل الماسونية ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، ١٨٩٩ ، ص ١٢٠ .

٦٨ – سامى عزيز ، مصدر سابق ، ص (٣١٨) .

٦٩ – المصدر نفسه ، ص (٣٠٩) .

٧٠ – المصدر نفسه ، ص (٣١٠)

٧١ – نشر شيخو هذه السلسلة ابتداء من العدد (١٠ السنة ١٢) من « المشرق » فى اكتوبر (١٩٠٩) ، ودامت حتى سنة (١٩١١) ، ثم طبعها فى كراسات منفصلة جمعت بعد ذلك فى كتاب .

٧٢ – المجلة الماسونية : أول أغسطس (١٩٠٣) ، الاسكندرية ، ص (١٥١) .

٧٣ – المجلة الماسونية : أول يوليو (١٩٢١) القاهرة ص ٢٣١ ، ومابعدها

٧٤ – المجلة الماسونية : (أول نوفمبر ١٩٢٢ ، ص ١٧) ، ومابعدها

٧٥ – الميثاق : (٤ سبتمبر ١٩٢٤ ، ص ١٥ – ١٧) .

٧٦ – نشرة الأعمال ، مصدر سابق ، ص (٨٠ – ٨٥) .

٧٧ – المجلة الماسونية : أغسطس (١٩٠٣ ، ص ١٥١) .

٧٨ – الجريدة الماسونية : (١٤ أبريل ١٩٠٧ ، ص ١ – ٢) .

٧٩ – المجلة الماسونية : مايو (١٩٢١ ص ٣٠٨) .

٨٠ – الميثاق : (١٥ يونيو ١٩٢٤ ، ص ٧٦) .

٨١ – نشرة الأعمال ، مصدر سابق ، ص (٩٧) .

٨٢ – المصدر نفسه ، ص (٨٠ – ٨٦) .

٨٣ – نجدة فتحى صفوة : الماسونية فى الوطن العربى . مركز الدراسات العربية . لندن ، ١٩٨٠ ، ص ٣٠

٨٤ – نشرة الأعمال ، مصدر سابق ، ص (٤٧) .

٨٥ – المصدر نفسه ، ص (٨٥ – ٨٦) .

٨٦ – نجدة فتحى صفوة ، مصدر سابق ؛ ص (٣٦) .

٨٧ – جرجى زيدان ، مصدر سابق ، ص (٥٥ – ٥٧) .

٨٨ – شاهين مكاريوس : الأسرار الخفية فى الجمعية الماسونية ، مطبعة التمدن ، القاهرة ، (١٩٠٠ ، ص ١٠٣) .

٨٩ – المصدر نفسه ، ص (٩٢ – ٩٦) .

٩٠ – إدريس راغب : الدرجة الأولى ، مطبعة المقتطف ، القاهرة ، (١٨٩٦ ، ص ٩٨ – ١٠١) .

٩١ – راجع نص المقال : المقتطف ، فبراير (١٩١٠ ، ص ١٥٧ – ١٦٢) .

٩٢ – المصدر نفسه ، ص (١٥٩) .

٩٣ – المصدر نفسه ، ص (١٦١) .

٩٤ – المجلة الماسونية : اكتوبر (١٩٢١ ، ص ٣٠٩) .

٩٥ – أحمد زكى أبو شادى : الشفق الباكى ، ج١ ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، (١٩٢٦ ص ٢٠٣ – ٢٠٥) .

٩٦ – المقتطف : أبريل (١٩١٧ ، ٤٠٤) .

٩٧ – المقتطف : مايو (١٩٢٦ ، ص ٥٨٧) .
٩٨ – المجلة الماسونية : أول سبتمبر (١٩٠٣ ، ص ١٦٨) .
٩٩ – الجريدة الماسونية : (١٤ نوفمبر ١٩٠٦ ، ص ٢ – ٣) .
١٠٠ – الجريدة الماسونية : (١٦ يوليو ١٩٠٧ ، ص ١ – ٤) .
١٠١ – الأخبار الماسونية : يناير – فبراير (١٩٢١ ، ص ٨) .
١٠٢ – المصدر نفسه ، ص (١٠) .
١٠٣ – المصدر نفسه ، ص (١١) .
١٠٤ – المجلة الماسونية : (٣٠ نوفمبر ١٩٠٣ ، ص ٢٠٣ – ٢٠٤) .
١٠٥ – السياسة الأسبوعية : (٢٤ نوفمبر ١٩٢٨ ، ص ٢٦)
١٠٦ – المجلة الماسونية : أول أغسطس (١٩٠٣ ، ص ١٤٥) .
١٠٧ – المصدر نفسه ، ص (١٤٨) .
١٠٨ – حافظ إبراهيم : ديوان حافظ إبراهيم ، ج١ ، هيئة الكتاب ، القاهرة ، (١٩٨٠ ص ٢٦٥) .
١٠٩ – المنار : (٢٦ يوليو ١٩١١ ص ٥٤٥) .
١١٠ – المجلة الماسونية : أول مايو (١٩٢١ – ص ١٧٩) .
١١١ – المجلة الماسونية : أول أكتوبر (١٩٢١ ، ص ٣١٠) .
١١٢ – السياسة الأسبوعية : (٢١ يوليو ١٩٢٨ ص ٥ – ٦) .
١١٣ – السياسة الأسبوعية : (٢٨ يوليو ١٩٢٨ ، ص ٤) .
١١٤ – المجلة الماسونية : أول فبراير (١٩٢٢ ، ص ١١٧ – ١١٨) .
١١٥ – النظام : (١٩ ابريل ١٩٢٢ ، ص ٢) .
١١٦ – المصدر نفسه ، ص (٣)
١١٧ – النظام : (٢٨ أبريل ١٩٢٢ ، ٣)
١١٨ – النظام : (٥ مايو ١٩٢٢ ، ص ٣) .
١١٩ – المجلة الماسونية : أول نوفمبر (١٩٢٢ ، ص ١٧) .
١٢٠ – الميثاق : (١٥ مايو ١٩٢٤ ، ص ٥) .

١٢١ – المصدر نفسه ، ص (٦)
١٢٢ – راجع بيان المحفل الأكبر حول هذا الموضوع فى المقطم : (٤ سبتمبر ١٩٢٤) ، وكذلك « الميثاق » فى (١٥ يونيو ١٩٢٤) .
١٢٣ – حنا أبو راشد : مصدر سابق ، ص (٢٠٧ – ٢٠٨) .
١٢٤ – المصدر نفسه ، ص (٢٠٩) .
١٢٥ – المقتطف : مارس ١٩٥٠ ، ص (١٨٨ – ١٩٠) .
١٢٦ – حنا أبو راشد : مصدر سابق ، ص (٣٨٩) .
١٢٧ – الفن : (١٥ يونيو ١٩٥٣ ، ص ٦ – ٧) .
١٢٨ – الأهرام : (٢١ أبريل ١٩٦٤ ، ص ٣) .
١٢٩ – الأهرام : (١٩ أبريل ١٩٦٤ ، ص ١) .
١٣٠ – الأهرام : (٢١ أبريل ١٩٦٤ ، ص ٣) .
١٣١ – آخر ساعة : (٣ يونيو ١٩٦٤ ؛ ص ٢٢) .
١٣٢ – نجدة فتحى صفوة : مصدر سابق ، ص (٣٤ – ٣٧) .
١٣٣ – المصدر نفسه ، ص (٤٣ – ٤٤) .
١٣٤ – لم أستطع الحصول على معلومات حول هذا الموضوع من وزارة الشئون الاجتماعية فقد اعتذر الجميع عن تقديم أى معلومات .
١٣٥ – S. Knight, op. cit., p 229
١٣٦ – صرح الخديو عباس حلمى فى سنة (١٩٤٤) أنه حين وصل من فيينا سنة (١٨٩٢) لتولى الحكم بعد وفاة أبيه توفيق اتجه إلى الجيش واتخذ اللباس العسكرى لاستمالة الضباط إلى الحركة الوطنية ، ولكنه اكتشف أنهم « دخلوا الماسونية » التى كان يرأسها السردار الإنجليزى ، فتحول إلى الشباب المدنى ، ولبس لباسهم . ومعنى هذا أن المحاولة الوحيدة لاستغلال الماسونية فى الحركة الوطنية خلال مرحلة الأستقرار الأولى لم تتجاوز النية الحسنة من جانب الخديو – راجع : سامى عزيز ، مصدر سابق ، ص (٣١٨) .

ببليوجرافيا عربية عن الماسونية
كتب . نشرات . صحف

أورد يعقوب لاندو قائمة طويلة بالكتب والنشرات التى صدرت عن الماسونية فى مصر بالعربية والفرنسية والإيطالية (Landan, Op. Cit., pp170 - 172) وقد وجدنا أن القائمة العربية غير كاملة ، فأضفنا إليها مااستطعنا الحصول عليه أو على عناوينه ، ثم أعدنا ترتيبها أبجديا ، وأضفنا إليها أيضا الصحف العربية الماسونية فى مصر مرتبة تاريخيا .

أولا - كتب وكتيبات :

١ - أحمد زكى أبو شادى روح الماسونية وآمال الإنسانية ، القاهرة ، (١٩٢٧)

٢ - .... البناية الحرة أو خطرات عن الماسونية ، القاهرة ، (١٩٢٧) .

٣ - .... صوت الماسونية ، القاهرة ، مطبعة عطية ، (١٩٢٩) .

٤ - أحمد غلوش الجمعية الماسونية - حقائقها وخفاياها ، القاهرة ، الدار القومية ، د . ت (الستينيات) .

٥ - إدريس راغب القانون الماسونى للمحفل الأكبر ، القاهرة ، (١٨٩٣) .

٦ – .... الدرجة الأولى – شرح لوحة الرسم ومقالات خاصة بهذه الدرجة وضعتها لجنة من الأساتذة بملاحظة الأخ الكلى الاحترام إدريس راغب بك ، القاهرة ، مطبعة المقتطف (١٨٩٦) . (الطبعة الثانية ١٩٠٢) .

٧ – .... رسوم الدرجة الثالثة الرمزية للمحافل الماسونية المصرية ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٨٩٨) .

٨ – .... رسوم الدرجة الأولى الرمزية للمحافل الماسونية المصرية ، (ط ٢) ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٩٠١) .

٩ – .... رسوم الدرجة الثانية الرمزية للمحافل الماسونية المصرية ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٩٠١) .

١٠ – إلياس منسى (مترجم) : النظامات الأممية المسنونة بمعرفة المجلس الشوروى السامى للطريقة الاسكتلندية القديمة العهد لفرنسا وملحقاتها ، القاهرة ، المطبعة الأممية ، (١٨٩٠) .

١١ – .... أصول الماسونية الاسكتلندية (القديمة العهد) ، ط ٢ ، وقف على طبعه ونظر فيه الأخ عبد المسيح أنطاكى بك صاحب جريدة العمران ، القاهرة ، مطبعة العرب ، (١٩١٣) .

١٢ – إيليا الحاج : الخلاصة الماسونية ، النبذة الأولى ، مطبعة الترقى ، (١٩٠٠) .

١٣ – جرجى زيدان : تاريخ الماسونية العام منذ نشأتها إلى هذا اليوم ، القاهرة ، مطبعة المحروسة ، (١٨٨٩) . وقد أعادت طبعه دار الجيل ، بيروت ، (١٩٨٢) .

١٤ – زكى إبراهيم : صوت الماسونية ، أو التقويم الماسونى العام لمحفل منف تقديم عزيز ميرهم ، القاهرة ، (١٩٢٨) .

١٥ – شاهين مكاريوس : الآداب الماسونية ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٨٩٥) .

١٦ – .... الجوهر المصون فى مشاهير الماسون

١٧ – .... الحقائق الأصلية فى تاريخ الماسونية ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٨٩٧) .

١٨ – .... فضائل الماسونية ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٨٩٩) .

١٩ – .... الأسرار الخفية فى الجمعية الماسونية ، القاهرة ، مطبعة التمدن ، (١٩٠٠) .

٢٠ – .... الأزهار العطرية فى الماسونية المصرية

٢١ – .... الماسونية الرمزية

٢٢ – .... تاريخ الماسونية القديمة وآثارها (مترجم) مطبعة المقتطف ، (١٩٠٣) .

٢٣ – .... الدرجة الماسونية حسب طريقة المحفل الأورشليمى ، القاهرة ، مطبعة المقتطف ، (١٩٠٥)

٢٤ – .... الدستور الماسونى العام للطريقة الأورشليمية

٢٥ – عبد الرحمن سامى عصمت الصهيونية والماسونية ، ط٢ ، الإسكندرية ، مطبعة رمسيس ، (١٩٥٠) .

٢٦ – محمد عبدالله عنان تاريخ الجمعيات السرية والحركات الهدامة ، ط٢ ، القاهرة ، لجنة التأليف ، (١٩٥٤) .

٢٧ – مصطفى إسماعيل المصرى الهدية الأولى الإسلامية للملوك والأمراء فى الداء والدواء ، القاهرة ، مطبعة البارونية ، (١٣٢١) هـ

٢٨ – نقولا سابا اللآلىء الماسونية ، الإسكندرية ، (١٩٠٦) .

ثانيا – كتب ونشرات غير محددة المؤلف أو النشر

١ – دستور المحافل المصرية الوطنية التابعة لعشيرة البنائين الأبرار ذوى العهد القديم والراية المصححة ، القاهرة ، مطبعة التأليف ، (١٨٩٣) .

٢ – محفل الصدق الموقر (٣٠٥) بشرق شبرا ، القاهرة ، (١٩٠١) .

٣ – القانون الداخلى للمحفل من سنة (١٩٠٤ إلى سنة ١٩٠٩) . القاهرة ١٩٠٩ .

٤ – الحقيقة الجلية فى الشيعة الماسونية ، القاهرة ، (١٩٠٧) .

٥ – محفل السلام الاسكتلندى رقم (٩٠٨) ، د . ت .

٦ – المحفل الأكبر الوطنى المصرى : تقرير الأعمال لعام (١٩٢٧ ، القاهرة ، ١٩٢٧) .

٧ – نشرة أعمال المحفل الأكبر الوطنى المصرى ، القاهرة ، مطبعة عطايا ، (١٩٢٨) .

٨ – محاضرات محفل فرعون : المختار من المحاضرات التى ألقاها كبار الأدباء بالدار الماسونية المصرية (زكريا رشدى ، وفيلكس فارس ومحمد مظهر سعيد ، ومصطفى فهمى) الإسكندرية ، المطبعة الأهلية ، (١٩٣١) .

٩ – الماسونية فى البلاد العثمانية (دون مؤلف أو ناشر أو تاريخ نشر) .

ثالثا – صحف ومجلات (فى القاهرة مالم يحدد مكان آخر للصدور) .

أ – الصحف ذات الأهتمام العام بالماسونية

١ – مصر (١٨٧٨ – ١٨٧٩) مارون نقاش وأديب إسحق . أسبوعية (الإسكندرية) .

٢ – البيان (١٨٨٤ – ١٨٨٥) يوسف شيت وميخائيل جرجس . نصف أسبوعية .

٣ – المقتطف (١٨٨٤ – ١٩٥٢) يعقوب صروف وفارس نمر . شهرية

٤ – الفلاح (١٨٨٥) سليم حموى . أسبوعية .

٥ – الصادق (١٨٨٦) أمين ناصيف . أسبوعية .

٦ – اللطائف (١٨٨٦ – ١٩١٠) شاهين مكاريوس . أسبوعية .

٧ – المقطم (١٨٨٨ – ١٩٥٢) فارس نمر . يومية .

٨ – النصوح (١٨٩٢) محمد توفيق . أسبوعية .

٩ – النظام (١٩١٩ – ١٩٣٢) سيد على ، وعلية سيد على . يومية

١٠ – الأيام (١٩٢٩ – ١٩٣٠) حسين شفيق المصرى . يومية ، ثم أسبوعية من (١٩٤١ إلى ١٩٤٨) .

ب – الصحف ذات الاهتمام الخاص ، أى المتخصصة فى الماسونية :

١ – المجلة الماسونية (١٩٠١ – ١٩٠٣) يوسف لفلوفه ثم نقولا سابا . شهرية (الإسكندرية) . وقد أشارت فى أحد أعدادها (أول سبتمبر ١٩٠٣ ص ١٧٢) إلى جريدة ماسونية تدعى « الميزان » قالت عنها : إنها تصدر أسبوعيا بالعربية والإيطالية ويصدرها س . ن . ولكننا لم نعثر لها على أثر فى دار الكتب المصرية . ويبدو أنها صدرت فى الإسكندرية .

٢ – الجريدة الماسونية (١٩٠٣ – ١٩١٢) نقولا سابا . نصف شهرية (الإسكندرية) .

٣ – الإخاء (١٩٠٦) رحمين فرجون . نصف شهرية .

٤ – المجلة الماسونية (١٩٢٠ – ١٩٢٢) سيد على . شهرية .

٥ – الأخبار الماسونية . بالعربية والفرنسية (١٩٢١) موسى جرونشتين وإسكندر فرج وألبير بزيات . شهرية . صدر منها ثلاثة أعداد (يناير – مارس) .

٦ – الميثاق (١٩٢٤ – ١٩٢٥) المحفل الأكبر الوطنى المصرى . شهرية .

٧ – حيرام (١٩٢٤) جريدة ثلث شهرية . السيد على باشا . الإسكندرية .

٨ – الإخاء (١٩٣٠ – ١٩٣٢) محمد سيف النصر . أسبوعية (المنصورة) .

درجـــات الماســـونية

يتدرج عضو المحفل الماسونى فى سلم من الدرجات يصل إلى (٣٣) درجة على مستوى البلد الواحد ، كما فى انجلترا . ولكن هذه الدرجات الثلاث والثلاثين لايعرف عنها الكثيرون من أعضاء المحافل شيئا . فالمشهور منها ثلاث هى الأولى . وهذا بيان بالدرجات الثلاث والثلاثين كما تعرف فى الإنجليزية :

١ – التلميذ أو الصبى .
٢ – زميل الصنعة أو الرفيق .
٣ – الأستاذ أو الأسطى .
٤ – الأستاذ السرى .
٥ – الأستاذ الكامل
٦ – السكرتير أو الأمين أو المقرب
٧ – الوصى أو القاضى .
٨ – مراقب البناية أو المنبه
٩ – مختار التسعة .
١٠ – مختار الخمسة عشر
١١ – المختار الجليل .
١٢ – الأستاذ المهندس الأعظم .
١٣ – القوس الملكية .
١٤ – فارس الكمال
١٥ – فارس السيف أو فارس المشرق
١٦ – أمير القدس .
١٧ – فارس المشرق والمغرب .
١٨ – فارس البطريق والنسر والأمير للصليب الوردى .
١٩ – الحبر الأعظم
٢٠ – الأستاذ الأعظم المبجل .
٢١ – البطريرك النوكى .
٢٢ – أمير لبنان .
٢٣ – رئيس المعبد .
٢٤ – أمير المعبد .
٢٥ – فارس الأفعى النحاسية .
٢٦ – أمير الرحمة .
٢٧ – حامى المعبد .
٢٨ – فارس الشمس .
٢٩ – فارس القديس أندرو .
٣٠ – الفارس المنتخب الأعظم قادوش ، فارس النسر الأسود والأبيض .
٣١ – المفتش الأعظم القائد المحقق

٣٢ – الأمير الجليل للسر الملكى ٣٣ – المفتش العام الأعظم .

ويلاحظ أن بعض هذه الدرجات مأخوذ من صنعة البناء ، ولاسيما الثلاث الأولى ، وأن معظم الدرجات مأخوذ من التوراة والإنجيل . ويلاحظ أيضا أن الدرجة الأخيرة (المفتش العام الأعظم) لايحتلها فى بلد مثل إنجلترا سوى (٧٥) شخصا ، وأن الدرجة كلما علت قل عدد شاغليها .

هناك أيضا درجات محلية فى كل محفل تمنح بالانتخاب ، وتشغلها هيئة موظفى المحفل ، وهى :

١ – الأستاذ (الأعظم) .
٢ – نائب الأستاذ (الأعظم) .
٣ – نائب ثانى الأستاذ (الأعظم)
٤ – منبه أول (أعظم)
٥ – منبه ثان (أعظم) .
٦ – كاتب سر أو أمين (أعظم) .
٧ – حامل علم (أعظم) .
٨ – مرشد (أعظم) .
٩ – أمين خزينة (أعظم) .

مع ملاحظة أن كلمة « الأعظم » تضاف للعاملين بالمحفل الأعظم ، أى المحفل المشرف على المحافل الأخرى فى البلد الواحد .

مصطلحـــــات ماســـونية

هذا بيان بأهم المصطلحات الشائعة فيما يكتب عن الماسونية فى الإنجليزية والفرنسية :

الماسونية العلمية Operative Masonery

هى الماسونية الأصلية التى ارتبطت بأعمال البناء القديمة ، وتشكل المرحلة القديمة

الماسونية الرمزية Specularive Masonery

هى الماسونية التى اتخذت بعض رموز الماسونية القديمة وإشاراتها وأدواتها فى صنعة البناء ، وتشكل المرحلة الحديثة .

المحفل Loge, Lodge

وهو الوحدة الماسونية الأولى ، أو الخلية الأولى فى مجتمعها ، ويتألف من أعضاء مقبولين ، أى تم اختبار حسن نيتهم واستعدادهم وصلاحيتهم ، وقد أخذ المصطلح من الاسم القديم ، الذى كان يطلق على أكشاك البنائين خارج المبانى ، أو الأعمال الجارى بناؤها ، وكان البناءون يتجمعون فى هذه الأكشاك للمبيت ، أو تنظيم الواجبات ، أو تلقى الأجور .

المجمع Chapitre, Chapter

وهو الوحدة أو الخلية التنظيمية الأعلى . ويتألف من مجموعة محافل فى منطقة معينة داخل البلد الواحد .

المحفل الأعظم Crand Loge, Grand Lodge

وهو الوحدة أو الخلية العليا التى تشرف على المجامع والمحافل الفرعية .

الشرق Orient, East

وهو هيئة تشرف على مجموعة محافل ومجامع فى عدة بلدان .

تأسيس المحافل

تقديم العريضة

يقدم تسعة أساتذة عريضة إلى المحفل الأكبر باسم الأستاذ الأعظم يطلبون فيها إنشاء محفل جديد بالاسم الذى يختارونه والمكان والزمان للاجتماع ، وبعد الترخيص لهم ، حسب الأصول الماسونية ، يحضر الأستاذ الأعظم والمندوبون من قبله لتكريس المحفل رسميا وتثبيت موظفيه ، فيتلو الأستاذ الأعظم أو مندوبهُ الدعاء الآتى :

الدعـــــــاء

اللهمَّ ياعظيم ياعلىُّ يامهندس الكون الأعظم ، يامن وسع كرسيهُ السموات والأرض ياعليماً بما نخفى ونعلن ، اهدنا الصراط المستقيم ، وأعناً بقوّتك فى جميع أعمالنا التى تفتح باسمك الأعظم ، وتراعى بعين رعايتك وتختتم بالشكر مناً لك ، على نعمك التى لايحصيها محصٍ ولايعدها عاد .

(الجميع .. آمين)

ثم يُتلى الالتماس بطلب تأسيس المحفل ، ويعرب المؤسسون عن إتمام رغبتهم بذلك ، ويطلب الرئيس إلى الخطيب أن يتلو مقالة عن ماهية الماسونية ومقاصدها ، ويقرأ المزمور المائة والثالث والثلاثين وهو :

« هوذا ماأحسن وماأجمل أن يسكن الأخوة معاً . مثل الدهن الطيب على الرأس النازل على اللحية ، لحية هارون النازل إلى طرف ثيابه ، مثل ندى حرمون النازل على جبل صهيون . لأنه هناك أمر الرب بالبركة حياة إلى الأبد ».

نرفع آيات الشكر وعبارات الثناء والحمد ، لمهندس الكون الأعظم الذى أكرم أرواح عبادهِ وجعلها فى عليين ببركة السر المنبعث من عنان السموات .

اشكروا ياإخوانى بصوتٍ عالٍ يهوه ، الذى شُيِّدت القبة والهيكل لعبادته وذكر اسمهِ الأعلى

(ثم إن الخطيب يتلو الدعاءَ الآتى)

دعـــــاءُ التخصيـــص

اللهمَّ يامهندس الكون الأعظم وإلّه العالمين ، بارك فى جميع مقاصد اجتماعنا هذا وأنعم علينا من لدنك حكمة فى كل أعمالنا ، وقوة فى أفكارنا للتجلد عند الشدائد ، وجمالاً وحباً ووفاقاً فى عموم معاملاتنا ، واسمح لنا ياخالق النور والحياة ، ومنبع الحب والسرور فى إقامة هذا المحفل وتخصيصهِ ، لتمجيد اسمك الأقدس .. آمين .

ثم يقف الإخوان فيتلو الرئيس الدعاءَ الآتى :

نسألك ياإلّهنا وإلّه بنى إسرائيل ، يامن لا إله غيرك ، أن تهب السكينة والرحمة فى قلوب عبيدك الضعفاء المخلصين لك .

ليعلم أهل الأرض أن لا إله إلا الله

وليعلم أهل الأرض أجمع حقيقة اسمك ، ويخشوا عذابك ، وإنى بنيت لك هذا البيت ، وخصصتهُ لعبادتك ، فاستجب اللهمَّ دعائى ، وارعهُ بعينك التى لاتنام ، واقبل دعاءَ عبيدك فيه ، واغفر لهم إنك أنت الغفور الرحيم .

الجميع — آمين

الخطيب يتلو من سفر أخبار الأيام الثانى الإصحاح الثانى من عدد (١) إلى (١٦)

وأمر سليمان ببناء بيت لاسم الرب وبيت لملكه ، وأحصى سليمان سبعين ألف رجل حمال وثمانين ألف رجل نحات فى الجبل ، ووكلاء عليهم ثلاثة آلاف وستمائة . وأرسل سليمان إلى حورام ملك صور قائلاً ، كما فعلت مع داود أبى إذ أرسلت إليه أرزاً ، ليبنى له بيتاً يسكن فيه . فهأنذا أبنى بيتاً لاسم الرب إلٓهى لأقدسهُ لهُ لأوقِد أمامهُ بخوراً عطراً ولخبز الوجوه الدائم ، وللمحرقات صباحاً ومساء ، وللسبوت والأهلة ومواسم الرب إلهنا . هذا على إسرائيل إلى الأبد . والبيت الذى أنابانيهِ عظيم لأن إلٓهنا أعظم من جميع الآلهة . ومن يستطيع أن يبنى لهُ بيتاً لأن السموات وسماءَ السموات لاتسعهُ ، ومن أنا حتى ابنى لهُ بيتاً إلا للإيقاد أمامهُ . فالآن أرسل لى رجلاً حكيماً فى صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد ، والأرجوان والقرمز والأسما نجونى ماهراً فى النقش ، مع الحكماءِ الذين عندى فى يهوذا وفى أورشليم الذين أعدهم داود أبى ، وأرسل لى خشب أرزٍ وسروٍ وصندل من لبنان لأنى أعلم أن عبيدك ماهرون فى قطع خشب لبنان ، وهوذا عبيدى مع عبيدك . وليعدوا لى خشباً بكثرة لأن البيت الذى أبنيه عظيم وعجيب . وهأنذا أعطى للقطاعين القطاعين الخشب عشرين ألف كرّ من الحنطة طعاماً لعبيدك ، وعشرين ألف كرّ شعير ، وعشرين ألف بث خمر وعشرين ألف بث زيت ، فقال حورام ملك صور بكتابة أرسلها إلى سليمان ، لأن الرب قد أحبَّ شعبهُ جعلك عليهم ملكاً . وقال حورام مبارك الرب إله إسرائيل الذى صنع السماء والأرض الذى أعطى داود الملك ابناً حكيماً صاحب معرفة وفهم ، الذى يبنى بيتاً للرب وبيتاً لملكهِ .

والآن أرسلتُ رجلاً حكيماً ، صاحب فهم حورام أبى . ابن امرأة من بنات دان ، وأبوهُ رجل صورى ماهر فى صناعة الذهب والفضة والنحاس والحديد ، والحجارة والخشب والأرجوان ، والإسمانجونى والكتان ، والقرمز ونقش كل نوعٍ من النقش ، واختراع كل اختراع ، يلقى عليهِ مع حكمائك وحكماء سيدى

داود أبيك . والآن الحنطة والشعير والزيت والخمر التى ذكرها سيدى فليرسلها لعبيدهِ ، ونحن نقطع خشباً من لبنان حسب كل احتياجك ونأتى به إليه ارماثاً على البحر إلى يافا وأنت تصعدهُ إلى أورشليم .

الدرجة الأولى

شرح لوحة الرسم ومقالات خاصة بهذه الدرجة

وضعتها لجنة الأستاذة بملاحظة الأخ الكلى الاحترام

إدريس راغب بك

أستاذ أعظم المحفل الأكبر الوطنى المصرى ، ورئيس أول أعظم المقام الأكبر المصرى لدرجة العقد الملوكى ، وأمين خزينة أعظم للمجلس الأعلى المصرى لدرجة (٢٢) ، ورئيس سابق محفل الإخلاص رقم (٤٤٠) للأساتذة المعلمين . ومحفل الإخلاص رقم (٤٤٠) للفلك الملوكى ، وعضو شرف فى جمعية قديمى عهد الماسونية ، والحائز لدرجة النخل والصدف .

طبع فى مطبعة المقتطف بمصر
سنة ١٨٩٦

ج بمناظرتهِ وملاحظة الإشارة

س كيف تعرفهُ ليلاً ؟

ج بأخذ اللمسة وسماع الكلمة .

س كيف يتجه الريح فى الماسونية ؟

ج من الشرق إلى الغرب .

س لماذا ؟

ج لترويح نفس الرجال وقت الشغل .

س هل لذلك معنى آخر ؟

ج رمز للريح ذى المعجزة الذى كان ضروريا لخلاص بنى إسرائيل من أسر المصريين

س لماذا نعتبر الريح موافقاً للماسونية فى هذه الاتجاهات فقط ؟

ج لأنه حينما أراد مهندس الكون الأعظم أن يخلص شعبهُ المختار – (الإسرائيليين) من أسر المصريين أمر عبدهُ المطيع موسى أن يرشدهم لأرض كنعان ، التى وعدهم بإرثها ، فقادهم فى الصحراء لحدود مصر ، وهم يائسون للمبيت بجوار البحر الأحمر ، فأسف فرعون على ضياع عدد عظيم من العبيد النافعين ، وجمع جيشاً جراراً وخيولاً وعربات ، بقصد إرجاعهم لأسرهم كما كانوا ، وكان غير مرتاب فى نجاحِه ، لعلمهِ بأنهم غير مسلحين ، وليسوا تحت نظام ، وسفرهم كان عسراً بسبب حيواناتهم وبضائعهم ، فلما رأى الإسرائيليون أن البحر الأحمر أمامهم والجبال الوعرة على يمينهم وشمالهم ، والجيش المصرى وراءهم ، غضبوا وخاطبوا رئيسهم قائلين : لماذا أحضرتنا فى الصحراء للهلاك .؟ أفما كان فى مصر أرض كافية لدفننا ؟ فهدأ روعهم وأمرهم بالفرح ، لأنهم فى هذا اليوم سيتحصلون على أن الله يخلصهم ، ثم إنهُ بعد الدعاءِ بالعزة لله ضرب بعصاهُ البحر فهبت ريح شرقية وقسمت البحر قسمين ، وأمكن لبنى إسرائيل أن يمروا بينها على أرض جامدة ، ولما رأى ذلك فرعون تبعهم بدون روية ، وظن أن الفارين فى يدهِ فأرسل الله عمودا من النار والسحاب ، فكان لذلك تأثيران غريبان لأن النار أنارت على الإسرائيليين ، وسهلت لهم طريقهم ، والسحاب أظلم على فرعون وتابعيه وأخر سيرهم ، وأرسل سبحانهُ ملكاً كسر عجلات عرباتهم بحيث صار سيرهم بطيئاً ، فلما رأى فرعون أن يد الله مع أضداده أمر جيشهُ بالرجوع من حيث أتى ، ولكن كان ذلك بعد فوات الوقت ، لأن بنى إسرائيل

كانوا قد وصلوا البر الآخر فأمرهم موسى بالنظر لأعدائهم الذين كانوا يخافونهم كثيراً ، لأنهم ماكانوا يرونهم بعد ، فضرب البحر بعصاهُ فصارت الأمواج فى مجاريها الأولى واغرقت فرعون وأعوانهُ . وقد أحيا ذكر هذا الخلاص (بنو إسرائيل) فساروا أياماً فى الصحراء ينشدون ويشكرون الله القادر الذى نجاهم ، ومن هذا التاريخ اعتبر أن الريح الشرقى موافق للماسونية .

س ماهى العلامات المميزة للبناء الحر الصالح ؟

ج الفضيلة والشرف والشفقة (الرحمة) التى نود أن تكون دائماً فى قلب البنَّاء الحر .

س ماهى الصفات المميزة للأخيار من البنائين الأحرار ؟

ج هى الفضيلة والشرف والشفقة الملازمة لأفعال البنَّاء الحر الراسخة فى صدرهِ .

س أرجوك أن تبين لى ماهى الفضيلة

ج إننا نجد فى تاريخ الرومانيين القدماء أن الرئيس مرسيلوس ، عزم على أن يقيم هيكلاً للفضيلة والشرف ، ثم عاقتهُ العوائق زمناً عن إخراج هذا .

المحافل العاملة تحت لواء المحفل الأكبر

الرقم	اسم المحفل	يوم اجتماعه من الشهر	لغته	اسم الرئيس المحترم وعنوانه
		بمدينة القاهرة		
٣٧	اللطائف	السبت الأول	العربية	مفيد ميخائيل بك بمنزله بشارع بطرس باشا غالى بمصر الجديدة .
٥١	راغب	الأثنين الثالث	إنجليزى	المستر مانرنج بملك دى فازو شارع الانتكخانة .
٩١	رايزنج سن	الثلاثاء الرابع	إنجليزى	المسيو جراهام رقم (١١) شارع مسره بشبرا مصر .
١٢٥	نور الحكمة	الخميس الثانى	العربية	عبد المجيد يونس . بوزارة الأشغال العمومية بمصر .
١٣١	قسطنطين الأكبر	الأربعاء الأول	اليونانية	المسيو زفيروس كفكاليدس . طبيب بعيادته بشارع عماد الدين .
١٥٣	رفاعة	الأثنين الثانى	العربية	محمد شعراوى بك . بمصلحة عموم المساحة الجيزة فرعى .
١٨٦	وادى النيل	الأربعاء الثانى	الفرنسية	المسيو فكتور موديانر . رقم (١١) شارع عماد الدين بمصر .
١٩٤	حسنى	السبت الرابع	العربية	حسن حسنى فهمى بك . شارع عبد المنعم بحدائق القبة .
١٩٥	المجيد	الخميس الرابع	العربية	حسين بك فريد . وكيل المدير العام للجمعيه الزراعيه .
١٩٦	العلوى	الثلاثاء الأول	العربية	الأفوكاتو عبد الرحمن بك بهيج شارع محمد على بمصر
٢٠٠	طريق الهدى	السبت الأول	العربية	عبد الرحمن بك أبو حديد رقم ٧ شارع سليم عبده
٢٠٣	المروة	الاثنين الأول	العربية	محمد عباس افندى وكيل محلات جبلا بشارع فؤاد الأول بمصر
٢٠٤	صدق الوفاء	السبت الثالث	العربية	صاحب لاظ أوغلى بقصر الدوبارة

٢٠٦	أهل السماح	الخميس الأول	العربية	الدكتور حسين كامل التميمى مفتش بيطرى مديرية الجيزة
٢٠٧	الجمال	الثلاثاء الثانى	العربية	الدكتور فرنسيس إلياس شارع الفجالة بمصر
٢٣٠	ليكورجوس	الاثنين الأول	اليونانية	المسيو ديموستين كويساهيليس صندوق البوستة ١٨١٩ مصر
٢٣١	فلامبو	الثلاثاء الرابع	الفرنسية	المسيو ليون ستاراسلكى صندوق بوسته ٢٢٨ مصر
٢٣٣	الزوراء	الثلاثاء الثالث	العربية	يوسف أفندى شحاته هرارى تاجر بالسبع قاعات القبلية
٢٣٤	بريدا	الجمعة الثانية	انجليزى	المستر . هويز وكيل كلية الدراسة الأولية بشارع عماد الدين
٢٤٣	النيل	السبت الثالث	العربية	السيد أبوبكر راتب بك الزمالك بالقاهرة
٢٤٩	الفتيريا	الجمعه الأولى	اليونانية	المسيوبيريكليس مانياتوبولو وكيل بنك أثينا بمصر

٢٥٥	الميثاق	السبت الأول	العربية	محمد فؤاد عبده أفندى تاجر بالجمالية بمصر
٢٥٨	أسعد	الاثنين الثالث	العربية	الدكتور محمود مصطفى الباجورى طبيب بشارع نوبار بمصر
٢٥٩	الرجاء	الخميس الثالث	العربية	وديع أفندى ناصر شارع الترعة البولاقية رقم (١٠١) شبرا مصر
٢٧٢	سقراط	الاثنين الرابع	اليونانية	المسيو ك . كرسانتو مدير هليوبوليس هاوس اوتيل مصر
٢٨٠	إحيقام	السبت الثانى من كل شهر	العبرانية	ليون محرز أفندى ٤٩ شارع الفلكى بعابدين مصر

بمدينة الإسكندرية

٩٤	حياة إسكندرية	,,	العربية	أحمد مصطفى بك صندوق بوستة (٧٥٩) إسكندرية
١٤٢	سليمان	,,	العربية	المسيو إيلى حتويل إسكندرية صندوق البوستة ٢٨١

١٨٤	أطلس	الاربعاء الثانى	اليونانية	المسيو . رفانتينوس المكتبة اليونانية بشارع المتولى
٢٣٨	النهضة	الخميس الثانى والرابع	العربية	حسن على أفندى قلم الضبط بمحافظة إسكندرية
٢٤٢	أتينا	كل سبت	اليونانية	المسيو م . باياديمتريو شارع الإسكندرانى رقم (٢)
٢٥٠	جيروزاليم	السبت الثانى والرابع	الفرنسية	المسيو هوجزموس إسكندرية شارع المسلة رقم (٣)
٢٦٠	ممفيس	كل خميس	اليونانية	المسيو جورج القيرى بعمارة كسار بكامب شيزار بالرمل إسكندرية
٢٦٤	أومونيا	يوم الجمعة من كل أسبوع	اليونانية	المسيون . كاناكس بشارع الليث بإسكندرية
٢٧٣	محمد على	الأربعاء الأول والثالث	العربية	حسن عزت ضياء الدين أفندى رقم ٣٧ شارع الميدان بإسكندرية
٢٧٥	يونس	السبت الأول والثالث	العربية	حسن حسنى حمودة أفندى شارع البوصيرى رقم (١٧) بإسكندرية

٢٨١	بطليموس الاول	كل يوم اثنين	اليونانية	المسيو نقولا تيودوسيو رقم (١٢) شارع سردينيا بإسكندرية
٢٨٤	ترزاروما	الثلاثاء الأول والثالث	الإيطاليه	المسيو سابينوكاليا رقم (٤٦) شارع عبد المنعم بإسكندرية
٢٨٥	مينوس	الثلاثاء الثانى والرابع	اليونانيه	المسيو أما نويل باريتاكى رقم (٤) شارع الخازن بإسكندرية

بمدينة بورسعيد

١٨٣	سولون	الاثنين الأول	يونانية	المسيو نقولا إلياس صندوق البوستة (٣١١) ببورسعيد
٢٦٩	زاهر	الجمعه الأولى والثالثة	العربية	إبراهيم أفندى أبو شاهين شارع الأمير فاروق ببورسعيد

بمدينة السويس

١٢٧	الأهرام	كل أربعاء	عربية	ماير أفندى دنكور صندوق البوستة (٢٦) بالسويس

١٧١	فيثاغورث	الخميس الثانى والرابع	يونانية	المسيو . مافراركس صندوق البوستة (٢٩) بالسويس

بمدينة الإسماعيلية

٢٦٥	زيتون	الخميس الأول	اليونانية	المسيو جورج دندرينوس تاجر بالإسماعيلية
٢٩٠	إسماعيل	الخميس الأول والثالث	العربية	محمد مصطفى علام أفندى بحكمدارية بوليس القنال ببورسعيد

بمدينة المنصورة

٢١٨	صلاح الدين		العربية	الدكتور على محمد سبع مفتش صحة المنصورة
٢٤١	العروة الوثقى		العربية	محمد بك عبد الوهاب البرعى محام بالمنصورة

بمدينة بنها

٢٧٤	صهيون	الخميس الأول والثالث	اليونانية	المسيو جان فندوريس وكيل بنك خريمى بطوخ

تابع ماقبله

النمرة	اسم المحفل	يوم اجتماعه من الشهر	لغته	اسم الرئيس المحترم وعنوانه
		بمدينة طنطا		
٢٧٠	الغربية	الخميس الأول والثالث	العربية	عطيه شمس الدين أفندى من اعيان طنطا
		بمدينة كفر الزيات		
٢٤٨	كفر الزيات	—	العربية	الدكتور حسن محبوب بك طبيب بكفر الزيات
٢٦٧	فيثاغورث	الخميس الأول والثالث	اليونانية	المسيو جان كوكونس صندوق بوستة رقم (٣٦) بكفر الزيات

بمدينة دمنهور

١٩٩	فاروق	كل خميس	العربية	الدكتور محمد بك فضلى طبيب بدمنهور

بفلسطين

٢٦٢	أورشليم بالقدس	يوم الثلاثاء من كل أسبوع	الفرنسية	المسيو صمويل هاشمشونى جواهرجى بالقدس
٢٦٣	الدجى بيافا	,,	العربية	عزت السعيدبك بيافا
٢٧٩	جبل صهيون بالقدس	الاثنين الأول والثالث من كل شهر	الانجليزية	المسيو ا . كارنيول صندوق البوستة رقم (٦٣٨) بالقدس
٢٨٣	موريا بيافا	,,	الفرنسية	الدكتور ألبرت أبو شديد بيافا
٢٨٦	البرنس محمد على	يوم الخميس	العربية	يوسف بك ضياء الدجانى بيافا
٢٨٧	الخليل بالقدس	يوم الأربعاء	العربية	فايز بك حداد بالقدس
٢٨٨	روبين بحيفا	يوم الأربعاء	الفرنسيه	المسيو شباتاى ليفى بحيفا
٢٩١	باكس	الأربعاء الأول والثالث	الأنجليزية	المستر أندرو كوخ رئيس مصلحة المياه بالقدس
٢٩٢	حيرام		العبرية	المسيو مارك جوررودسكى المحامى تل أبيب يافا

٢٩٣	جبل سينا		الانجليزية	المستر ماير يعقوب بنجيات صندوق البريد (٤٦) بالقدس
٢٢٦	بيروت ببيروت	كل خميس	العربية	سعد الدين أفندى خالد سكرتير مجلس النواب اللبنانى
٢٤٠	الاتحاد ببيروت	كل اثنين	العربية	محمد جميل بيهم بك صندوق البريد نمرة (٦٤١) بيروت
٢٤٥	المنيا الأمين أسكلة طرابلس	كل خميس	العربية	مصطفى عادل الهندى أفندى أسلكة طرابلس الشام
٢٥٧	الهلال كسبة الكورة لبنان	كل سبت –	العربية	الدكتور نجيب غصن أفندى كسبة الكورة – لبنان
٢٦٦	حرمون طرابلس الشام	الخميس الأول والثالث	العربية	الدكتور إسكندر غريب بطرابلس الشام
٢٨٩	الإسعاف		العربية	الدكتور رضا سعيد بك بدمشق

بالعراق

٢٦١	صدق الوفاء	يوم الإثنين من كل أسبوع	العربية	عبد الكاظم بك الشمخانى من أعيان البصرة

المحفل الأكبر الوطنى المصرى
للبنائين الأحرار القدماء المقبولين

نداء إلى أهالى فلسطين

باسم الحرية ، والإخاء والمساواة التى هى الشعار المقدس للماسونية ، ذات المبادىء الخالدة .

وباسم السلام العام ، الذى تدعو إليه جميع المذاهب الفلسفية ، وتأمر به كل الأديان السماوية .

يتقدم المحفل الأكبر الوطنى المصرى .

إلى أئمة الدين الحنيف وحفظة الشرع الكريم ، الذين يستمع إليهم عرب فلسطين .

إلى رؤساء جميع الأديان الأخرى ، سواء كانت مسيحية ، أو موسوية ، أو غيرها ، على اختلاف النحل والمذاهب .

إلى أهل العقول الراجحة ، والبصيرة النيرة ، الذين يصدعون بالحق ، وفى الحق لايخشون لومة لائم .

إلى أرباب الأقلام والصحف ، الذين يقتدى بهم الخاصة ، ويهتدى بهم العامة .

إلى أكابر المسلمين وأعيانهم ، الذين يغارون على مجد أسلافهم الكرام ، أولئك الأسلاف الذين سبقوا الناس كافة ، فشرعوا للإنسان حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل .

إلى أصحاب المناصب وذوى الحل والعقد المسئولين أمام خالقهم ، وأمام ذمتهم عن حفظ السلام ، وإقامة القسطاس بين جميع المتوطنين فى فلسطين .

إلى التجار الذين تتنافر مصالحهم مع العنف والعدوان ، وسفك الدماء وتخريب العمران .

إلى العمال والصناع الذين يستفيدون ويفيدون ، من ازدياد أسباب الثروة وتوافر عوامل الرخاء فى فلسطين .

إلى أصحاب المزارع والضياع ، وأرباب المسقفات والمبانى ، الذين سيكون نماء العمار فى بلادهم ، سببا لتدفق الثروة عليهم .

إلى المزارعين والأكارين ، الذين سينالون أكبر المنافع باستخدام الأساليب الحديثة ، التى لاتلبث أن تتوافد عليهم ، فتعمهم الرفاهية ، وتتحسن أحوالهم المادية والأدبية .

إلى الشباب الناهض ، الذى سيجنى أكبر الثمرات ، مما سيقام فى فلسطين من معاهد العلم ، مثل ماجناه أبناء سورية ، مما أسسه المرسلون الدينيون فى بيروت وغيرها ، مع ماهى مصبوغة به من الصبغة الدينية . فأما المعاهد التى ستقام فى فلسطين ، فلا تكون إلا علمية محضة وطنية بحتة ، فيكون من شأنها إحياء الشرق ، وتجديد فخاره الماضى ، وإعادة مجده القديم ، وإرجاع أهله إلى مكانتهم السامية .

إلى المشاغبين ، أولئك الذين لاتؤدى أعمالهم إلى شىء آخر سوى الضرر بمصالح العرب الحقة ، وإلى أولئك الذين يسوقون من خلف الستار بنى قومهم الساذجين إلى العبث بذمة العرب الكرام ، وإلى ارتكاب الإثم والعدوان .

إلى أولئك الذين يتوافدون من كل فج عميق ، لزيارة قبر الكليم « النبى موسى »

عليه السلام ، فى يوم موسمه القادم ، الذى هو رمز المحبة والسلام ، إلى أولئك الذين يغريهم الدساسون الخادعون ، على اقتراف المحارم وسفك الدماء ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق !

ثم إلى الأمة الفلسطينية كلها كبيرها وصغيرها ، رجالها ونسائها ، بلا تمييز بين الأجناس والأديان .

فيقول للجميع بلسان الماسونية المصرية ، وبلسان الإنسانية :

اذكروا – نفعكم الله – أن الفرنسيين والإنجليز فى بلاد كندا ، يتألف من عنصريهما المختلفين ، جنسا وسلالة ، أمة واحدة يعيش أفرادها جنبا إلى جنب بسلام وأمان .

اذكروا أن الألمان والفرنسيين والطليان ، تتألف منهم « فى بلاد سويسرا » أمة واحدة متجانسة على اختلافها فى اللغات والأديان ، وأن تكاتفهم واتحادهم ، وإجماع كلمتهم ، منبع قوتهم ومصدر ثروتهم ، وأن فى تماسكهم وتضامنهم حياتهم الشريفة ، وحريتهم الغالية .

ياأهل فلسطين :

تذكروا أن اليهود هم إخوتكم وأبناء عمومتكم ، قد ركبوا متن الغربة فأفلحوا ونجحوا . ثم هم اليوم يطمحون للرجوع إليكم لفائدة وعظمة الوطن المشترك العام ، بما أحرزوه من مال وماااكتسبوه من خبرة وعرفان .

إن العربى والعبرى صنوان من شجرة إبراهيم ، أبواهما إسحق وإسماعيل . فمتى وضع أحدهما يده فى يد الآخر انتفعا جميعا بما لديهما من الوسائل المختلفة ، وكان فى تعاونهما تمام الخير وكمال البركة بإذن الله .

اسمعوا وعوا هذا الصوت الذى تناشدكم به مصر ، شقيقتكم الكبرى .

إنها تدعوكم إلى السلام والوئام ، لمصلحتكم ولمصلحة الشرق ، وهى فوق كل مصلحة .

اسمعوا هذا الصوت الذى يدعوكم إلى الحكمة وسبيل الرشاد ، هذا الصوت المنبعث من أرض تفاخر وتباهى بصلاح الدين ، ذلك الملك الجليل الذى أعجب به العالم طراً ، بما كان له من تسامح ، لايزال كوكبه الوضاء يتلألأ فى جبين الشرق والإسلام . فقد كان بتسامحه مع اليهود والنصارى أشرف الملوك وأجلهم قدراً ، وماذلك إلا لأنه تشبع بروح الإسلام الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فاستمد رجحانه على كل معاصريه من تلك القوة التى أرسلت أنوار الحضارة على العالم بأجمعه ، تلك هى قوة العرب .

حافظوا على شرف العرب القديم ، وعلى مجدهم الصميم ، ولاتندفعوا وراء الأيدى الخفية ، فى تيار الظلم والعدوان . وإياكم ثم وإياكم أن تسفكوا الدم الذى حرم الله .

هذا مارآه المحفل الأكبر الوطنى المصرى . ويقينه أن أهل فلسطين يستمعون لهذا النداء ، وأخصهم العرب ، فإنهم هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

لقد أدى المحفل الوطنى المصرى الأمانة . وقام بالواجب عليه نحو التضامن الإنسانى ، ورجاؤه أن يكون لهذا النداء أحسن صدى ، فيهب أصحاب الكلمة المسموعة من إخواننا اليهود وإخواننا النصارى وإخواننا المسلمين المتوطنين فى فلسطين لدعوة أبنائهم وقرابتهم والمؤتمين بهم إلى الامتناع عن المحارم والآثام ، إلى اجتناب أسباب الشقاق والانقسام فى تلك الأرض المقدسة ، أرض فلسطين ،

حتى يسود بين عناصرها الاتحاد والوئام ، ويخيم على ربوعها السلام .

الأستاذ الأعظم — كاتب السر الأعظم
إدريس راغب — عبد المجيد يونس
نائب الأستاذ الأعظم — مساعد نائب الأستاذ الأعظم
محمد رفاعة — طه إبراهيم

عن القاهرة فى (٢ أبريل سنة ١٩٢٢)

بيان إلى أهالى فلسطين

لقد أحدث نداء المحفل الأكبر الوطنى المصرى إلى الأمة الفلسطينية الكريمة سوء تفاهم يوجب الأسف ، فهو لذلك يرى من واجبه إيضاح قصده منعا للالتباس .

لم يرد المحفل الأكبر الوطنى المصرى بندائه مصادمة عواطف الفلسطينيين ، فى أسلوب الدفاع عن حقوقهم ، أو الاحتفاظ بمصالحهم ، أو بمطالبتهم بأمانيهم المشروعة أو الاستكانة للغرباء ، وإنما أراد عدم حدوث شجار أو شغب أو إراقة دماء فى مدة مولد النبى موسى الكليم ، الذى يتوافد إليه الكثيرون من أنحاء المعمورة ، ولذا بادر بنشر ندائه قبل زمن قصير . وإن المحفل الأكبر ليحمد الله على تحقق ماكان يقصده . فقد ابتدأ المولد وانتهى بسلام ، ويرجو أيضا أن يسود هذا السلام على الدوام .

أما الصهيونيون الذين يفدون من الخارج ، ويستوطنون فلسطين ، فللفلسطينيين أنفسهم الحرية التامة فى أن يحكموا إذا كانوا يقبلون إدماجهم فى العنصر الفلسطينى من عدمه .

وبعد هذا البيان يتعشم المحفل الأكبر الوطنى المصرى ، أن يكون قد زال كل ماعلق بنفوس إخواننا الفلسطينيين من سوء التفاهم .

هذا والمحفل الأكبر الوطنى المصرى ، يبرأ إلى الله أن يكون ألعوبة تلعب بها أهواء ذوى الأغراض والمصالح الشخصية ، لأنه لم يقدم على نشر النداء إلا حبا فى أن يرى السلام سائدا بين جميع العناصر التى تتألف منها الأمة الفلسطينية الكريمة .

وفى الختام يتمنى للفلسطينيين كل سعادة ورفاهية .

الأستاذ الأعظم — إدريس راغب
كاتب السر الأعظم — عبد المجيد يونس
نائب الأستاذ الأعظم — محمد رفاعة
مساعد نائب الأستاذ الأعظم — طه إبراهيم



الفهرس

الموضوع | الصفحة